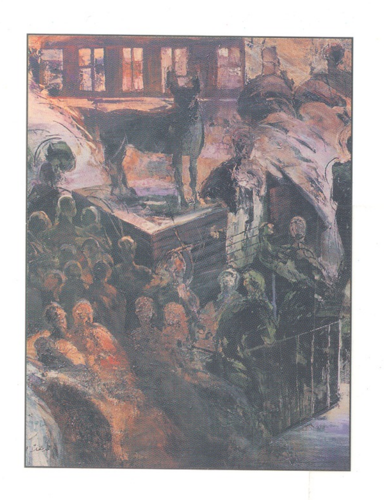
ميلان كونديرا

ڤالس الوداع

رواية



ترجمة: روز مخلوف

فالس الوداع

* ميلان كونديرا
* ڤالس الوداع
* ترجمة روز مخلوف

* الطبعة الأولى 2000
* موافقة وزارة الإعلام رقم 48656 بتاريخ 2000/7/12
* الناشـــــــــر : ورد للطباعـــة والنشـــر والتوزيـــع
سوريـــة ـ دمشق ☎ 3321053
* الإشـــراف الفني : د. مجد حيدر
* لوحــــة الغلاف : د. أحمد معلاّ
* الإخـــراج الفني : دار الحصاد للطباعة والنشر والتوزيع
* التـــــوزيـــع : دار ورد ☎ 3321053

ميلان كونديرا

فالس الوداع

رواية

ترجمة: روز مخلوف



إلى فرانسوا كيريل

اليـــوم الأول
اليوم الثـانـي
اليوم الثـالث
اليوم الرابـع
اليوم الخامس



اليوم الأول

1

بدأ الخريف وتلونت الأشجار بالأصفر والأحمر والبني؛ بدت مدينةُ المياه الصغيرة، في واديها الصغير الجميل، وكأنَّ حريقاً يحيط بها. وتحت القناطر نساء يرحن ويأتين وينحنين فوق الينابيع. إنهن نساء غير قادرات على الإنجاب، ويأملن أن يجدن الخصوبة في هذه المياه المعدنية الحارة.

الرجال هنا أقل عدداً بكثير بينِ النزلاء القادمين للاستشفاء، لكنَّ هناك رجالاً، مع ذلك، إذ أنه فضلاً عن خصائص المياه المُعالجِة للأمراض النسائية يبدو أنها جيدة للقلب. رغم كل شيء، يوجد تسعِ إناث مُقابل كلٍ نزيل واحدٍ من الذكور، وهذا يُغضِب الشابة العازِبة التي تعمل هنا ممرضة وتُعنى بمسبحِ السيدات القادمات لمعالجة عقمهن!

هنا ولدت روزينا، وهنا يعيش والدها ووالدتها. هل ستُفلِت قط من هذا المكان، من هذه الكَثرة الفظيعة للنساء؟

نحن في يوم الاثنين، ويوم العمل يقترب من نهايته، ولم يبق سوى بضع نساء سمينات عليها أن تَلُفَّهنَّ بغطاء، تُمدِّدهنَّ فوق سريرٍ للراحة، تمسح وجوههن، وتبتسم لهن.

«إذن، هل ستتَّصِلين؟ تُسأل روزينا من قِبَل زميلتيها؛ إحداهن أربعينيَّةٌ سمينة، والأخرى أكثر شباباً ونحيلة.

ـ ولم لا؟ تُجيب روزينا.

ـ تعالي! لا تخافي! وقادَتْها إلى خلف حجرات الثياب حيث توجد خزانة الممرضات، وطاولتهن وجهاز هاتفهن.

ـ يجدر أن تتصلي به في بيته، لاحظت النحيلةُ بخبث، وانفجرت ثلاثتُهُنَّ بالضحك.

ـ أعرف رقم المسرح»، قالت روزينا عندما هدأ الضحك.

2

كانت محادثةً فظيعة. حالما سمع صوت روزينا في الجهاز أصيب بالهلع.

لطالما أخافته النساء؛ مع ذلك لم تصدِّق أيٌّ منهن هذا، ولم يرين في هذا التأكيد سوى مزحة من قَبيل الدلال.

«كيف حالكِ؟ سألَها.

ـ لستُ في حال جيدة جداً، أجابت.

ـ ما الأمر؟

ـ يجب أن أكلمك»، قالت بصوتٍ شجيٍّ مؤثِّر.

إنها النبرة الشجِيَّة المؤثِّرة التي ينتظرها بهلعٍ منذ سنين.

«ماذا؟» قال بصوت مخنوق.

كررت: «يجب أن أكلمك حتماً.

ـ ما الذي يحدث؟

ـ شيء يَهمُّنا كلينا».

لبث عاجزاً عن الكلام. وبعد لحظة كرر قوله: «ما الذي يحدث؟»

ـ تأخرث دورتي ستة أسابيع».

قال وهو يبذل جهداً كبيراً لكي يسيطر على نفسه: «هذا بالتأكيد لايعني شيئاً. إنه يحدث أحياناً ولا يعني شيئاً.

ـ لا، هذه المرة، لقد حدث فعلاً.

ـ غير ممكن. مستحيل قطعاً. على أية حال، لا يمكن أن أكون أنا السبب.»

اغتاظت فقالت له: «من تظنني من فضلك!»

خاف من الإساءة إليها، لأنه فجأةً خاف من كل شيء : «لا، لا أريد أن أجرحك، هذا حُمق، ولماذا أرغب بذلك، أقول فقط إنه لا يمكن أن يكون هذا الأمر قد حدث معي، وإنه ليس هنالك ما تخشينه، وإن هذا مستحيل، فيزيولوجياً مستحيل.

قالت وغيظها يشتد شيئاً فشيئاً: في هذه الحالة، لا فائدة. عذراً لإزعاجك».

خشي أن تقفل الخط، فقال: « لا، أبداً. حسناً فعلتِ باتصالكِ بي، هذا أكيد. كل شيء يمكن أن يسوَّى.

ـ ما قصدك بِـ يسوًّى؟»

شعر بالضيق. لم يجرؤ أن يُسمِّي الأمر باسمه الحقيقي: «حسناً... نعم... يُسوًّى.

ـ أعرف ما تقصده، ولكن لا تعتمد على ذلك، اِنْسَ هذه الفكرة. لن أفعل ذلك حتى لو توجَّبَ علي أن أفسد حياتي.»

شَلَّهُ الخوف من جديد، لكنه هذه المرة اتخذ بخجل موقف الهجوم: « لماذا تتصلين بي إذن، إذا كنتِ لا تريدين أن تكلميني؟ هل تريدين أن تناقشي معي أم أنكِ اتخذتِ قراراً؟

ـ أريد أن أناقش معك.

ـ سآتي لأراكِ.

ـ متى؟

ـ سأُعْلمك.

ـ حسناً.

ـ إلى لقاء قريب إذن.

ـ إلى لقاء قريب.»

أقفل الخط وعاد إلى القاعة الصغيرة حيث تتواجد فرقته الموسيقية.

قال: «أيها السادة، انتهى التدريب، هذه المرة أنا مرهق جداً.»

3

حين أغلقت السماعة كانت حمراء من الإثارة. فالطريقة التي تلقّى بها كليما النبأ، مُهينةٌ لها. لقد كانت أصلاً مُهانة منذ وقتٍ ليس بالقصير.

هاقد مضى شهران منذ تَعارُفِهما في مساءٍ قدَّم فيه عازفُ الترومبيت الشهير مع فرقته حفلة موسيقية في مدينة المياه. تلت الحفلةَ جلسةُ مُجونٍ دُعِيتْ إليها. ميَّزَها عازفُ الترومبيت من بين جميع الفتيات وأمضى الليلة معها.

مذّاك انقطعت أخباره. أرسلت له بطاقتَيْ بريد مع تحياتها، ولم يجبها قط. لدى مرورها يوماً في العاصمة، اتصلت به إلى المسرح حيث علمتْ أنه يتمرن مع فرقته. طلب منها الشخص الذي رد عليها أن تعرّف عن نفسها ثم قال لها إنه ذاهب في طلب كليما. حين عاد بعد بضع لحظات، أعلن أن التدريب انتهى وأنَّ عازف الترومبيت انصرفَ. تساءلت عما إذا لم تكن تلك طريقة لإبعادها، الأمر الذي سبب لها غيظاً زادَهُ شدةً كونُها بدأت تشك بأنها حامل.

«يزعم بأن الأمر مستحيل فيزيولوجياً! شيء رائع، مستحيل فيزيولوجياً! أتساءل ماالذي سيقوله حين يولد الصغير!»

كانت زميلتاها تؤيدانها بحرارة. وفي اليوم الذي أعلنت لهما، في القاعة المشبعة بالبخار، بأنها عاشت الليلةَ السابقةَ ساعاتٍ لا توصف مع الرجل الشهير، أصبح عازفُ الترومبيت في الحال ملكاً لكل زميلاتها. راح شبحُهُ يرافقهن إلى القاعة التي يتعاقبن على دخولها، وإنْ لُفظ اسمُهُ في مكانٍ ما ضحكن في عُبُهنَّ كما لو أن

الأمر يتعلق بشخص يعرفنه معرفةً حميمية. وحين علمن أن روزينا حامل اجتاحهتن متعةٌ غريبة، لأنه، اعتباراً من ذلك الوقت، بات حاضراً معهن جسدياً، في عمق أحشاء الممرضة.

رَبَّتَت الأربعينيَّةُ على كتفها: «هيا ياصغيرتي، اهدئي! عندي شيء لك.» ثم فتحت أمامها عدداً من مجلة مصورة متَّسخة بالأحرى ومُجَعْلَكة: «انظري!»

تَملَّت ثلاثتُهُنَّ في صورة امرأة شابة سمراء وجميلة تقف فوق منصة وأمام شفتيها ميكروفون.

كانت روزينا تحاول استقراء قدَرِها فوق السنتيمترات المربعة القليلة تلك.

«لم أكن أعرف أنها شابة إلى هذا الحد، قالت وهي ممتلئة بالخشية.

ابتسمت الأربعينية:

ـ هيا! إنها صورة تعود لعشر سنين. كلاهما في العمر نفسه. هذه المرأة ليست منافِسةً لك!»

4

تَذَكَّرَ كليما أثناء حديثه الهاتفي مع روزينا بأنه ينتظر هذا الخبر الرهيب منذ زمن طويل. صحيح أنه ليس لديه أي دافع معقول ليفكر بأنه لقَّحَ روزينا في تلك الأمسية القاضية (بالعكس، كان على يقين من أنه اتُّهِم ظُلماً)، لكنه كان ينتظر خبراً من هذا النوع منذ سنين طويلة، وقبل أن يعرف روزينا بكثير.

كان في الحادي والعشرين من عمره حين فكرتْ فتاةٌ شقراء هامتْ به، أن تتظاهر بأنها حامل لكي تجبره على الزواج. كانت أسابيع رهيبة سببتْ له تشنجات في المعدة سقطَ في نهايتها مريضاً.

منذ ذلك بات يعلم أنَّ الحَمْل ضربةٌ ربما تفاجئه من أي جانب وفي أي وقت، ضربة لايوجد مانع صواعقٍ ضدَّها، ويُعلَن عنها بصوت شجيٍّ مؤثِّر عبر الهاتف (نعم، تلك المرَّة أيضاً أخبرتهُ الشقراءُ بالخبر المشؤوم، عبر الهاتف أولاً). ما حدث له في عامه الحادي والعشرين جعلهُ يقترب من النساء بشعورٍ من القلق دوماً (ومع ذلك بِحَميَّةٍ لا بأس بها)، وجعلهُ يخشى من عواقب وخيمة بعد كل موعد غرامي. عبثاً أقنع نفسه، مِن فرْطِ التفكير، بأن احتمال وقوع كارثة مماثلة بالكاد يصل، مع حذرِهِ المَرَضيّ، إلى جزءٍ من ألف بالمئة، لكن حتى هذا الجزء بات يرعِبُهُ.

مرةً أغرتْهُ أمسيةٌ كان فيها حراً، فاتصل بامرأة لم يرها منذ شهرين. حين عرفت صوته صاحت: «يا إلهي، هذا أنت! كنت أنتظر اتصالك بفارغ الصبر! كنت بحاجة شديدة لأن تتصل بي!» وراحت تقول ذلك بقدر من الإلحاح ومن التهيُّج، جعل القلقَ المعتاد يُطبِق على قلبِ كليما ويملأ كيانه كله بشعورٍ بأنَّ اللحظة التي يخشاها حانت الآن. وبما أنه أراد مواجهة الحقيقة بأسرع ما يمكن، بادَرَ مهاجِماً: «ولماذا تقولين لي ذلك بهذه النبرة التراجيدية؟ ـ البارحة توفيت أمي»، أجابت المرأة، فارتاح وهو يدرك بأنه، على أية حال، لن يفلت من المصيبة التي يتوجس خوفاً من وقوعها ذات يوم.

5

«هذا يكفي. ما معنى ذلك؟» قال ضاربُ الإيقاع، وعاد كليما أخيراً إلى رشده. رأى من حوله وجوهَ موسيقييه وشرح لهم ما يحدث له. وضع الرجالُ آلاتِهم وأرادوا مساعدته بنصائحهم.

كانت النصيحة الأولى جذرية: صرَّحَ عازف الغيتار الذي يبلغ الثامنة عشرة من عمره بأنَّ امرأةً مثل تلك التي اتصلت للتو بقائد فرقتهم وعازف الترومبيت فيها، يجب صَدُّها بقسوة. «قل لها أن

تفعل ما تشاء. الطفل ليس منك ولا شأن لك في هذا مطلقاً. إذا أصرّت سيُبَيِّنُ تحليلٌ للدم من يكون الأب».

أشار كليما إلى أن تحاليل الدم لا تثبت شيئاً عموماً وأن اتهامات المرأة تنتصر في هذه الحالة.

أجاب عازف الغيتار بأنه لن يكون هناك تحليل دم على الإطلاق. فحين تُزجر المرأة سوف تحرص بشدة على تجنيب نفسها خطوات لا نفع منها، وحين تدرك بأن الرجل الذي تتهمه ليس ألعوبةً ستتخلص من الطفل على نفقتها الخاصة. «وإذا انتهت مع ذلك بالنَّيْل منه، فسنذهب جميعنا، كل موسيقيي الفرقة ونشهد أمام المحكمة بأننا جميعاً ضاجعناها آنذاك. فليبحثوا عن الوالد بيننا!»

لكن كليما ردَّ قائلاً: «أنا متأكد أنكم قد تفعلون ذلك من أجلي. ولكني أكون بانتظار ذلك قد أصبتُ منذ زمن طويل بالجنون من شدة الشك والهلع. أنا في هذه المسائل أجبَنُ رجلٍ تحت الشمس، وأحتاج إلى اليقين قبل كل شيء».

الجميع متفقون. كان منهج عازف الغيتار جيداً مبدئياً، ولكن ليس بالنسبة للجميع. إذ لا يُنصَح به على الأخص لرجلٍ لا يمتلك أعصاباً متينة. كما لا يُنصَح به كذلك في حالة رجلٍ شهير وغني يستحق أن تقتحم امرأةٌ مشروعاً ينطوي على مجازفة شديدة، لأجله. لذا اتَّفقوا على الرأي القائل بأنه بدلاً من صَدِّ المرأة بقسوة يجدر اللجوء إلى الإقناع لكي تقبل بإجهاض نفسها. ولكن ما الحجج التي يجب اختيارها؟ كان بالإمكان تصور ثلاثة مناهج أساسية:

المنهج الأول يُناشِدُ قلبَ المرأة الشابة الرحيم: سيتكلم كليما مع الممرضة كما لو أنه يتكلم مع صديقته المفضلة؛ سيكشف لها بصدق عن مكنونات قلبه؛ سيقول لها إن زوجته مصابة بمرض خطير وأنها ستموت إذا علمت أن لزوجها طفلاً من امرأة أخرى، وأنَّ كليما لن يستطيع احتمال وضعٍ مشابه، لا معنوياً ولا عصبياً؛ وسيتوَسَّل إلى الممرضة أن ترحمه.

يصطدم هذا المنهج باعتراضٍ مبدئي. ليس من الممكن بناء الاستراتيجية كلها على شيء مشكوك به وغير مضمون بهذا القدر، هو طيبة قلب الممرضة. يجب أن يكون لها قلب طيب ورحيم فعلاً حتى لا يرتدَّ هذا المنهجُ ضد كليما. وستبدو أشد عدوانية بسبب شعورها بالإهانة من تلك المراعاة المفرطة التي يظهرها والد طفلها المنتَخَبُ لامرأةٍ أخرى.

المنهج الثاني يناشد حس المرأة الشابة السليم: سيحاول كليما أن يشرح لها بأنه غير متأكد من أنَّ الطفل طفله حقاً، وبأنه لن يستطيع التأكد من ذلك قط. فهو لم يعرف الممرضة إلا من لقاء واحد ولا يعرف عنها شيئاً إطلاقاً. لم تكن لديه أدنى فكرة عمَّنْ تُعاشِر من رجال غيره. لا، لا، إنه لا يشك بأنها تريد توريطه عمداً، لكنها لا تستطيع مع ذلك أن تؤكد له بأنها لم تعاشر رجالاً آخرين! وهل ستؤكد له ذلك، أين يمكن لِ كليما أن يجد الضمان بأنها تقول الحقيقة؟ وهل سيكون من المعقول أن يُسمَح بولادة طفل لن يتمكن أبوه قط من التَّيَقُّن من أُبُوَّتِهِ له؟ هل يمكن أن يهجر كليما زوجته من أجل طفلٍ لا يعرف حتى هل هو طفله؟ وهل ستتمسك روزينا بطفلٍ لن يُسمَح له قط بالتعرُّف على أبيه؟

تبينَّ أن هذا المنهج مشكوك فيه أيضاً: لَفَتَ عازفُ الكونترباص (الرجل الأكبر سناً في الفرقة) النظر إلى أنَّ التعويل على حسِّ الشابة السليم، أكثر سذاجةً من الاتِّكال على طيبة قلبها. لأن مَنطق الحجّة قد يصيب مرمىً عريضاً جداً بينما يضطرب قلبُ المرأة الشابة بسبب رفض الرجل المحبوب الاعتقاد بصدقِها، مما يدفعها إلى المُكابَرة والتشبث أكثر بتأكيداتها ومشاريعها.

هناك أخيراً منهج ثالث: سيُقسم كليما لأم المستقبل بأنه أحبَّها ويحبها. أما فيما يتعلق باحتمال أن يكون الطفل من شخص آخر فسوف يتوجَّب عدم التلميح إلى ذلك بأية إشارة. على العكس، سيقوم كليما بِغَمْر المرأة الشابة في حمَّام من الثقة والحب والحنان. سيَعِدُها بكل شيء بما في ذلك طلاق زُوجته. سيَصِف لها مستقبلهما

الرائع. وباسم ذلك المستقبل سوف يرجوها لاحقاً بأن توقف حملها. سيشرح لها بأن ولادة الطفل ستكون سابقة لأوانها وستحرمهما من السنوات الأولى، أجملِ سنوات حبِّهما.

ينقص هذه الحجة ما هو زائد عن الحاجة في الحجة السابقة: المنطق. كيف أمكَنَ أن يَهيم كليما بالممرضة بهذه القوة، في حين أنه تَجَنَّبَها طوال شهرين؟ لكن عازف الكونترباص راح يؤكد بأن للعشاق سلوكاً لامنطقياً على الدوام، وأنه ليس هنالك ما هو أسهل من شرح هذا السلوك للمرأة الشابة، بطريقة أو بأخرى. في النهاية اتفق الجميع على أن هذا المنهج الثالث ربما كان الأكثر إرضاءً، لأنه يَستنهِض عاطفة الحب لدى المرأة الشابة، وهي الشيء الوحيد اليقيني نسبياً في الظروف الراهنة.

6

خرجوا من المسرح وافترقوا عند زاوية الشارع، لكن عازف الغيتار رافق كليما حتى باب بيته. كان الوحيدَ الذي لم يؤيِّد الخطة المقترحة. بدت له هذه الخطة غير لائقة بقائد فرقةٍ يجِلُّه: «حين تذهب للقاء امرأة، تَسَلَّحْ بِسَوْط! كان يقول مستشهِداً بنيتشه الذي لم يكن يعرف من أعماله الكاملة سوى هذه الجملة الوحيدة.

- يا صغيري، قال كليما متألماً، هي من يمسك بالسوط».

اقترح عازف الغيتار على كليما أن يرافقه بالسيارة إلى مدينة المياه، ثم يستدرج المرأة الشابة إلى الطريق ويدهسها.

«لن يستطيع أحد أن يثبت بأنها لم تلقِ بنفسها تحت عجلاتي».

كان عازف الغيتار أكثر موسيقيي الفرقة شباباً، ويحب جداً كليما الذي تأثَّرَ بكلامه فقال له: «أنت في غاية اللطف».

عرض عازف الغيتار خطته بالتفصيل وخَدَّاه ملتهبان.

«أنت في غاية اللطف، لكن هذا غير ممكن، قال كليما.

ـ لماذا تتردد، هذه قحبة!

ـ أنت حقاً لطيف جداً، ولكن هذا غير ممكن»، قال كليما واستأذن من عازف الغيتار بالانصراف.

7

حين أصبح بمفرده فكر باقتراح الشاب وبالأسباب التي تدفعه لردِّه. ليس الأمر أنه أكثر تعففاً من عازف الغيتار، بل أقل شجاعة. فالخوف من اتهامه بالاشتراك في القتل يُعادل الخوفَ من إعلانه والداً. رأى السيارة تطيح بروزينا، رأى روزينا ممددة على الطريق في بركة من الدم ومنَحَهُ ذلك ارتياحاً عابراً ملأه بالحبور. لكنه كان يعلم أن الاستسلام لسراب الأوهام لايجدي نفعاً. وبدأ يؤرِّقه الآن همٌّ خطير. بدأ يفكر بزوجته. يا إلهي، عيد ميلادها غداً!

الساعة هي السادسة إلا بضع دقائق، والمحلات تغلق في السادسة تماماً. عاد على جناح السرعة إلى محل أزهار لشراء باقة ورد هائلة. أية أمسية عيد ميلادٍ شاقة تنتظره! عليه التظاهر بأنه معها بقلبه وفكره، عليه تكريس نفسه لها، إظهار الحنان لها، تسليتها، الضحك معها، وأثناء ذلك كله، لن يكفَّ لحظةً عن التفكير ببطنٍ بعيد. سيبذل جهداً لكي ينطق بكلماتٍ ودودة، لكن ذهنه سيكون بعيداً، حبيسَ سجنِ تلك الأحشاء الغريبة، المظلم.

فهِمَ أن قضاء هذا العيد في المنزل سيكون أمراً فوق طاقته، وقرر ألاّ يؤخِّر لحظةَ الذهاب لرؤية روزينا، أكثر من ذلك.

لكن ذلك الاحتمال أيضاً لم يكن سارّاً. فمدينة المياه الواقعة وسط الجبال، توحي له بأنها صحراء. فهو لا يعرف فيها أحداً، ربما باستثناء ذلك النزيل الأمريكي الذي يتصرف مثل أغنياءِ برجوازيي الزمن القديم، والذي دعا جميع أعضاء الفرقة الموسيقية، بعد

الحفلة، إلى الشقة التي يشغلها في الفندق. أغرقهم بالكحول الممتاز والنساء المختارات من طاقم المحطة، بحيث بات مسؤولاً، بشكل غير مباشر، عما حدث لاحقاً بين روزينا وكليما. آهٍ، ليت ذلك الرجل الذي أظهرَ له وداً بلا تحفُّظ، مايزال في مدينة المياه! تعلَّق كليما بصورته تَعلُّقَهُ بخشبة الخلاص، لأنه في ظروفٍ كتلك التي يعيشها لا يحتاج الإنسانُ إلى شيءٍ قدْرَ احتياجه لتفهُّمٍ ودِّي من قِبَل إنسانٍ آخر.

عاد إلى المسرح وتوقف في حجرة الحارس. طلب الهاتف الذي يربط بين المدن. بعد قليل رنَّ صوت روزينا في السماعة. قال لها بأنه سيأتي لرؤيتها في اليوم التالي. لم يُلمِّح بأية إشارة إلى الخبر الذي أنبأتْهُ به منذ بضع ساعات. كان يكلمها كما لو أنهما عاشقان لا هَمَّ لهما. سألها بين جملتين: «هل ما يزال الأمريكي هناك؟

ـ نعم!» قالت روزينا.

ولأنه شعر بالارتياح، كرر بنبرة أكثر طَلاقة بقليل بأنه سيُسرُّ لرؤيتها.

«ماذا تلبسين؟ قال بعد ذلك.

ـ لماذا؟»

إنها حيلة يستخدمها بنجاح منذ سنين أثناء مكالمات الدعابة الهاتفية: «أريد أن أعرف ما الذي تلبسينه في هذه اللحظة، لكي أستطيع تخيُّلَكِ.

ـ ألبس ثوباً أحمر.

ـ لا بد أن الأحمر يلائمك جداً.

ـ هذا ممكن، قالت.

ـ وتحت ثوبك؟»

ضحكتْ.

«ما لون سروالك؟

ـ أحمر أيضاً.

ـ يسعدني أن أراك فيه»، قال واستأذن بالانصراف. كان يفكر بأنه عثر على النبرة الصحيحة. للحظةٍ شعر أنه في حال أفضل. لكن شعوره لم يدم سوى لحظة. لقد فهم للتو بأنه عاجز عن التفكير في شيء آخر سوى روزينا وأنَّ عليه أن يقلِّص حديث الأمسية مع زوجته إلى الحد الأدنى حصراً. توقف عند شباك تذاكر صالة سينما يُعرض فيها فيلم أمريكي من نوع الويسترن، وأخذ بطاقتين.

8

رغم أن السيدة كليما جميلة أكثر بكثير مما هي مريضة، فقد كانت مع ذلك مريضة. اضطرت، بسبب صحتها العليلة إلى التخلّي، قبل بضع سنين، عن مهنة المغنية التي قادتها إلى أحضان زوجها الحالي.

تلك المرأة الجميلة الشابة التي اعتادت أن تكون مَحَطَّ إعجاب، فجأةً أصبح رأسها مليئاً برائحةِ فورمول المشفى. بات يبدو لها أنَّ سلسلةً من الجبال تمتد بين عالَمِ زوجها وعالَمِها.

لذا، عندما يرى كليما وجهها الحزين، يشعر بقلبه يتمزق ويمدُّ نحوها، (عبر تلك السلسلة المتخيَّلة من الجبال) يدين مُحِبَّتَين. أدركت كاميلا أنَّ في حزنها قوةً لم تشكّ بوجودها من قبل، تجذب كليما، تُلَيِّنُهُ، تجعل عينيه تترقرقان بالدمع. ليس مفاجِئاً أنها بدأت (ربما بشكل لاشعوري ولكن بشكل متزايد بالأحرى) تستخدم هذه الأداة التي اكتُشفت فجأة. لأنه بات باستطاعتها، فقط حين ينظر إلى وجهها المتألم، أن تتأكد إلى هذا الحد أو ذاك من عدم وجود أية امرأة أخرى تنافسها في رأس كليما.

كانت هذه المرأة الشديدة الحُسن، تخاف، في واقع الأمر، من النساء، وتَراهُنَّ في كل مكان. لم يُفلِتن منها أبداً، ولا في أي مكان. كان بوسعها كَشْفُهنَّ في نبرة صوت كليما عندما يقول لها مساء الخير لدى عودته إلى البيت. كان بوسعها تَقَصّي أثرهنّ في رائحة

ثيابه. عثرت مؤخراً على شريط ورق انتُزِع من طرف جريدة؛ سجِّل عليه تاريخُ بيد كليما. يمكن أن يتعلق الأمر طبعاً بأحداث شتى، تدريب على حفلة موسيقية، موعد مع مدير أعمال، إلا أنها لم تفعل، شهراً بكامله، سوى التساؤل عن المرأة التي سيلتقيها كليما ذلك اليوم، وشهراً بكامله لم تنم جيداً.

إذا كان عالَمُ النساء الغادِرُ بطبعه يخيفها إلى هذا الحد، ألم يكن بوسعها أن تجد العزاء في عالم الرجال؟

بصعوبة تمتلك الغيرةُ القدرةَ المدهشة على إضاءة الكائن الوحيد بإشعاعات قوية، وإبقاء الكَثْرة من الرجال الآخرين في عتمة تامة. لم يكن تفكير السيدة كليما يستطيع أخذ اتجاه آخر سوى اتجاه تلك الإشعاعات المؤلمة، وأصبح زوجُها الرجلَ الوحيد في الكون.

هاقد سمعت للتو صوت المفتاح في القفل وهي الآن ترى عازف الترومبيت يحمل باقة من الزهور.

في البداية منحها ذلك بهجةً، لكنَّ الشكوك دارت في الحال: لماذا يجلب لها زهوراً منذ هذا المساء بينما عيد ميلادها غداً؟ ما الذي يمكن أن يعنيه هذا أيضاً؟

واستقبلته قائلةً: «ألن تكون هنا في الغد؟»

9

كونه جلب لها أزهاراً هذا المساء لا يعني بالضرورة أنه سيتغيب في الغد. لكنَّ قرون الاستشعار الحذرة، اليقِظة أبداً والغيورة أبداً، تستطيع أن تستشف مسبقاً أقلَّ نيَّةٍ خبيئة لدى الزوج. كلما تأكَّد كليما من وجود قرون الاستشعار الرهيبة هذه، التي تُعَرِّيه، ترصده، تفضحه، يرزح تحت وطأة شعورٍ مُقنِطٍ بالتعب. إنه يكره تلك القرون، وهو مقتنع بأنه إذا كان زواجُهُ مهدداً فذلك بسببها. كان دوماً على قناعة (وضميره، في هذه النقطة، نقيٌّ على نحو عدوانيّ) بأنه إذا

حدثَ له أن كَذَبَ على زوجته فذلك لأنه أرادَ مراعاتها، تجنيبها كل خيبة أمل، وأنها هي التي تجلب لنفسها الألم بسبب شكِّها.

انحنى فوق وجهها وقرأ فيه الشك والحزن والمزاج السيء. رغب بإلقاء باقة الزهور أرضاً، لكنه سيطر على نفسه. كان يعلم أنه سيحتاج في الأيام القادمة للسيطرة على نفسه في مواقف أصعب بكثير.

«هل يزعجكِ أني أحضرت لك زهوراً هذا المساء؟» قال. لمستْ زوجتُهُ السخطَ في صوته فشكرته وذهبت لتضع ماءً في إناء للزهور.

«تلك الاشتراكية المفلِسة! قال كليما لاحقاً.

ـ لماذا؟

ـ اسمعي! إنهم يجبروننا أن نعزف طوال الوقت بلا مقابل. مرةً باسم النضال ضد الامبريالية، وأخرى احتفالاً بذكرى الثورة، ومرةً أخرى أيضاً بمناسبة عيد ميلاد أحد الموظفين الكبار، وإذا أردتُهم ألاّ يُلْغوا الفرقة فأنا مضطرٌ إلى قبول كل شيء. لا يمكنك أن تتخيلي كم ثارت أعصابي اليوم أيضاً.

ـ حول أي موضوع؟ قالت دون اهتمام.

ـ أثناء التمرين زارتنا رئيسةُ لجنةٍ بالمجلس البلدي، وراحت تشرح لنا ما يجب أن نعزفه وما لا يجب أن نعزفه، وختمت ذلك بإجبارِنا على إقامة حفلة موسيقية مجاناً لأجل اتحاد الشبيبة. لكن الأسوأ هو أنه عليَّ أن أمضي نهار الغد كله في محاضرة عجيبة سوف يحدِّثوننا فيها عن دور الموسيقا في بناء الاشتراكية. نهار ضائع آخر، ضائع تماماً! ويصادف يوم عيد ميلادكِ بالضبط!

ـ لكنهم لن يحتجزوك حتى حلول الليل، أليس ذلك!

ـ لا، بدون شك. لكنك ترين منذ الآن بأية حالة سأعود إلى البيت! لذا فكرتُ أنَّ بوسعنا أن نمضي معاً قليلاً من الوقت الهادئ منذ هذا المساء، قال ممسكاً بيدي زوجته الاثنتين.

ـ أنت لطيف»، قالت كاميلا، وفهمَ كليما من نبرة صوتها أنها لم تصدق كلمة واحدة مما قاله للتو بشأن محاضرة اليوم التالي. لم تكن كاميلا تجرؤ بالطبع أن تُظهِر عدمَ تصديقها له. فهي تعرف أن شكَّها يُغضِبه. لكن كليما كفَّ منذ زمنٍ طويل عن الإيمان بقابلية زوجته لتصديقِهِ. أصبح يشكُّ بأنها تشك به سواءٌ قال الحقيقة أم كذَبَ. مع ذلك فقد قُضي الأمر، وعليه المضي فيه متظاهِراً بأنه يصدق أنها تصدِّقه وهي تطرح عليه (بوجه حزين وغريب) أسئلةً بشأن محاضرة اليوم التالي لكي تبرهن له بأنها لا تشكُّ بحقيقتها.

ثم ذهبت إلى المطبخ لتحضير العشاء. وضعت كثيراً من الملح. كانت دوماً تطهو باستمتاع، وعلى نحو جيد جداً (لم تفسدها الحياة ولم تفقد عادةَ الاهتمام ببيتها) وكان كليما يعرف أنه إذا لم يكن الطعام ناجحاً هذا المساء فالسبب الوحيد هو أنها تتعذب. يراها في ذهنه، وهي تضع، بحركة متألمة وعنيفة، قدراً زائداً من الملح في الطعام فينقبض قلبه. كان يبدو له أنه يتعرف على طعم دموع كاميلا في اللقمات المالحة جداً، والشيء الذي يبتلعه هو شعوره بالإثم. بات يعرف أن الغيرة تعذِّب كاميلا، ويعرف أنها ستمضي ليلةً أخرى دون نوم، ورغِبَ أن يداعبها، يعانقها، يواسيها، إلا أنه أدركَ حالاً بأن ذلك سيكون فائضاً عن الحاجة، لأن قرون استشعار زوجته لن تجد في هذا الحنان سوى الدليل على إحساسه بالخطأ.

أخيراً ذهبا إلى السينما. استمَدَّ كليما نوعاً من العزاء في مشهد البطل الذي يُرى على الشاشة، وهو ينجو من أخطار خدَّاعة. راح يتخيل نفسه في مكانه ويقول لنفسه أحياناً بأن مسألة إقناع روزينا بالتخلص من الطفل ستكون أمراً تافهاً سينجزه في لحظة بفضل جاذبيته وحسن طالعه.

ثم تمددا جنباً إلى جنب في السرير الكبير. أخذ ينظر إليها وهي مستلقية على ظهرها، رأسها غارق في المخدة، ذقنها مرفوعة قليلاً وعيناها محدقتان في السقف، وفي هذا التوتر الأقصى لجسدها (كانت دوماً تذكِّرُهُ بِوَتَر الآلة الموسيقية، ويقول لها بأنها تملك روحَ وتر)، رأى فجأةً، وفي لحظة واحدة، جوهرَها كله. نعم، كان يحدث

له أحياناً (وهي لحظات إعجاز) أن يلتقط فجأةً، في واحدةٍ من حركاتها، كلَ تاريخ جسدها وروحها. إنها لحظات بصيرةٍ مطلقة، لكنها أيضاً لحظات عاطفة مطلقة؛ لأن هذه المرأة أحبَّتْه عندما لم يكن شيئاً بعد، كانت مستعدة للتضحية بكل شيء من أجله، كانت تفهم كل أفكاره دون تفكير، بحيث بات بوسعه أن يكلمها عن آرمسترونغ أو سترافنسكي، عن أمور تافهة أو خطيرة، كانت بالنسبة له أقرب إنسان بين الكائنات الإنسانية... ثم تخيَّلَ أنَّ هذا الجسد المعبود، هذا الوجه المعبود، ماتا، وقال لنفسه بأنه لن يستطيع العيش بعدها يوماً واحداً. كان يعرف بأنه مستعد لحمايتها حتى آخر نفس، مستعد لتقديم حياته لأجلها.

لكن هذا الشعور الخانق بالحب لم يكن سوى ضوء خافت ضعيف وعابر، لأن ذهنه بكامله شغَلَهُ القلقُ والذعر. كان ممدداً إلى جانبِ كاميلا، يعرف أنه يحبها إلى ما لانهاية، لكنه كان غائباً عقلياً. راح يداعب وجهها، كما لو أنه يداعبها من مسافة لا تُقاس، من عدة مئات من الكيلومترات.



اليوم الثاني

1

كانت الساعة تقارب التاسعة صباحاً عندما توقفتْ سيارةٌ أنيقة بيضاء في المرآب في محيط مدينة المياه (لم يكن يحق للسيارات التقدم أكثر من ذلك)، ونزل منها كليما.

في مركز المحطة تمتد حديقة عامة طولاً، بمجموعات أشجارها المبعثرة، بمروجها، بممراتها الرملية ومقاعدها الملونة. من كل صوب تنتصب أبنية مركز حمامات المياه المعدنية الحارة، وبينها مُجَمَّع كارل ماركس حيث أمضى عازف الترومبيت تلك الليلة ساعتين قاضِيَتَيْنْ في غرفة الممرضة روزينا. مقابل مجمَّع كارل ماركس، إلى الجانب الآخر من الحديقة العامة، يرتفع أجمل بناء في المحطة، بناء من نمط الفن الحديث الذي ساد في بداية القرن، مغطى بتزيينات من معجون المرمر، بِدَرَجِ مدخلِهِ المَهيب تعلوه الفسيفساء. هو وحده الذي حظي بامتياز الحِفاظ على اسمه الأصلي دون تغيير: فندق ريشموند.

«هل مايزال السيد برتليف في الفندق؟» سأل كليما البوابَ، ولأنه أُجيبَ بالإيجاب صعد ركضاً فوق السجادة الحمراء حتى الطابق الأخير وطرق أحد الأبواب.

عند دخوله رأى برتليف قادماً للقائه بالبيجاما. اعتذر بحَرَجٍ عن زيارته الطارئة، لكن برتليف قاطعه:

«لا تعتذر ياصديقي! لقد قدَّمتَ لي أكبر سعادةٍ تُمنَح لي هنا في هذه الساعات الصباحية.»

شد على يد كليما وتابع: «في هذا البلد، لا يَحترم الناسُ الصباحَ. إنهم يوقظون أنفسهم بفظاظة بوساطة منبه يقطع نومهم

بضربة فأس ويستسلمون في الحال لِسُرعةٍ مشؤومة. هل باستطاعتك أن تقول لي مايمكن أن يكون عليه نهارٌ يبدأ بهذا الفعل العنيف؟ ما الذي يمكن أن ينتج عن أناسٍ تُنزِل بهم منبِّهاتُهُم صدمةً كهربائيةً صغيرة يومياً؟ إنهم يعتادون كل يوم على العنف وينسون كل يوم ما حفظوه عن السعادة. صدِّقني صباحات الإنسان هي التي تُقرِّر طِباعه.»

قاد برتليف كليما بلطفٍ من كتفه، أجلسَهُ في أريكة وتابع: «أحب كثيراً هذه الساعات الصباحية من العطالة التي أجتازها على مهل مثل جسر تحفُّ به التماثيل للانتقال من الليل إلى النهار، من النوم إلى الحياة المستيقظة. إنها الفترة من النهار، التي أكون فيها شديد الامتنان إذا حدثت معجزةٌ صغيرة، لقاءٌ فجائي يقنعني بأنَّ أحلام ليلي مستمرة وأنَّ مغامرة النوم ومغامرة النهار لا تفصل بينهما هاوية.»

راح عازف الترومبيت يراقب برتليف الذي يذرع الغرفة ببيجامته ويمسِّدُ شعرهُ الأشيَب بإحدى يديه، ووجدَ في الصوت الرنان لكنةً أمريكية لا تُمحى، وفي المفردات شيئاً بالياً على نحو لذيذ، وسهل التفسير كَوْنَ برتليف لم يعش قط في وطنه الأصلي وأن التقاليد العائلية وحدها هي التي علَّمته لغته الأم.

«ولا أحد يا صديقي، أخذ الآن يشرح مائلاً نحو كليما بابتسامة واثقة، لا أحد في مدينة المياه هذه، يستطيع فهمي. حتى الممرضات، اللواتي هن فيما عدا ذلك، لطيفات بالأحرى، يبدو عليهن الاستنكار حين أدعوهن لمشاركتي لحظاتٍ ممتعة أثناء فطوري، بحيث يتوجب علي إرجاء كل مواعيدي حتى المساء، أي حتى الساعة الواحدة، حين أكون قد تعبت قليلاً.»

ثم اقترب من طاولة الهاتف الصغيرة وسأل: «متى وصلت؟

ـ هذا الصباح، قال كليما، بالسيارة.

ـ أنت جائع بالتأكيد»، قال برتليف، ورفع السماعة. طلب وجبتَي فطور:

«أربع بيضات مسلوقة، جبن، زبدة، كرواسان، حليب، جامبون وشاي».

في تلك الأثناء، كان كليما يتفحص الغرفة. طاولة مستديرة كبيرة، كراسي، كنبة، مرآة، ديوانان، الباب المؤدي إلى الحمام وإلى غرفة ملاصقة يذكر أنها غرفة نوم برتليف . هنا، في هذه الشقة المترَفة، بدأ كل شيء. هنا جلس موسيقيُّو فرقته الثملون الذين دعا الأمريكيُّ الثريُّ بعض الممرضات لإسعادهم.

«نعم، قال برتليف، اللوحة التي تنظر إليها لم تكن موجودة هنا المرة الماضية».

في تلك اللحظة فقط لمح عازفُ الترومبيت لوحةً رُسم فيها رجل ملتحٍ رأسه محاط بحلقة زرقاء شاحبة غريبة، ويمسك بيده ريشةً وحاملة ألوان. كانت اللوحة خرقاء، لكن عازف الترومبيت يعرف أن كثيراً من اللوحات التي تبدو خرقاء هي أعمال شهيرة.

«من رسمَ هذه اللوحة؟

ـ أنا، أجابَ برتليف.

ـ لم أكن أعلم أنك ترسم.

ـ أحب الرسم كثيراً.

ـ ومن هذا؟ تجاسَرَ عازفُ الترومبيت.

ـ القديس أليعازر.

ـ كيف؟ القديس أليعازر كان رساماً؟

ـ ليس أليعازرَ الكتاب المقدس، لكنه أليعازر الراهب الذي عاش في القرن التاسع من تاريخنا، في القسطنطينية. إنه معلِّمي.

ـ هكذا إذن! قال عازف الترومبيت.

ـ كان قديساً غريباً جداً. لم يُقتَل بِيَدِ الوثنيين لإيمانه بالمسيح، بل قُتل بيَدِ مسيحيين سيئين لأنه أحبَّ الرسمَ كثيراً. كما تعرف ربما، في القرنين الثامن والتاسع كان الفرعُ اليوناني من الكنيسة فريسةً لتَقَشُّفٍ صارم، لا يتساهل إزاء كل الملذات الدنيوية. حتى لوحات

الرسم والتماثيل اعتبرت مادةُ مُتَعٍ زنديقة. أمرَ الامبراطور تيوفيل بإتلاف آلاف اللوحات الجميلة ومَنعَ صديقي العزيز أليعازر من الرسم. لكنَّ أليعازر كان يعلم أن لوحاته تمجِّد الله فرفضَ الاستسلام. ألقاه تيوفيل في السجن، عذَّبه، وطالب أليعازر بالتخلّي عن ريشة الرسم، لكن الله كان رحيماً ومنحه القوة على تحمُّل عقوبات غاشمة.

- إنها قصة جميلة، قال عازف الترومبيت بتهذيب.

- رائع. لكنك لم تأت بالتأكيد إليَّ لكي تتفرج على لوحاتي».

في تلك اللحظة، قُرع الباب ودخل نادل يحمل صينية كبيرة وضعها على الطاولة، ووضع للرجلين أدوات المائدة اللازمة للفطور.

رجا برتليف عازفَ الترومبيت بالجلوس وقال: «ليس في هذا الفطور ماهو مميز بحيث لا نستطيع متابعة حديثنا. قل لي ما الذي يؤرقك؟»

هكذا روى عازف الترومبيت، وهو يمضغ، مغامرته المزعجة التي جعلت برتليف يطرح عليه، في أوقات مختلفة من روايته، أسئلةً ثاقبة.

2

أراد خصوصاً أن يعرف لماذا لم يُجِبْ كليما على بطاقتيْ البريد اللتين أرسلَتْهُما الممرضة، لماذا هرب من الرد على الهاتف ولماذا لم يقم بنفسه قط بأية مبادرة ودية تُطيل ليلةَ حُبِّهِما بصدىً هادئ ومهدِّئ.

اعترف كليما بأن سلوكه لم يكن عقلانياً ولا لبِقاً. لكن الأمر، على حد زعمه، كان أقوى منه. كل اتصال جديد مع المرأة الشابة بات يُفزعه.

«إغواء امرأةٍ، أمرٌ يقدر عليه أول أبلهٍ، قال برتليف مستاءً. لكنَّ على المرء أيضاً أن يعرف كيف يقطع العلاقة؛ فهذا ما يُميِّز الرجلَ الناضج.

- أعرف، أقرَّ عازف الترومبيت بحزن، لكنَّ هذا الاشمئزاز الموجود لديَّ، هذا القرَف الذي لا يُقهَر أقوى من كل النوايا الحسنة.

- قل لي، قال برتليف مندهشاً، ألستَ مبغِضاً للنساء؟

- هذا ما يُقال عني.

- ولكن كيف يمكن أن يكون هذا ممكناً؟ إنك لا تبدو عاجزاً ولا مِثْليّاً.

- صحيح أنني لستُ هذا ولا ذاك. الأمر أسوأ بكثير، اعترفَ عازفُ الترومبيت بكآبة. أنا أحب زوجتي. إنه سرِّي الأيروتيكي الذي يجده غالبيةُ الناس غيرَ مفهوم».

كان اعترافاً بليغ الأثر إلى درجة أن الرجلين بقيا لحظة صامتين. ثم تابع عازف الترومبيت: «لا أحد يفهم ذلك، وزوجتي أقلُّ فهماً له من الجميع. إنها تتخيل أنَّ الحب الكبير يجعلنا نعزف عن المغامرات. لكن هذا خطأ. ثمة شيء ما يدفعني كلَّ لحظة نحو امرأة أخرى، مع ذلك، فحالما أمتلكها، يقتلعني منها نابضٌ قوي يقذفني إلى جوار كاميلا. لدي أحياناً انطباع بأنني إذا كنت أبحث عن نساء أخريات فذلك بسبب هذا النابض، تلك الحماسة وذاك التحليق المشرق (المليء بالحنان والرغبة والتواضع) الذي يعيدني إلى زوجتي التي تجعلني كلُّ خيانةٍ جديدةٍ لها أحبها أكثر.

- بحيث لم تكن الممرضة بالنسبة لك سوى تأكيد لحبك لزوجتك؟

- نعم، قال عازف الترومبيت. وتأكيد لطيف للغاية. لأن الممرضة روزينا تتمتع بجاذبية كبيرة حين نراها للمرة الأولى، ومن المفيد جداً أيضاً أن تنفد هذه الجاذبية كلياً بعد ساعتين، هذا يؤدي إلى أنَّ لا شيء يدعوك للاستمرار وأن النابض يقذفك نحو مسارِ عودةٍ بهي.

ـ يا صديقي العزيز، الحب المفرِط حبٌّ مذنب، وأنت بلا شك البرهان الأفضل على ذلك.

ـ كنت أظن أن حبي لزوجتي هو الشيء الوحيد الجيد فيَّ.

ـ أنت مخطئ. الحب الزائد الذي تحمله لزوجتك ليس القطبَ المقابل والمعوِّض لبرودك العاطفي، بل مَصدَره. فلأنَّ زوجتَكَ هي كل شيء بالنسبة لك، جميع النساء الأخريات لسن شيئاً لكَ، إنهن، بعبارة أخرى، غانيات بالنسبة لك. لكن هذا تجديف كبير واحتقار كبير لكائناتٍ خلقها الله. هذا النوع من الحب هرطقةٌ ياصديقي العزيز».

3

أبعدَ برتليف فنجانه الفارغ، نهض عن المائدة وانسحب إلى الحمام الذي سمع كليما منه صوت الماء الجاري أولاً ثم صوت برتليف: «هل يحق لنا باعتقادك قتلَ طفلٍ لم ير النور بعد؟»

منذ لحظةٍ تملَّكته حيرةٌ عندما رأى صورة الرجل الملتحي ذي الهالة. كان قد احتفظ لِ برتليف بذكرى رجلٍ مرحٍ محب للحياة ولم يخطر له قط احتمالُ أن يكون هذا الرجل مؤمناً. شُعر بانقباض قلبه من فكرة أنه سيسمع درساً في الأخلاق وأنَّ واحته الوحيدة في صحراء مدينة المياه هذه ستغطيها الرمال. أجاب بصوت مخنوق: «هل أنت ممن يسمُّون هذا جريمة قتل؟»

تأخر برتليف في الرد. وأخيراً خرج من الحمام ببزّة الخروج وقد رتَّب شعره بعناية.

«جريمة قتل، كلمة تفوح منها أكثر قليلاً مما يجب رائحةُ الكرسي الكهربائي، قال. ليس هذا ما أريد قوله. أنا مقتنع بأنَّ علينا قبول الحياة مثلما وُهِبت لنا. هذه هي الوصية الأولى قبل الوصايا

العشر. جميع الأحداث بيد الله ولا نعرف شيئاً عما ستؤول إليه. أعني بهذا أنَّ قبول الحياة كما وُهبت لنا هو قبول اللا مُتَوَقَّع. والطفل هو جوهر اللا متوقع. الطفل هو اللا متوقع ذاته. إنك لا تعرف ماذا سيصبح، ما الذي سيحمله لك، ولهذا بالضبط عليك أن تقبل به، وإلاَّ فإنك لا تعيش سوى نصف عَيْش، تعيش مثل شخص لا يعرف السباحة ويتخبَّط قرب الشاطئ، مع أن المحيط لا يكون محيطاً حقاً إلا حيث تزلُّ القدم».

نوَّهَ عازفُ الترومبيت بأن الطفل ليس منه.

«فلنفرض ذلك، قال برتليف. ولكن، فلتعترف بدورك بصراحة أنه إذا كان الطفل منك، فسوف تلحُّ بالقدر نفسه لإقناع روزينا بالإجهاض. ستفعل ذلك بسبب زوجتك وبسبب الحب المذنب الذي تكنُّهُ لها.

ـ نعم، أعترف بذلك، قال عازف الترومبيت. سأجبرها على الإجهاض مهما كانت الظروف».

استند برتليف إلى باب الحمام وراح يبتسم: «أفهمك ولن أحاول أن أغيِّر لك رأيك. أنا أكثر هَرَماً من أن أرغب بإصلاح العالم. قلتُ لك ما أفكر فيه وهذا كل شيء. سأبقى صديقك حتى لو تصرفتَ عكسَ قناعتي، وسأكون عوناً لك حتى لو كنتُ أستهجن تصرفك».

راح عازف الترومبيت يتفحص برتليف وقد لفظ للتو جملته الأخيرة هذه بصوت مخمليّ لحكيمٍ مبشِّر. إنه يجده باهراً. وانتابه شعور بأن كل ما يقوله برتليف يمكن أن يكون أسطورة، حكمةً، مَثَلاً، فصلاً مأخوذاً من إنجيل حديث. كان يرغب (فلنَفهَمه، إنه متأثر وبه رغبةٌ للقيام بحركات مُسرِفة) بالانحناء أمامه بشدة.

«سأساعدك بأفضل ما أستطيع، استأنف برتليف. خلال لحظة سنذهب لرؤية صديقي الدكتور سكريتا الذي سيسوي لك الجانب

الطبي للقضية. ولكن اشرح لي كيف ستحمل روزينا على اتخاذ قرارٍ تعافُهُ نفسُها؟»

4

حين عرض عازف الترومبيت خطته، قال برتليف:

«يذكِّرني هذا بقصة حصلت لي شخصياً في فترة شبابي المليئة بالمغامرات حين كنت أعمل حمالاً على رصيف تفريغ السفن، حيث كانت تحمل لنا فتاةٌ فطورَنا إليه. تميزتْ بقلب طيب على نحو استثنائي ولم تكن ترفض شيئاً لأحد. للأسف أنَّ طيبة القلب (وطيبة الجسد) هذه تثير فظاظة الرجال أكثر مما تثير امتنانهم، بحيث كنتُ الوحيد الذي أظهر لها اهتماماً فيه احترام، والوحيد أيضاً الذي لم ينم معها. وبسبب لطفي أحبتني. ولو لم أمارس الحب معها لآلمتُها وأهنتُها. لكن ذلك لم يحدث سوى مرة وشرحتُ لها بأني سأظل أحبها حباً روحياً كبيراً لكن لن يعود بوسعنا أن نبقى عشيقين. انفجرت منتحبة، ومضت راكضة، لم تعد تلقي عليَّ التحية وأعطت نفسَها بشكل أكثر علانية للآخرين جميعاً. ثم انقضى شهران وأعلنت لي أنها حامل مني.

ـ مررتَ إذن بالموقف الذي أمرُّ فيه نفسه! صاح عازف الترومبيت.

ـ آه ياصديقي، قال برتليف، ألا تعرف أنَّ ما يحدث لك هو النصيب المشترك لكل الرجال في العالم؟

ـ وماذا فعلت؟

ـ تصرفتُ مثلما تزمِع أنت أن تتصرف، ولكن مع فارق واحد. أنت تريد التظاهر بأنك تحب روزينا، أما أنا فكنت أحب تلك الفتاة فعلاً. كنت أرى أمامي مخلوقةً مسكينةً، مذلولة ومهانة من قبل الجميع، مخلوقة مسكينة أظهرَ لها كائنٌ واحد في العالم لطفاً، ولم

تشأ أن تفقد ذلك اللطف. كنت أفهم أنها تحبني ولم أستطع أن أحقد عليها لِكونها تُظهِر ذلك قدرَ استطاعتها بالوسائلِ التي تمنحها إياها سَفالتُها البريئة. اسمع ما قلته لها: «أعرف جيداً أنكِ حامل من رجلٍ غيري. لكني أعرف أيضاً أنك لجأت إلى هذه الحيلة بدافع الحب وأريد أن أقابل حبك بالحب. لا يهم من يكون والد الطفل، سأتزوجك إذا أردت».

- هذا جنون!

- لكنه دون شك أكثر فعالية من مناورتك المدبَّرة بعناية. عندما كررتُ للغانية الصغيرة عدة مرات بأني أحبها وأني أريد الزواج منها مع طفلها، راحت تبكي بغزارة واعترفت لي بأنها خانتني. قالت بأنها فهمت، أمام طيبتي، أنها غير جديرة بي وأنها لن تستطيع الارتباط بي برباط الزواج، أبداً».

صمتَ عازف الترومبيت، متفكِّراً، وأضاف برتليف:

«أكون سعيداً إذا أمكنَ لهذه القصة أن تفيدك كمَثَل. لا تحاول أن تقنع روزينا بأنك تحبها، بل حاول أن تحبها حقاً. حاول أن تشفق عليها. حتى لو كانت تخدعكَ، حاولْ أنِ ترى في هذه الكذبة شكلاً من أشكال حبها. أنا واثق بأنها، لاحقاً، لن تصمد أمام قوة طيبتك وأنها ستتخذ، من تلقاء نفسها، كل ترتيباتها كيلا تضرَّك».

تركت كلمات برتليف أثراً كبيراً في نفس عازف الترومبيت. لكنه حالما تَصوَّرَ روزينا في ضوءٍ أقوى، أدركَ أنَّ طريق الحب الذي يقترحه برتليف غير سالك بالنسبة له، وبأنه طريقُ القديسين وليس طريقَ الناس العاديين.

5

كانت روزينا تجلس إلى طاولة صغيرة، في القاعة الكبيرة لمؤسسة الحمامات، حيث ترتاح بعد العلاج نسوةٌ فوق أسرَّةٍ

مصفوفة على طول الجدران. استلمتْ للتو بطاقتَيْ مريضتين، سَجلتْ عليهما التاريخ وسَلَّمت المرأتين مفتاح حجرة ملابسهن ومنشفةً وملاءةً بيضاء كبيرة. ثم نظرت إلى ساعتها واتجهت إلى القاعة الواقعة في صدر المكان (لم تكن ترتدي سوى بلوزة بيضاء فوق لحمها مباشرةً لأن القاعات المبلَّطة مليئة بالبخار الحار) نحو المسبح حيث تتخبَّط حوالى عشرين امرأة، عارياتٍ، في ماء النبع المعجزة. نادت ثلاثاً منهن بالإسم لتعلن لهن انقضاء الوقت المخصص للحمام. خرجت النسوة بليونةٍ من المسبح، هززن أثداءهن الضخمة التي راح الماء يقطر منها وتبعن روزينا التي قادتهن نحو الأسِرَّة التي تمددت فوقها السيدات. غطَّتهن الواحدةَ تلو الأخرى بملاءة، جففت لهن عيونهن بقطعة قماش وأحاطتهن أيضاً بغطاء دافئ. راحت النسوة يبتسمن لها، لكنَّ روزينا لم تكن ترد لهن ابتسامتهن.

ليس من المستحب دون شك أن يولد الإنسان في مدينة صغيرة تَمرُّ بها كل عام عشرةُ آلاف امرأة ولا يأتي إليها عملياً رجل واحد شاب. تستطيع امرأةٌ، إذا لم تُغيِّر مكان إقامتها، أن تكوِّن فيها منذ سن الخامسة عشرة، فكرةً دقيقة عن جميع الاحتمالات الأيروتيكية المتاحة لها طيلة حياتها كاملةً. وكيف السبيل لتغيير مكان الإقامة؟ المؤسسة التي تعمل بها لا تستغني طوعاً عن خدمات طاقمها، وكان والدا روزينا يحتجَّان بقوة حالما تلمِّح إلى موضوع الانتقال.

لا، إجمالاً، لم تكن هذه المرأة الشابة، التي تبذل جهدها لكي تنجز التزاماتها المهنية بعناية، تشعر بالحب الشديد لطالبات الاستشفاء. يمكن أن نجد ثلاثة أسباب لذلك:

الرغبة: كانت تلك النسوة يأتين إلى هناك بعد تَركِ أزواج أو عشاق أو عالَم تتخيله يعجُّ بآلاف الإمكانات التي لا تستطيع الحصول عليها رغم أنَّ نهديها أجمل وساقيها أطول وتقاطيعها أكثر انتظاماً.

فضلاً عن الرغبة هناك نفاد الصبر: كانت تلك النساء يصلن إلى هنا مع مصائرهنَّ البعيدة، وهي هنا بلا مصير، إنها هي نفسُها،

سواء في العام الماضي أو هذا العام. كانت ترتاع من فكرة أنها تعيش في هذا المكان الصغير مدةً طويلة دون أن يحدث شيء، ورغم صِباها كانت تفكر بلا انقطاع بأنَّ الحياة ستفلت منها قبل أن تبدأ بالحياة.

ثالثاً، هناك الاشمئزاز الغريزي الذي توحي لها به كثرتُهُن التي تقلِّل من قيمة كل امرأة كفرد. إنها محاطة بفيضٍ حزينٍ من نهود أنثوية يفقد معه حتى نهداها الجميلان إلى هذا الحد، قيمتَهما بينها.

كانت قد انتهت للتو، دون ابتسام، من لَفِّ الغطاء حول المرأة الأخيرة من السيدات الثلاث حين أطلت زميلتها النحيلة برأسها إلى القاعة ونادتها صارخة: «روزينا! مطلوبة على الهاتف!»

كان تعبيرها احتفالياً إلى درجة أن روزينا عرفت على الفور من الذي يطلبها في الهاتف. تلوَّن وجهها بحمرة قرمزية، مرت من خلف حجرات الملابس، رفعت السماعة وقالت اسمها.

أعلن كليما عن نفسه وسألها عن الوقت الذي يمكنها أن تراه فيه.

«أنهي عملي الساعة الثالثة. يمكن أن نلتقي في الرابعة».

تَوَجَّبَ بعد ذلك الاتفاقُ على مكان الموعد. اقترحت روزينا مطعم ومشرب المحطة الكبير المفتوح طوال النهار. أبْدَتْ زميلتُها النحيلة التي بقيت بقربها، ولم تفارق عيناها شفتيها، تأييدها بحركة من رأسها. أجاب عازف الترومبيت بأنه يفضل رؤية روزينا في مكان يمكنهما الانفراد فيه واقترح أن يصحبها بالسيارة إلى مكان ما خارج المحطة.

«لا حاجة لذلك. أين تريدنا أن نذهب! قالت روزينا.

ـ سنكون وحدنا.

ـ إذا كنت تخجل بي، لا حاجة أن تأتي، قالت روزينا، وأيدت زميلتها كلامها.

ـ ليس هذا ما قصدته، قال كليما. سأنتظرك الساعة الرابعة أمام المطعم ـ المشرب.

ـ ممتاز، قالت النحيلة حين أغلقت روزينا السماعة. يريد أن يراك خفيةً في مكان ما، ولكنَّ عليك أن تعملي على أن يراك أكبرُ عدد ممكن من الناس».

كانت روزينا ماتزال ثائرة الأعصاب جداً وهذا الموعد سبّب لها الخوف. لم تعد قادرة على تصوُّر كليما. شكله، ابتسامته، وقاره؟ لم يبق لها من لقائهما الوحيد سوى ذكرى غائمة جداً. وقد اعتصرتها زميلاتها آنذاك بالأسئلة حول عازف الترومبيت. أردن أن يعرفن كيف كان، ماذا قال، كيف بدا دون ملابس وكيف مارس الحب. لكنها كانت عاجزة عن قول شيء واكتفت بتكرار أن ذلك كان «مثل الحلم».

لم يكن ذلك مجرد كلام مكرور: الرجل الذي أمضت معه ساعتين في سرير، نزَلَ من الملصقات لكي يوافيها. وللحظةٍ اكتسبتْ صورتُهُ الفوتوغرافية حقيقةً ثلاثيةَ الأبعاد، اكتسبت حرارةً ووزناً، لكي تعود لاحقاً وتصبح صورةً مجرَّدة وبلا ألوان، مطبوعة على آلاف النُسَخ لِتزداد تجريداً وبُعداً عن الحقيقيّ.

وبما أنه أفلتَ منها آنذاك بتلك السرعة، ليعود إلى صورته الغرافيكية، فقد احتفظت له بإحساس مزعجٍ بكَماله. لم تستطع أن تتعلق بتفصيل واحدٍ يُنزِلُهُ ويقرِّبُه. حين كان بعيداً، كانت ممتلئة بروح قتالية قوية، أما الآن، وقد شعرت بحضوره، فإن الشجاعة تخونها.

«اثْبَتي، قالت لها النحيلة. سأستمر في الدعاء لك».

6

عندما أنهى كليما محادثته مع روزينا، أخذه برتليف من ذراعه وقاده إلى قاعة كارل ماركس حيث توجد عيادة الدكتور سكريتا وحيث يسكن. عديد من النساء كنّ جالسات في غرفة الانتظار، لكن

برتليف طرق دون تردد أربع طرقات على باب العيادة. بعد لحظة ظهر شخص طويل يرتدي قميصاً أبيض، بنظارات وأنف كبير. «لحظة من فضلكن»، قال للنساء الجالسات في غرفة الانتظار، وقاد الرجلين إلى الممشى ومنه إلى شقته الواقعة في الطابق التالي إلى الأعلى.

«كيف حالك يا معلم؟ قال مخاطباً عازفَ الترومبيت حين جلس الثلاثة. متى ستقدم حفلة موسيقية جديدة هنا؟

ـ لن أفعلها مرة أخرى أبداً في حياتي، أجاب كليما، لأن مدينة المياه هذه تجلب لي النحس».

شرح برتليف للدكتور سكريتا ماحدث لعازف الترومبيت ثم أضاف كليما:

«أردتُ أن أطلب منك أن تساعدني. أريد أن أعرف أولاً إذا كانت حامل فعلاً. ربما كان الأمر مجرد تأخير. أو أنها تؤلف لي قصة خيالية. حدث لي ذلك مرةً. كانت شقراء أيضاً.

ـ يجب ألا يبادِر المرء بأي شيء قط مع الشقراوات، قال الدكتور سكريتا.

ـ نعم، قال كليما مؤيداً، الشقراواتُ هَلاكي. دكتور، كان الأمر فظيعاً تلك المرة. أجبرتها أن تفحص نفسها عند طبيب. لكن المسألة أنه في بداية الحمل لا يمكن معرفة شيء بشكل مؤكد. لذا طالبتُ بأن تخضع لاختبار الفأرة. يُحقَن البول في جسم فأرة وإذا انتفخ مبيضُ الفأرة...

ـ تكون السيدة حامل... أكملَ الدكتور سكريتا.

ـ أحضرتْ بولها الصباحي في زجاجة وكنتُ أرافقها. أوقعتْ الزجاجة فوق الرصيف أمام العيادة متعددة الاختصاصات. هرعتُ إلى الشظايا لكي أنقِذ على الأقل بضع نقاط! من يراني على تلك الحال كان سيُقسم بأنها أوقعتِ الكأسَ المقدسة[1]. لقد تعمَّدَتْ أن توقع

(1) الكأس المقدسة: كأس من الزمرد استعملها المسيح في العشاء السري.

الزجاجة لأنها تعرف أنها ليست حبلى وأرادت أن تُطيل عذابي أطول وقت ممكن.

ـ سلوك شقراواتٍ نموذجي، قال الدكتور سكريتا بشكل عادي.

ـ هل تعتقد أن ثمة فرقاً بين الشقراوات والسمراوات؟ قال برتليف مشكّكاً بخبرة الدكتور سكريتا النسائية.

ـ أصدِّقك! قال الدكتور سكريتا. الشعر الأشقر والشعر الأسود هما قطبا الطبيعة الإنسانية. الشعر الأسود يعني الرجولة، الشجاعة، الصراحة، الفعل، بينما يرمز الشعر الأشقر إلى الأنوثة، الرقة، الضعف والسلبية. الشقراء إذن امرأةٌ بشكل مزدوج. الأميرة لا يمكن أن تكون سوى شقراء. أيضاً لهذا السبب تصبغ النساءُ شعورهن باللون الأشقر وليس بالأسود أبداً، لكي يكنَّ إناثاً قدر الإمكان.

ـ لدي فضول شديد لأعرف كيف يفعل الصباغُ فعله على الروح الإنسانية، قال برتليف بنبرة ارتيابية.

ـ ليس الموضوع موضوع صباغ. الشقراء تَتوافَق لاشعورياً مع شَعرها. خاصةً إذا كانت هذه الشقراء سمراء صبغت شعرها بلون أصفر. إنها تريد أن تكون مخلصة للونها، وتتصرف مثل كائن هش، مثل دمية طائشة، تطلب حناناً وخدمات، غزَلاً ونفَقة، إنها عاجزة عن فعل أي شيء بمفردها، إنها ظُرْفٌ تام من الخارج، وسوقيةٌ تامة من الداخل. إذا أصبح الشعر الأسود موضة عالمية، مؤكد أننا سوف نعيش في هذا العالم على نحو أفضل. سيكون ذلك أكثر إصلاحٍ اجتماعيٍ، تمّ إنجازه نفعاً على الإطلاق.

ـ ممكن جداً إذن أن روزينا تمثل عليَّ دوراً، بادر كليما، باحثاً عن مبرر للأمل في كلمات الدكتور سكريتا.

ـ لا. لقد فحصتُها بالأمس. إنها حامل»، قال الطبيب.

لاحظ برتليف أن عازف الترومبيت أصبح داكن الوجه، فقال: «دكتور، أنت من يرأس اللجنة المسؤولة عن عمليات الإجهاض.

ـ نعم، قال الدكتور سكريتا. نجتمع يوم الجمعة القادم.

ـ ممتاز، قال برتليف. لا وقت نضيعه لأن أعصاب صديقنا يمكن أن تنهار. أعرف أنكم في هذا البلد لا تسمحون بطبيب خاطرٍ بالإجهاض.

ـ ليس بطبيب خاطرٍ أبداً. قال دكتور سكريتا. معي في هذه اللجنة امرأتان تمثلان السلطة الشعبية. إنهما قبيحتان قبحاً منفراً وتكرهان جميع النساء اللواتي يأتين إلينا. هل تعرف مَن هم أشرسٍ مُبغِضي النساء هنا؟ النساء. أيها السادة، لم يسبق أن شَعَرَ رجلٌ واحد، حتى السيد كليما الذي حاولت امرأتان تحميلَهُ مسؤوليةَ حَبَلِهِما، بهذه الكراهية إزاء النساء، أكثر من النساء أنفسهن إزاء بنات جنسهن بالذات. لماذا تعتقدون أنهن يسعين جهدهن لإغوائنا؟ فقط لكيٍ يستطعن تحدِّي مثيلاتهن وإهانتهن. لقد غرس الله في قلب النساء كُرْهَ النساء الأخريات لأنه أراد للجنس البشري أن يتكاثر.

ـ أسامحك على أقوالك، قال برتليف، لأني أريد العودة إلى قضية صديقنا. مع ذلك أنتَ من يقرر في هذه اللجنة، والمرأتان الكريهتان تفعلان ما تقوله أنت.

ـ أنا من يقرر دون شك، لكني على أية حال لم أعد أريد القيام بهذا العمل. إنه لا يعود عليَّ بقرش واحد. أنت مثلاً يا أستاذ كم تربح من حفلة موسيقية واحدة؟»

المبلغ الذي نوَّهَ عنه كليما فَتَنَ الدكتور سكريتا:

«كثيراً ما أفكر، قال، بأن عليَّ تغطية عجزِ أواخر شهوري عن طريق عزف الموسيقى. لستُ سيئاً في العزف على الطبول.

ـ أنت تعزف على الطبول؟ قال كليما، مُظهِراً اهتماماً قسرياً.

ـ نعم، قال الدكتور سكريتا. لدينا آلة بيانو وآلات نقر في بيت الشعب. أعزف على الطبول في أوقات فراغي.

ـ رائع! صاح عازف الترومبيت سعيداً بهذه الفرصة لإطراء الطبيب.

ـ ولكن ليس لدي شركاء لكي أؤسس فرقة حقيقية. لا يوجد سوى الصيدلاني الذي يعزف على البيانو برقة شديدة. أنا وهو

حاولنا عدة مرات». قَطعَ كلامه وبدا أنه يفكر. «متى ستحضر روزينا أمام اللجنة..».

أطلق كليما تنهيدة عميقة. «هذا إذا حضرت..».

قام الدكتور سكريتا بحركةٍ نفاد صبر:

«سيسعدها أن تأتي، مثلها مثل الأخريات. لكن اللجنة تطلب حضور الأب أيضاً، وسيتوجب عليك مرافقتها. ولكي لا تأتي إلى هنا إلاً لأجل هذا الأمر التّافه يمكنك الحضور وقت العشية فنقيم مساءً حفلة موسيقية. ترومبيت وبيانو وطبول. ثلاثة يشكلون فرقة موسيقية. وبمساعدة اسمك فوق الملصق سنملأ الصالة. ما قولك؟»

لطالما تَشَدَّد كليما إلى أقصى حد في النوعية التقنية لحفلاته الموسيقية، وكان اقتراحُ الطبيب سيبدو له، قبل ذلك بيومين، أخرق تماماً. أما الآن فلم يكن يهتم إلا بأحشاء ممرضة، وأجاب على سؤال الطبيب بحماسٍ مهذّب:

«سيكون ذلك رائعاً!

ـ حقاً؟ هل أنت موافق؟

ـ طبعاً.

ـ وأنت، ما قولك؟ سأل سكريتا مخاطباً برتليف.

ـ تبدو لي الفكرة ممتازة. لا أعرف كيف ستتمكنون من إعداد كل شيء خلال يومين فقط ؟»

على سبيل الإجابة، نهض سكريتا واتجه إلى جهاز الهاتف، طلب رقماً، لكن أحداً لم يستقبل المكالمة. «أهمُّ شيء هو طلب الملصقات حالاً. للأسف لا بُدَّ أن السكرتيرة ذهبت للغداء، قال. أما بخصوص الحصول على القاعة فهذا في غاية السهولة. هيئة التربية الشعبية تعقد فيها يوم الخميس اجتماعاً مضاداً للإدمان على الكحول، والشخص الذي سيلقي المحاضرة واحد من زملائي. سيسعده أن أطلب منه الاعتذار لسبب صحي. إنما عليك بالتأكيد الوصول صباح الخميس لكي نتدرب نحن الثلاثة. إلا إذا كان لا فائدة من ذلك؟

ـ لا، لا، قال كليما. هذا شيء لا غنى عنه. يجب الاستعداد مسبقاً.

ـ أنا مع هذا الرأي أيضاً، قال سكريتا مؤيِّداً. سنعزف لهم مجموعة المعزوفات الأكثر فعالية. أنا ممتاز على الطبول في معزوفة *سان لويس بلوز* وفي *عندما يدخل القديسون*. لدي بعض المعزوفات الإفرادية الجاهزة، كما لدي فضول لمعرفة رأيك فيها. من ناحية أخرى، هل أنت مشغول بعد ظهر هذا اليوم؟ ألا تريد أن نجري تجربة؟

ـ للأسف، بعد ظهر هذا اليوم، يجب أن أقنع روزينا أن تقبل بالإجهاض».

أظهر سكريتا حركة نفاد صبر: «انسَ ذلك! ستقبل دون أن ترجوها.

ـ دكتور، قال كليما بنبرة متوسِّلة، الخميس بالأحرى».

تدخَّل برتليف:

«أعتقد أيضاً أن عليك أن تنتظر حتى يوم الخميس. صديقنا ليس قادراً على التركيز اليوم. أساساً أعتقد أنه لم يُحضر آلته.

ـ هذا سبب!» أقرَّ سكريتا، وقاد صديقيه إلى المطعم المقابل. لكن ممرضة سكريتا التقت بهم في الشارع ورَجَت الطبيب أن يعود إلى عيادته. اعتذر الدكتور من صديقيه واستسلم للممرضة التي أعادته إلى جوار مريضاته العقيمات.

7

كان قد مضى حوالى ستة أشهر منذ تركت روزينا منزل أبويها اللذين يسكنان في قرية مجاورة، لكي تستقر في غرفة صغيرة بمجمَّع كارل ماركس. يعلم الله بماذا كانت تأمَل من هذه الغرفة المستقلة، لكنها سرعان ما فهمت أن استفادتها من غرفتها ومن

حريتها كانت أقلَّ مدعاةً للسرور وأقل كثافة بكثير مما حلمت به.

بعد ظهر ذلك اليوم، حين عادت في حوالى الثالثة، من مؤسسة الحمامات، فوجئت تلك المفاجأة غير السارة برؤية أبيها ينتظرها مستغرقاً فوق الصوفا. لم يكن هذا يوافقها كثيراً، لأنها أرادت الانصراف كلياً لخزانة ثيابها وترتيب شعرها واختيار الثوب الذي ستلبسه بعناية.

«ما الذي تفعله هنا؟» سألت بتبَرُّم. كانت تحقد على البواب الذي يعرف أباها والمستعد دوماً لكي يفتح له باب غرفتها عندما لاتكون موجودة.

«لدي لحظة فراغ، قال الأب. واليوم عندنا تمرين هنا».

كان أبوها عضواً في رابطة المتطوعين على المستوى الشعبي. ولأنَّ الطاقم الطبي يسخر من أولئك السادة المُسِنِّين الذي يذرعون الشوارع بساعدات[1] فوق أكمامهم وهيئاتٍ تتقمَّص الأهمية فقد كانت روزينا تخجل من نشاطات أبيها.

«إذا كان هذا يسلِّيك! قالت متذمرة.

ـ اعتبري نفسك سعيدة لأنَّ لديك أباً لم يكن قط كسولاً ولن يكون. نحن المتقاعدين، بدورنا، سوف نُري الشبان ما الذي نستطيع أن نفعله!»

رأت روزينا أن من الأفضل أن تدعه يتكلم بينما تُركِّز هي على اختيار ثوبها. فتحت الخزانة.

«أود حقاً أن أعرف ما الذي تستطيعون فعله، قالت.

ـ عدد غير قليل من الأشياء. هذه المدينة محطة عالمية للمياه الحارة، يا صغيرتي. ولكن ما الذي يحدث فيها! الأولاد يركضون فوق مروجها!

ـ وماذا في هذا؟» قالت روزينا، وهي تبحث بين فساتينها ولا يعجبها أي منها.

---

(1) ساعِدة: مايُلبَس على الساعد.

«وليس الأولاد وحدهم، وإنما الكلاب أيضاً! لقد أمر المجلس البلدي منذ زمن طويل بعدم خروج الكلاب إلا إذا كانت مربوطة بِرَسَن وحِجام! أما هنا فلا أحد يطيع. كل إنسان يفعل ما يحلو له. ليس لك إلا أن تتفرجي على الحديقة العامة!»

أخرجت روزينا ثوباً وبدأت تخلع ثيابها، متَواريَةً وراء باب الخزانة المشقوق.

«إنهم يبولون في كل مكان. حتى فوق رمال ساحة اللعب! تصوَّري أن يُسقِط ولدٌ شطيرته على الرمل! ثم نندهش بعد ذلك لوجود هذا القدر من الأمراض! يكفي المرءَ أن ينظر، أضاف الأب وهو يقترب من النافذة. فقط في هذه اللحظة هناك أربعة كلاب تركض بحرية».

كانت روزينا قد ظهرت ثانيةً للتو وراحت تتفحص نفسها في المرآة. لكنها لاتملك سوى مرآة جدار صغيرة بالكاد ترى نفسها فيها حتى الخصر.

«هذا لا يهمكِ، أليس كذلك! سألها الوالد.

- بلى، يهمني، قالت روزينا وهي تبتعد عن المرآة على أطراف أصابعها في محاولة للتكهن بما ستبدو عليه ساقاها في هذا الثوب. لا تغضب، لدي موعد وأنا على عجلة من أمري.

- لا أعترف إلا بالكلاب البوليسية أو كلاب الصيد، قال الأب. لكني لا أفهم الناسَ الذين لديهم كلابٍ في بيوتهم. ستكُفُّ النساءُ قريباً عن إنجاب الأطفال وسنجد كلاباً في المهود!»

لم ترضَ روزينا عن الصورة التي تعكسها المرآة. عادت إلى الخزانة وراحت تبحث عن ثوب يلائمها أكثر.

«قررنا أنه لن يستطيع الناس حيازة كلب في بيوتهم إلا إذا وافقَ جميعُ المستأجرين الآخرين في اجتماع سكان البناء. فوق ذلك سنزيد الضريبة على الكلاب.

- أرى أن لديكَ هموماً خطيرة»، قالت روزينا، وسُرَّتْ لكونها لم تعد تقيم لدى أبويها. منذ طفولتها كان أبوها يثير اشمئزازها بدروسه الأخلاقية وإيعازاته. كانت متعطشة إلى عالم يتكلم الناس فيه لغة أخرى غير لغته.

«ليس هناك مايُضحِك. الكلاب مشكلة خطيرة حقاً، ولستُ الوحيد الذي لديه هذا الرأي، بل أعلى السلطات السياسية كذلك. لا شك أننا نسينا أن نسألكِ ماهو الشيء المهم وما هو غير المهم. وستُجيبين طبعاً أن أهم شيء في العالم هو أثوابك، قال وقد تَبَيَّنَ له أنَّ ابنته تتوارى ثانية خلف باب الخزانة وتبدل ثوبها.

ـ أثوابي أهم من كلابكَ حتماً»، أجابت وهي تقف من جديد على أطراف أصابعها أمام المرآة. ومرة أخرى لم يعجبها شكلها. لكن هذا الاستياء من نفسها كان يتحول ببطء إلى ثورة: أخذت تفكر على نحو شرير بأنَّ على عازف الترومبيت أن يقبلها كما هي، حتى بهذا الثوب رخيص الثمن، وأشعرها ذلك برضئ غريب.

«إنها مسألة صحية، تابع الأب. لن تكون مدنُنا نظيفةً قط طالما تُخرِج الكلابُ فضلاتِها على الرصيف. وهي مسألة أخلاق أيضاً. من غير المقبول أن ندلِّل كلاباً في مساكن أقيمت للناس».

ثمة شيء بدأ يحدث، لم يراود روزينا شكٌّ به: كانت ثورتُها تختلط، على نحو غامض وغير محسوس بِسُخْطها من أبيها. لم تعد تشعر إزاءه بذلك الاشمئزاز الشديد الذي كان يوحي لها به منذ قليل؛ على العكس، كانت، دون علمها، تستمدُّ طاقةً من كلماته المحتَدَّة.

«لم يكن لدينا أبداً كلب في البيت ولم نشعر بتوقٍ لذلك»، قال الأب.

واصلت النظر إلى نفسها في المرآة وكانت تشعر أنَّ حَمْلها يمنحُها ميزةً لا سابق لها. فسواء كانت جميلة أم لا، فقد تجشم عازف الترومبيت عناء السفر متعمداً لكي يراها ودعاها إلى المطعم بألطفِ طريقة في العالم. (نظرت إلى ساعتها). إنه أساساً ينتظرها هناك في هذه اللحظة.

«لكننا سنقوم ببعض التنظيفات، ياصغيرتي، سترين ذلك!» قال الأب ضاحكاً، وتصرفتْ هذه المرة بنعومةٍ وبشبه ابتسامة:

«هذا يسعدني يا أبي. لكن عليَّ أن أذهب الآن.

ـ أنا أيضاً. سيُستأنف التمرين خلال لحظة».

خرجا معاً من مجمَّع كارل ماركس وافترقا. اتجهت روزينا ببطء نحو المطعم ـ المشرب.

8

لم يستطع كليما أبداً أن يتماثل تماماً مع شخصيته العامة كفنان ذائع الصيت يعرفه الجميع، وخاصةً في هذه اللحظات من الهموم الشخصية، وكان يرى في ذلك إعاقة، عاهة. حين دخل بصحبة روزينا إلى بهو المكان ورأى على الحائط، مقابل حجرة الملابس، صورته بالقطع الكبير فوق ملصقٍ بقي هناك منذ الحفلة الموسيقية الأخيرة، شعر بالضيق. اجتاز البهو مع المرأة الشابة محاولاً بصورة آلية أن يَحزِر مَنْ الذي سيتعرف عليه من الزبائن. كان يخاف من النظرات ويخال أنه يرى عيوناً تَرصده وتراقبه من كل مكان، مُمْلِيَةً عليه طريقة تعبيره وسلوكه. كان يشعر بنظرات فضولية عديدة تحدِّق به. جهد ألاّ يعير ذلك اهتماماً واتجه نحو طاولة صغيرة في صدر البهو قرب نافذة زجاجية كبيرة تُكشَف منها أوراقُ أشجار الحديقة العامة.

حين جلسا ابتسم لروزينا، داعب يدها وقال بأن ثوبها يلائمها حقاً. احتجَّت بتواضع لكنه أصرَّ وحاول أن يتكلم بضع لحظات عن جاذبية الممرضة. قال إنه فوجئ بهيئتها وقد فكر بها طوال شهرين إلى درجة أنَّ المجهود التصويري الذي بذلته ذاكرته رَسَم لها صورةً بعيدة عن الواقع. قال إن الشيء الخارق هو أنَّ مظهرَها الحقيقي، مع أنه اشتهاه كثيراً وهو يفكر بها، قد فاق مظهرها المتخيَّل.

أشارت روزينا إلى أن عازف الترومبيت لم يرسل إليها أي خبر عنه طوال شهرين، وأنها استنتجت من ذلك بأنه لم يفكر بها كثيراً.

كان ذلك اعتراضاً استعدَّ له بعناية. أبدى حركة تنمُّ عن السأم وقال للمرأة الشابة بأنها لا تستطيع أن تتخيَّل الشهرين الفظيعين

اللذين أمضاهما. سألته روزينا عما حدث له لكن عازف الترومبيت لم يشأ الدخول في التفاصيل. اكتفى بأن أجاب بأنه عانى من جحود كبير وأنه ألفى نفسه فجأةً وحيداً في العالم، دون أصدقاء ودون أحد.

خشي قليلاً أن تبدأ روزينا بسؤاله بالتفصيل عن همومه، لأنه ربما يورط نفسه في أكاذيب تُعقِّد الأمور. كانت مخاوفه زائدة عن اللزوم، فيقيناً أنَّ روزينا علمت للتو، باهتمام كبير، بأنَّ عازف الترومبيت مرَّ بأوقات عصيبة وقَبِلت بطيب خاطرٍ بهذا التبرير لِشَهْرَيْ صمتِهِ، لكنَّها لم تكن تُبالي أبداً بدقائق هذه المتاعب. لا يهمُّها من هذين الشهرين الحزينين اللذين عاشهما سوى هذا الحزن.

«فكرتُ بكَ كثيراً وكان سيسعدني جداً أن أساعدك.

ـ كنتُ قانطاً إلى درجة الخوف من لقاء الناس. والصاحب الحزين صاحبٌ سيء.

ـ أنا أيضاً كنتُ حزينة.

ـ أعرف، قال وهو يداعب يدها.

ـ فكرتُ منذ وقت طويل بأني أحمل طفلاً منك، وليس هناك خبر منك. لكني كنتُ سأحتفظ بالطفل حتى لو لم تأتِ لتراني، حتى لو لم تعد تريد أن تراني أبداً. قلتُ لنفسي بأني حتى لو بقيتُ وحيدة سيكون لدي على الأقل هذا الطفل منك. لن أقبل أبداً أن أجهض نفسي. لا، أبداً..».

فقدَ كليما القدرة على الكلام أمام ذلك التصريح؛ استحوذ رعبٌ صامتٌ على ذهنه.

لحسن حظه أن النادل الذي يخدم الزبائن بعدم اكتراث توقف للتو أمام طاولتهما لكي يسجل طلبهما.

«كأس كونياك، قال عازف الترومبيت، ثم صحح في الحال: كأسَيْ كونياك».

سادت لحظة صمت جديدة، وكررت روزينا بصوت منخفض: «لا، أبداً لن أجهض نفسي.

ـ لا تقولي هذا، ردَّ كليما وقد عاد إليه رشده. القضية لا تخصكِ وحدكِ. الطفل ليس شأنَ المرأة وحسب. إنه شأنُ طرفيْ الثنائي. يجب أن يتفق الاثنان، وإلا فربما ينتهي الأمر على نحو سيء للغاية».

عندما انتهى فَهِمَ أنه قد أقرَّ للتو بشكلٍ غير مباشر بأنه والد الطفل. وسيقوم كل كلامه القادم مع روزينا من الآن وصاعداً على أساس هذا الاعتراف. عبثاً جَهِدَ لكي يعرف بأنه يتصرف وِفقَ خطة، وأنَّ هذا التنازل وُضِع مسبقاً في الحسبان، لقد أصابته كلماتُهُ ذاتُها بالرعب.

لكن النادل كان يحمل لهما كأسَيْ الكونياك:

«ألستَ السيد كليما، عازفَ الترومبيت؟

ـ نعم، قال كليما.

ـ عرفتكَ فتياتُ المطبخ. أنت حقاً من يظهر في الملصق؟

ـ نعم، قال كليما.

ـ يبدو أنك معبود جميع النساء من سن الثانية عشرة حتى السبعين!» قال النادل. وفيما هو يبتعد أضاف بخصوص روزينا: «كل النساء سيفقأن لك عينيك من الحسد!»، التفت عدة مرات وابتسم لهما بألفةٍ وقِحة.

«لا، أبداً لن أقبل بالتخلص منه، كررت روزينا. وأنتَ أيضاً، ستغدو سعيداً يوماً بأنِ لديك هذا الطفل. لأنني، اِفهمْني، لا أطلب منك شيئاً إطلاقاً. أرجو ألاَّ تتخيل بأني أريد منك شيئاً. يمكنك أن تطمئن تماماً. هذا لا يخص أحداً سواي، وإذا أردتَ لن يترتب عليك أن تفعل شيئاً».

لايوجد ماهو أكثر إثارة للقلق بالنسبة لرجل من هذه الكلمات المطَمْئِنة. لقد تكوَّن لدى كليما فجأةً انطباعٌ بأنه لم يعد يملك القوة لإنقاذ أي شيء، وأنَّ من الأفضل التخلي عن القضية. صمتَ وصمتتْ روزينا أيضاً، بحيث راحت الكلماتُ التي نطقت بها للتو تتجذَّر في

الصمت، وراح كليما يشعر أمامها أكثر فأكثر بأنه بائس وأعزل.

لكن صورة زوجته ظهرت في ذهنه. كان يعرف أنَّ عليه ألاَّ يستسلم. لذا حرَّكَ يده فوق صفحة الطاولة الرخامية حتى لامسَ أصابع روزينا. شدَّ عليها وقال:

«انسَيْ هذا الطفل دقيقة. الأهم ليس الطفل إطلاقاً. هل تعتقدين أنه لا يوجد ما نقوله لبعضنا نحن الاثنين؟ هل تعتقدين أني أتيت لرؤيتك من أجل هذا الطفل وحسب؟»

رفعت روزينا كتفيها.

«الأهم هو شعوري بأني حزين من دونك. لم نلتقِ سوى فترة قصيرة للغاية. مع ذلك لم يمر يوم واحد دون أن أفكر بك».

صمت. ولاحظت روزينا: «لم ترسل لي خبراً عنك مرةً واحدة طوال شهرين، وأنا كتبت لك مرتين.

ـ لايجب أن تحقدي علي، قال عازف الترومبيت. لقد تعمَّدتُ ألا أخبرك شيئاً عني. لم أشأ ذلك. كنتُ خائفاً مما يحدث في داخلي. كنتُ أقاوم الحب. أردتُ أن أكتب لك رسالة طويلة، حتى أني كتبتُ مسودة عدة صفحات، لكني في النهاية رميتها كلها. لم يحدث لي ذلك قط أن أكون عاشقاً إلى هذه الدرجة، وانتابني خوف. ولمَ لا أعترف بذلك؟ أردت التأكد أيضاً من أن عاطفتي ليست مجرد افتتان عابر. رحت أقول لنفسي: إذا بقيتُ هكذا شهراً آخر يكون ما أشعر به نحوها ليس وهماً، بل حقيقة».

قالت روزينا بنعومة: «وما رأيك الآن؟ هل هو مجرد وهم؟»

بعد جملة روزينا هذه فهم عازف الترومبيت أن خطته بدأت تنجح. لذا لم يترك يد الشابة وتابع كلامه. أخذ الكلام يزداد سهولة. فهمَ الآن وهو أمامها بأنه من العبث أن يُخضِع مشاعره لاختبارات أطول، لأن كل شيء بات واضحاً. ولم يُرِد الكلام عن هذا الطفل لأن الأهم بالنسبة له ليس الطفل بل روزينا. والشيء الذي يعطي معنىً

للطفل الذي تحمله، هو تحديداً، أنَّ هذا الطفل دعا كليما إلى جوار روزينا. نعم، هذا الطفل الذي تحمله في أحشائها دعاه إلى هنا، إلى مدينة المياه الصغيرة هذه، وجعله يكتشف إلى أية درجة يحب روزينا ولهذا (رَفعَ كأسه) سوف يشربان نخب هذا الطفل.

طبعاً، شعر في الحال بخوف من هذا النخب الرهيب الذي ساقَهُ إليه حماسُهُ اللغوي. لكن الكلمات لُفِظَتْ. رفعت روزينا كأسها وهمست: «نعم، في صحة طفلنا»، وشربت الكونياك دفعة واحدة.

سرعان مابذَلَ عازف الترومبيت جهداً، عن طريق أحاديث جديدة لكي يُعتِّم على هذا النخب المكدِّر، وعاد ليُؤكّد مرة أخرى أنه فكر بروزينا كل يوم وكل ساعة من اليوم.

قالت بأنه لا بُدَّ أن يكون عازف الترومبيت مُحاطاً في العاصمة بنساء أهم منها.

أجابها بأنَّ لديه أكثر مما يحتمل من شدة تهذيبهِنَّ وادِّعائهن. وراح يعبِّر عن تفضيله لِـ روزينا مقارنةً بكل أولئك النساء، ويأسف فقط لكونها تسكن بعيداً إلى هذا الحد عنه. ألم يكن لديها رغبة بالذهاب للعمل في العاصمة؟

أجابت بأنها تفضل العاصمة، لكن ليس من السهل إيجاد عمل فيها.

ابتسم بتسامح مُتَعجرف وقال إن لديه الكثير من العلاقات هناك في المستشفيات وأنه يستطيع تأمين عمل لها دون صعوبة.

تكلم بهذا الشكل فترة طويلة، دون أن يترك يدها، ولم يلاحظ حتى بأن بنتاً مجهولة اقتربت منهما وقالت بحماس دون خشيةٍ من أن تكون مزعِجةً: «أنت السيد كليما! لقد عرفتك في الحال! أريد منك توقيعاً فقط!»

احمرَّ كليما. فقد كان يمسك يد روزينا ويصرِّح لها بحبه في مكان عام أمام أعين كل الأشخاص الحاضرين. فكر بأن وجوده

هنا يشبه وجوده فوق خشبة مسرح وأن العالم بأسره تَحوَّل إلى مشاهدين لاهين يتابعون بضحكةٍ شريرة نضاله في سبيل الحياة.

مدت له البنت وريقةً وأراد كليما وضع توقيعه عليها بأسرع ما يمكن، لكن لم يكن لديه قلم، كما لم يكن لديها هي أيضاً.

«أليس لديك قلم؟» قال موَشْوِشاً روزينا، صحيح أنه سألها همساً خوفاً من أن تنتبه البنت إلى أنه يكلم روزينا دون كلفة. لكنه أدرك في الحال أن وجود يده في يد روزينا أكثر حميمية من كلامه دون كلفة، فكرر سؤاله بصوت أقوى: «أليس لديك قلم؟»

أشارت روزينا بالنفي وعادت البنت إلى الطاولة التي كانت تشغلها مع عدة شابات وشبان استفادوا حالاً من الفرصة وهرعوا معها نحو كليما. قدَّموا إليه قلماً وانتزعوا من دفتر مذكرات صغير وريقاتٍ كان عليه أن يوقِّع عليها.

كل شيء يسير على مايرام من وجهة نظر الخطة. فبِمقدار كثرةِ الشهود على الجانب الحميمي من حياتها، ستقتنع روزينا بسهولةٍ أكبر بأنها محبوبة. لكنَّ عَقْلَنَةَ عازفِ الترومبيت للأمور ذهبتْ عبثاً، لأنَّ لاعقلانيةَ القلق ألقتْ به في لُجة الذعر. خطرت له فكرة أن كل هؤلاء الناس متواطئون مع روزينا. راح يتخيلهم، في رؤية مشوشة، يرفعون جميعاً ضده قضية أبوَّة: «نعم، رأيناهما، كانا جالسين وجهاً لوجه مثل العشاق، وكان يداعب يدها وينظر بحب في عينيها...».

فاقَمَ الغرورُ كثيراً من قلق عازف الترومبيت، فهو لم يكن في الواقع يعتقد بأنَّ روزينا تتمتع بما يكفي من الجمال لكي يسمح لنفسه بإمساك يدها. وسيكون ذلك إلى حدٍ ما إهانة بحق روزينا، فهي أجمل بكثير مما كانت تبدو عليه في تلك اللحظة في عيني عازف الترومبيت. ومثلما يجعلنا الحب نرى المرأة المحبوبة أكثر جمالاً فإن القلق الذي تسببه لنا امرأةٌ توحي بالتَّخَوُّف يُبرِز بشكلٍ مُغالٍ أقلَّ عيبٍ في ملامحها...

«أجد هذا المكان كريهاً جداً، قال كليما حين أصبحا أخيراً بمفردهما. ألا تريدين أن نقوم بجولة في السيارة؟»

كان لديها فضول لرؤية سيارته فقبلت. دفع كليما الحساب وخرجا من المطعم ـ المشرب. ثمة ساحة دائرية مقابله، مع ممر عريض مغطى بالرمل الأصفر. صفٌ من حوالى عشرة رجال اتخذوا أماكن هناك، ووجوههم إلى المطعم ـ المشرب. معظمهم مُسِنُّون يرتدون ساعداتٍ حمرٍ فوق أكمام ثيابهم المجعلكة ويمسكون بأيديهم عصياً طويلة.

ذُهل كليما: «ما هذا؟»

أجابت روزينا: «لا شيء، أرِني أين سيارتك»، وسحبته بخطوة سريعة.

لكن كليما لم يكن يستطيع رفع نظره عن أولئك الرجال. لم يفهم ما الفائدة الممكنة من تلك العصي الطويلة التي يوجد في نهاياتها حلقة من سلك حديدي. من يراهم يخالهم القائمين على إضاءة قناديل الغاز، أو صيادي أسماك طائرة، أو ميليشيا مزودة بأسلحة غامضة.

ظنَّ، وهو يتفحص الرجال، أنَّ أحدهم يبتسم له. شعر بالخوف، وخاف حتى من نفسه، وقال في سره إنه بدأ يعاني من هلوسات، ويرى في كل إنسان شخصاً يتعقبه ويراقبه. أرخى قياده لِ روزينا حتى باحة وقوف السيارات.

9

قال: «أريد أن أذهب معكِ بعيداً». أحاط كتفَيْ روزينا بأحد ذراعيه وأمسك مقود السيارة باليد اليسرى. «إلى مكان ما جنوباً. سنسير فوق طرقات طويلة على كورنيش الطريق الساحلي. هل تعرفين إيطاليا؟

ـ لا.

- عِديني إذن أن تذهبي معي إلى هناك.

- ألا تُبالغ قليلاً؟»

لم تقُلْ روزينا ذلك إلا من قَبيل التواضع، لكنَّ عازف الترومبيت أخذ حذره في الحال، كأنَّ هذه الـ «تُبالغ قليلاً» كانت تستهدف كلَّ ديماغوجيته التي تمكنتْ من كشفِها فجأةً. إلا أنه لم يعد بوسعه التراجع:

«بلى، أبالغ. تخطر لي أفكار مجنونة دوماً. أنا هكذا. لكني خلافاً للآخرين، أحقق أفكاري المجنونة. صدقيني، ليس هناك ما هو أجمل من تحقيق أفكار مجنونة. أتمنى أن تكون حياتي سلسلة من الأفكار المجنونة. أودُّ ألا نعود بعد الآن إلى مدينة المياه، أودُّ الاستمرار في السير دون توقف حتى البحر. سأجد هناك مكاناً في إحدى الفرق الموسيقية وسنذهب على طول الساحل من محطة حمامات إلى أخرى».

أوقف السيارة في مكان يُشاهَد منه منظر جميل شامل. خرجا واقترح نزهةً في الغابة. سارا، وبعد بضع لحظات جلسا فوق مقعد خشبي يعود إلى الزمن الذي كان الناس يتجولون فيه بالسيارات أقلّ من الآن والذي كانوا يقدِّرون فيه أكثر قيمة النزهات إلى الغابة. كان ما يزال يحيط بكتفي روزينا. قال فجأةً بصوت حزين:

«الجميع يتصورون أن حياتي مليئة بالسرور. إنها أخطر غلطة. أنا في الحقيقة تعيس جداً. ليس منذ هذه الشهور الأخيرة وحسب، بل منذ عدة سنين».

إذا رأت روزينا أنَّ فكرة الرحلة إلى إيطاليا مفْرِطة ونظرت إليها بحذرٍ غامض (إذ أن قليل جداً من مواطِناتها يستطعن السفر إلى الخارج)، فقد أثَّرَ فيها الحزنُ الصادر عن جُمَل كليما الأخيرة، تأثيرَ عطرٍ لطيف. راحت تتشمَّمُه كأنه شِواء لحم خنزير.

«كيف يمكن أن تكون تعيساً؟

ـ كيف يمكن أن أكون تعيساً... تنهَّد عازف الترومبيت.

ـ أنت مشهور، لديك سيارة جميلة ولديك أموال وعندك زوجة حسناء...

ـ نعم، حسناء، ربما... قال عازف الترومبيت بمرارة.

ـ أعرف، قالت روزينا. ليست صغيرة. إنها من سِنك، أليس كذلك؟»

لاحظ عازف الترومبيت أنَّ روزينا قد استعلمتْ بعمق حتماً، بشأن زوجته، وأغضبَهُ ذلك. لكنه تابع: «نعم إنها من سني.

ـ لكنك لستَ كبيراً في السن، تبدو شاباً، قالت روزينا.

ـ الرجل يحتاج إلى امرأة أكثر شباباً، قال كليما. والفنان أكثر من أيٍّ كان. أحتاج إلى الشباب، لا يمكنك أن تعرفي، ياروزينا، إلى أية درجة أقدِّر صِباكِ. يحدث أن أفكر بأني لم أعد أستطيع الاستمرار هكذا. أشعر برغبة مسعورة بالتحرُّر، بإعادة كل شيء مجدداً من البداية وعلى نحو مختلف. روزينا، اتصالك بي، أمس... لقد أتاني فجأةً يقينٌ بأنَّ ذلك رسالة يرسلها لي القدر.

ـ حقاً؟ قالت بنعومة.

ـ ولماذا تعتقدين أني اتصلت بك في الحال؟ شعرتُ دفعة واحدة أنه لم يعد بوسعي إضاعة الوقت، عليَّ أن أراك حالاً حالاً حالاً...». صمتَ ونظر في عينيها طويلاً:

«تحبينني؟

ـ نعم. وأنت؟

ـ أحبكِ بجنون، قال.

ـ أنا أيضاً».

مال نحوها ووضع فمه فوق فمها. كان فماً رطباً، فماً فتيًّاً، فماً جميلاً بشفتين رخوتين بارزتين بشكل جميل، وأسنان نُظِّفت بالفرشاة بعناية. كل شيء فيه كان في مكانه، وإنه لأمرٌ واقع أنه استسلم، قبل شهرين من ذلك، لإغراء تقبيل هاتين الشفتين. ولكن

وبالضبط لأنَّ هذا الفم قد أغراه آنذاك، فإنه كان يتصوره من خلال ضباب الرغبة ولا يعرف شيئاً عن جانبه الواقعي: اللسان شعلة واللعاب خمر مُسكِرة. الآن فقط، وبعد أن فقدَ هذا الفمُ فِتنَتَهُ غدا فجأةً فماً كما هو، فماً واقعياً، أي تلك الفتحة المُثابِرة التي ابتلعتْ الشابةُ من خلالها أمتاراً مكعبة من المشروبات، من البطاطا والحساء. الأسنان مطلية بطبقة رقيقة من الرصاص، ولم يعد اللعاب خمرةً مسكرة، بل أخاً شقيقاً للبصاق. كان فمُ عازف الترومبيت ممتلئاً بلسانها الذي يترك فيه الانطباع بأنه لُقمةٌ غيرُ شهيةٍ جداً يستحيل عليه بلعها ولا يليق به لفظُها.

انتهت القبلة أخيراً. نهضا وذهبا. كانت روزينا سعيدة تقريباً، لكنها منتبِهة تماماً إلى أنَّ السبب الذي دفعها للاتصال بعازف الترومبيت، وإجباره على المجيء، ظلَّ بعيداً على نحوٍ غريب عن حديثهما. لم ترغب أن تناقش الأمر مطوَّلاً. على العكس، فقد بدا لها ما يتحدثان عنه الآن أكثر لطافةً وأهمية. لكنها أرادت مع ذلك، أن يكون هذا السبب الذي أُحيط بالصمتِ الآن، حاضراً وإن كان حضوراً سرياً، خفياً، متواضعاً. لذا، عندما أعلن كليما، بعد عدة تصريحات بالحب، أنه سيفعل كل شيء لكي يستطيع العيش مع روزينا، قالت ملاحِظةً:

«أنت لطيف حقاً، لكنَّ علينا أن نتذكر أيضاً أني لم أعد لوحدي.

ـ نعم، قال كليما، وعرف أنها اللحظة التي كان يخشاها منذ الدقيقة الأولى، الحلقة الأكثر هشاشةً في ديماغوجيَّته.

ـ نعم، معك حق، قال. لستِ وحدك. ولكنْ ليس هذا هو الشيء الرئيسي. أريد أن أكون معك لأني أحبك وليس لأنك حامل.

ـ نعم، قالت روزينا.

ـ ليس هناك ما هو أفظع من زواج لا علة أخرى لوجوده سوى طفلٍ حُبِلَ به خطأً. وإذا استطعتُ أن أكلمك بصراحة، أريدك ياعزيزتي أن تكوني كما في السابق. ألا يكون هناك أحد سوانا ولا أحد بيننا. أتفهمينني؟

- ولكن لا، هذا غير ممكن، لا أستطيع أن أقبل، لن أستطيع ذلك أبداً»، قالت روزينا محتجَّة.

إذا قالت ذلك، فهذا لا يعني أنها مقتنعة به في أعماقها. لأن التأكيد النهائي الذي حصلت عليه قبل يومين من الدكتور سكريتا، كان جديداً إلى درجة أنها مازالت مشوَّشة بسببه. لم تتبع خطةً محسوبة بدقة، بل شَغلتْها تماماً فكرةُ حبَلِها الذي راحت تعيشه كحدَثٍ كبير وليس بعدُ كَفرصةٍ ومناسبةٍ لا تتوافران بسهولة. كانت مثل جنديٍّ في لعبة شطرنج، وصل من توِّهِ إلى نهاية الرُقعة وأصبح وزيراً. راحت تتلذَّذُ بفكرة سلطتها المباغِتة والتي لا سابق لها. أخذت تتحقق من أن الأشياء تتحرك استجابةً لندائها، عازف الترومبيت الشهير جاء من العاصمة لكي يراها، أخذها في نزهة في سيارة فاخرة، وصرَّح لها بحبه. لم يكن بوسعها أن تشكَّ بوجود علاقة بين حملها وبين هذه السلطة المفاجئة. إذا لم تشأ التخلي عن السلطة، لن يكون بوسعها إذن التخلي عن الحَمْل.

لذا اضطر عازف الترومبيت للاستمرار في دحرجة صخرته: «عزيزتي، ما أريده ليس عائلةً، بل الحب. أنتِ بالنسبة لي هي الحب، وبوجود الطفل يُخلي الحبُّ المكانَ للعائلة، للملل، للهموم، للرتابة. والحبيبة تُخلي المكان للأم. وأنت بالنسبة لي لستِ أماً بل حبيبةً ولا أريد مشاركة أحد بك. ولا حتى مشاركة طفل».

تلك كلمات جميلة كانت روزينا تسمعها بسعادة، لكنها هزت رأسها نافيةً: «لا، لاأستطيع. إنه طفلكَ. لا أستطيع التخلص من طفلك».

لم يجد حججاً جديدة، أخذ يردد الكلمات نفسها دوماً وخشي أن تستشفَّ نِفاقَها في النهاية.

«مؤكد أن عمرك أكثر من ثلاثين عاماً. ألم ترغب أبداً أن يكون لك طفل؟»

هذا صحيح، فهو لم يرغب أبداً بأن يكون لديه طفل. كان حبه لِ كاميلا أكبر من أن يزعج نفسه بحضور طفلٍ إلى جوارها. وما أكَّده

لروزينا للتو لم يكنِ مجرد اختلاق. وبالفعل، كان منذ سنوات طويلة يقول لزوجته الجُمَلَ نفسَها تماماً، بصدق ودون تصنُّع.

«أنت متزوج منذ ست سنين وليس لك طفل. سيسرني جداً أن أنجب لك طفلاً».

أخذ يرى أن كل شيء يلتَفُّ عليه. كانت استثنائيَّةُ حبِّه لِـ كاميلا تُقنِع روزينا بعقم زوجته، وتَحثُّها على التحلي بجرأةٍ مِقدامة.

بدأ الطقس يبرد، والشمس تميل إلى الغروب، والوقت يمضي وكليما مستمر في تكرار ما سبق أن قاله، وروزينا تكرر لاءاتها «لا، لا، لن أستطيع». بدأ يشعر أنه في مأزق، ولا يعرف كيف يتصرف وفكر بأنه سيفقد كل شيء. بات شديد العصبية إلى درجة أنه نسي أن يمسك يدها، نسي أن يقبلها ويضفي شيئاً من الحنان على صوته. انتبه إلى ذلك بفزع وبذل جهداً لكي يتمالك نفسه من جديد. توقف، ابتسم لها وعانقها. إنه عناق التعب. شدَّها إليه، ضمَّ رأسها إلى وجهه، وكانت تلك طريقة لالتماس الدعم، والراحة، والأنفاس، لأنه بدا له أنَّ أمامه طريقاً طويلاً مازال عليه أن يمشيه، لكنَّ قواه تخونه.

لكن روزينا أيضاً كانت خائرة القوى. لقد استنفدت مثله كل وسيلة، وبدأت تشعر أنه لايمكنها الاكتفاء طويلاً بتكرار «لا» للرجل الذي تريد الفوز به.

دام العناق طويلاً وحين ترك كليما روزينا تنفلت من بين ذراعيه أخفضت رأسها وقالت بصوت مستسلم: «حسناً، قل لي ما الذي يجب أن أفعله».

لبث كليما عاجزاً عن تصديق أذنيه. كانت تلك كلمات فجائية وغير متوقعة، وغمره ارتياحٌ هائل. هائل إلى درجةٍ اضطرَّ معها إلى بذل مجهود عظيم لكي يسيطر على نفسه ولا يُظهره بوضوح زائد. داعب الشابة من خدِّها وقال إن الدكتور سكريتا واحد من أصدقائه وأن كل ما على روزينا أن تفعله هو أن تَمثُل أمام اللجنة خلال ثلاثة أيام. وسيرافقها. لن يكون هنالك ما تخشاه.

لم تحتجّ روزينا واستعاد الرغبة بالاستمرار في لعبِ دورِه.

احتضن كتفيها، راح يتوقف في كل لحظة لتقبيلها (كانت سعادته كبيرة إلى درجة أن القبلة تغَطَّتْ بالضباب من جديد). كرر أنَّ على روزينا أن تأتي إلى العاصمة وتستقر فيها. بل كرر الجمل التي قالها بشأن السفر إلى شاطئ البحر.

ثم اختفت الشمس وراء الأفق وازداد الظلام كثافةً في الغابة وظهر قمرٌ بدر فوق ذرى الأرز. عادا باتجاه السيارة. لحظة اقترابهما من الطريق، وجدا نفسيهما تحت حزمة ضوء سُلِّط عليهما. ظنا في البداية أن سيارةً تمر على مقربة بمصابيحها المضاءة، لكن سرعان ما بدا واضحاً أنَّ المصباح لا يفارقهما. كانت الحزمة تصدر عن دراجة متوقفة في الجهة الأخرى من الطريق، وهناك رجل يجلس فوق الدراجة ويراقبهما.

«أسرِع، من فضلك!» قالت روزينا.

حين أصبحا قرب السيارة، نهض الرجل الجالس فوق الدراجة وقدِم للقائهما. لم يميز عازف الترومبيت سوى قامة معتمة لأن الدراجة الواقفة تضيء الرجل من الخلف، بينما ينصبُّ الضوء في عينَيْ عازف الترومبيت.

«تعالي هنا! قال الرجل وهو يندفع باتجاه روزينا. يجب أن أكلِّمَكِ. لدينا أشياء نقولها لبعضنا! أشياء كثيرة!» كان يصرخ بصوتٍ عصبي ومرتبك.

كان عازف الترومبيت عصبياً ومرتبكاً أيضاً، وكل ما شعر به لم يكن سوى نوع من السخط إزاء قلة الاحترام. صرَّح قائلاً: «الآنسة معي وليست معك!

ـ أنت أيضاً تعرف أن لديَّ ما أقوله لك! راح الشخص المجهولُ يزعق مخاطباً عازف الترومبيت. تظن أنَّ كونك مشهوراً يُبيح لك كل شيء! تتخيل أنك سوف تخدعها! أنَّ بوسعك أن تفتنها! هذا بسيط جداً بالنسبة لك! أنا أيضاً أستطيع ذلك إذا كنت في مكانك!»

استفادت روزينا من لحظة مخاطبة سائق الدراجة لعازف الترومبيت وانسلَّت داخل السيارة. قفز سائق الدراجة نحو الباب، لكن

الزجاج كان مغلقاً وضغطت الشابة فوق زر الراديو. دَوَّت السيارة بموسيقى صاخبة. ثم انزلق عازف الترومبيت بدوره في السيارة وصفق الباب. كانت الموسيقى تصم الآذان. لم يكن ممكناً تمييز شيء عبر الزجاج سوى قامة رجل يزعق وذراعيه المُشَوبِرَيْن.

«إنه مجنون يلاحقني في كل مكان، قالت روزينا. بسرعة من فضلك، انطلق!»

10

أوقف السيارة، رافق روزينا إلى مجمَّع كارل ماركس، قَبَّلها، وحين اختفت وراء الباب، شعر بالتعب نفسه الذي يلي أربع ليالٍ من الأرق. كان الوقت قد تأخر. وكان كليما جائعاً وشعر أنه لايملك القوة للجلوس خلف المقود وقيادة السيارة. كانت لديه رغبة لسماع كلمات برتليف المهدِّئة واتجه إلى ريشموند عبر الحديقة العامة.

لدى وصوله أمام المدخل أذهله ملصق كبير يَسقط عليه ضوءُ مرآة عاكسة. ظهر فيه اسمه بحروف كبيرة خرقاء، وتحته بحروف أصغر اسما الدكتور سكريتا والصيدلاني. كان الملصق مصنوع يدوياً، وتُرى فيه صورة من رسم هواة تمثل آلة ترومبيت ذهبية.

اعتَبَرَ عازفُ الترومبيت السرعةَ التي نظَّم بها الدكتور سكريتا الإعلان عن الحفلة الموسيقية، فألاً حسناً، لأنه بدا له أن هذه السرعة تشير إلى أن سكريتا رجل يمكن الاعتماد عليه. صعد السلم ركضاً وطرق باب برتليف.

لم يجب أحد.

طرق ثانيةً وأجابه الصمت ثانيةً.

بالكاد وجد الوقتَ ليفكر بأنه جاء في وقت غير مناسب (كان الأمريكي معروفاً بعلاقاته النسائية المتعددة)، راحت يده تشدّ قبضة الباب. لم يكن الباب مقفلاً. دخل عازف الترومبيت إلى الغرفة

وتوقف. لم يرَ شيئاً. لم يرَ سوى ضوء صادر عن زاوية في الغرفة. كان ضوءاً غريباً لايشبه ضوء النيون الأبيض، ولا ضوء المصباح الكهربائي الأصفر. كان ضوءاً مزرَقّاً يملأ الغرفة بأكملها.

في تلك اللحظة وصلت فكرةٌ متأخرةٌ إلى أصابع عازف الترومبيت النزقة، وأوحت له بأنه ربما يرتكب فِعْل تَطَفُّلٍ بالدخول عند الغير في ساعةٍ متأخرة بهذا الشكل ودون أدنى دعوة. خاف من قلة تهذيبه، تراجع إلى الممشى وأغلق الباب على عجل.

لكنه كان مشوشاً إلى درجة أنه بدلاً من الذهابِ بقي مزروعاً أمام الباب، يحاول جهده فهم ذلك الضوء الغريب. فكَّر أن الأمريكي ربما كان عارياً في غرفته ويأخذ حمام شمس بمصباح فوق بنفسجي. لكن الباب فُتح وظهر برتليف. لم يكن عارياً، كان يرتدي البزّة التي ارتداها صباحاً. أخذ يبتسم لعازف الترومبيت: «أنا مسرور أنك مررت لرؤيتي. ادخل».

دخل عازف الترومبيت الغرفة بفضول، لكن الغرفة كانت مضاءة بمصباح عادي معلق في السقف.

«أخاف أن أكون قد أزعجتك، قال عازف الترومبيت.

ـ دعْكَ، هيا! أجاب برتليف مشيراً إلى النافذة التي ظنَّ عازفُ الترومبيت أنه رأى نبع ضوءٍ أزرق يتدفق منها. كنت أفكر. هذا كل شيء.

ـ حين دخلت، اعذرني على ظهوري المفاجئ بهذا الشكل، رأيتُ ضوءاً خارقاً للعادة تماماً.

ـ ضوء؟ قال برتليف، وانفجر ضاحكاً. لا يجوز أن تأخذ مسألة حبَلٍ على محمل الجد أكثر مما يجب. هذا يسبب لك الهلوسات.

ـ أو ربما لأني قادم من الممشى الغارق في العتمة.

ـ ممكن، قال برتليف. ولكن ارْوِ لي كيف انتهى ذلك!»

بدأ عازف الترومبيت يروي، وقاطعه برتليف بعد لحظة: «هل أنت جائع؟»

هز عازف الترومبيت رأسه موافِقاً وأخرج برتليف من خزانةٍ علبةً بسكويت وعلبة جامبون محفوظ فتَحَها على الفور.

تابع كليما روايته وهو يبتلع عشاءه بنهم وينظر إلى برتليف بهيئة استفهامية.

«أظن أن كل شيء سينتهي على مايرام، قال برتليف مُواسِياً.

- برأيك، من ذلك الشخص الذي كان ينتظرنا قرب السيارة؟»

رفع برتليف كتفيه: «لا أعرف عنه شيئاً. على أية حال، لم يعد لذلك أية أهمية.

- تماماً. يجب بالأحرى أن أفكر كيف أشرح لِ كاميلا لماذا استمرت تلك المحاضرة كل هذا الوقت».

كان الوقت قد تأخر. صعد عازف الترومبيت، وقد ووسِيَ وسُكِّنَ روعُهُ، إلى سيارته وسافر إلى العاصمة. رافقه قمرٌ دائري ضخم المشوارَ كله.



اليوم الثالث

1

نحن في صبيحة يوم أربعاء، ومحطة المياه الحارة استيقظت للتو من أجل نهارٍ مرِح آخر. سيول من الماء تندفع في أحواض الاستحمام، المُدَلِّكون يضغطون الظهور العارية، وتوقفت للتو في ساحة الوقوف سيارة سياحية. لا، ليست الليموزين الفاخرة التي توقفت بالأمس في المكان نفسه، بل سيارة عادية مثل السيارات التي يُشاهد الكثير منها في هذا البلد. الرجل الجالس خلف المقود يمكن أن يكون في الخامسة والأربعين، وهو بمفرده. المقعد الخلفي يغص بالحقائب.

نزل الرجل، أقفلَ الأبواب، أعطى حارس الموقف قطعةً نقدية من فئة الخمسة كورونات، واتجه نحو مجمَّع كارل ماركس؛ حاذى الممشى حتى الباب الذي كتب عليه اسم الدكتور سكريتا. دخل قاعة الانتظار وطرق باب العيادة. ظهرت ممرضة، قدَّمَ الرجل نفسَهُ وجاء الدكتور سكريتا لاستقباله:

«جاكوب! متى وصلت؟

ـ للتو!

ـ رائع! لدينا أشياء كثيرة نناقشها. اسمع... قال بعد أن فكر. لا أستطيع التغيُّب الآن. تعال معي إلى غرفة المعاينة. سأعيرك قميصاً».

لم يكن جاكوب طبيباً ولم يسبق له أن دخل عيادة طب نسائي. لكن الدكتور سكريتا كان قد أمسكه من ذراعه وقاده إلى غرفة بيضاء حيث توجد امرأة ممددة على طاولة الفحص دون ملابس وبساقين مُباعدتين.

«أعيري الدكتور قميصاً»، قال سكريتا للممرضة. فتحت هذه خزانةً وقدّمت لِ جاكوب قميصاً أبيض. «تعال انظر، أود أن تؤكد لي تشخيصي»، قال لِ جاكوب، داعياً إياه للاقتراب من المريضة التي بدا واضحاً أنها شديدة الرضا لفكرةِ أنَّ لغزَ مبيضَيْها اللذين لم ينتجا أي خَلَفٍ رغم كثرة الجهود، سوف يسبره قطبان في الطب.

عاد الدكتور سكريتا إلى جَسِّ أحشاء المريضة، نطق ببضع كلمات لاتينيةٍ أصدَرَ جاكوب غمغمةً تأييديةً لها، ثم سأل: «كم من الوقت ستبقى؟

ـ أربعاً وعشرين ساعة.

ـ أربعاً وعشرين ساعة؟ هذا وقت قصير بطريقة مضحكة، لن نستطيع مناقشة شيء!

ـ حين تلمسني هكذا، يؤلمني، قالت المرأة مرفوعة الساقين.

ـ لابد أن يؤلم قليلاً، هذا لاشيء، قال جاكوب لكي يسلّي صديقه.

ـ نعم، الدكتور على حق، قال سكريتا. هذا لاشيء، أمر عادي. سأصف لك سلسلة حقن. تأتين إلى هنا كل صباح في السادسة لكي تعطيك الممرضة حقنتك. يمكنك الآن ارتداء ملابسك.

ـ أتيتُ في الحقيقة لأودعك، قال جاكوب.

ـ كيف، تودعني.

ـ سأسافر إلى الخارج. حصلتُ بالأمس على إذن بالهجرة».

في تلك الأثناء ارتدت المرأة ثيابها واستأذنت بالانصراف من الدكتور سكريتا وزميله.

«هذه مفاجأة حقاً! لم أكن أتوقعها! قال الدكتور سكريتا مندهشاً. سأصرف هؤلاء النسوة إلى بيوتهن باعتبارك جئت تودعني.

ـ دكتور، تدخّلت الممرضة، سبق أن صرَفْتَهُنَّ بالأمس. سيكون لدينا عدد ضخم من المؤجّلين في نهاية الأسبوع!

ـ استدعِ المرأة التالية إذن»، قال الدكتور سكريتا، وتنهّد.

نادت الممرضة المريضة التالية التي ألقى عليها الرجلان نظرةً شاردة وهما يلاحظان أنها أجمل من السابقة. سألها الدكتور سكريتا كيف تشعر بعد الحمامات ثم دعاها لخلع ملابسها.

«أخذ مني استلام جواز سفري قرناً من الزمن. لكني أصبحتُ بعدها جاهزاً للسفر خلال يومين. لم أرغب بتوديع أحد.

ـ يسعدني خاصة أنك توقفتَ هنا»، قال الدكتور سكريتا ودعا الشابة للصعود فوق طاولة الفحص. ارتدى قفازاً مطاطياً وغطّس يده في أحشاء المريضة.

«لم أرغب برؤية أحد سواك أنت وأولغا. قال جاكوب. أتمنى أن تكون بخير.

ـ كل شيء بخير، كل شيء بخير»، قال سكريتا، لكنٍ كان واضحاً من صوته أنه لم يعرف بماذا يرد على جاكوب. ركّز كل اهتمامه على المريضة: «سنلجأ إلى مداخلة صغيرة، قال. لا تخافي، لن تشعري بشيء على الإطلاق». ثم اتجه نحو خزانة صغيرة مزججة وأخرج منها محقناً استُبدِلَتْ إبرتُهُ بأنبوب صُنِع من مادة بلاستيكية.

«ماهذا؟ سأل جاكوب.

ـ خلال سنين طويلة من الممارسة طورتُ مناهج جديدة فعالة إلى أقصى حد. ربما ستجدني أنانياً، إلا أني أعتبر الأمر سراً في الوقت الراهن».

سألت المرأة الممددة ذات الساقين المباعدتين، بصوتٍ غُنجٍ أكثر منه خوف: «أهذا مؤلم؟

ـ إطلاقاً»، أجاب الدكتور سكريتا وهو يُدخل المحقن في أنبوب اختبارٍ كان يعامله بعناية تصل إلى حد الوسوسة. ثم اقترب من المرأة، أدخل المحقن بين ساقيها وضغط على المكبس.

«هل يؤلم؟

ـ لا، قالت المريضة.

- جئتُ أيضاً لكي أعيد لكَ الحبّة»، قال جاكوب.

لم يعر الدكتورِ سكريتا اهتماماً كبيراً لجِملة جاكوب الأخيرة. كان ما يزال منشغلاً بمريضته. راح يفحصها من رأسها حتى قدميها بهيئة جادة ومتأملة ويقول: «سيكون خسارةِ حقاً، في حالتكِ، ألاّ تُنجِبي. لديك ساقانِ طويلتان، حوض نامٍ تماماً، قفص صدري جميل ووجه لطيف تماماً».

لمس وجه المريضة، جسَّ ذقنها وقال: «فكٌّ جميل، كل شيء مكوَّن على أحسن وجه».

ثم أمسك بالفخذ: «وعظامك متينة على نحو رائع. يخيل للمرء أنه يراها تلمع تحت عضلاتكِ».

استمر أيضاً بضع لحظات في مدح المريضة وهو يجسّ جسدها، ولم تحتجّ، كما أنها لم تضحك ضحكةً عابثة، لأن الجديةَ التي اتصف بها اهتمام الطبيب أبعدَتْ ملامساتِه كثيراً عن مستوى قلة الحياء.

أشار إليها أخيراً أن ترتدي ثيابها والتفت نحو صديقه:

«ماذا كنت تقول؟

- بأني جئت أعيد لك حبّة.

- أي حبّة؟»

ارتدت المرأة ثيابها وقالت: «إذن يادكتور، هل تعتقد أن بإمكاني أن آمُل؟

- أنا راضٍ إلى أقصى حد، قال الدكتور سكريتا. أعتقد أن الأمور تتطور إيجابياً، وأننا، أنت وأنا، نستطيع الاعتماد على تحقيقِ نجاح».

غادرت المرأة العيادة شاكرةً. وقال جاكوب: «منذ سنينٍ أعطيتني قرصاً لم يشأ أحدٌ أن يعطيني إياه. الآن، باعتباري مسافراً أظن أني لن أعود بحاجة إليه، وعليَّ أن أعيده لك.

- احتفظ به! هذا القرص ربما يفيد في مكان آخر مثلما يفيد هنا.

ـ لا، لا. هذا القرص جزء من هذا البلد. أريد أن أترك لهذا البلد كل مايخصه، قال جاكوب.

ـ دكتور، سأنادي المريضة التالية، قالت الممرضة.

ـ اصرفي هؤلاء النسوة إلى بيوتهن، قال الدكتور سكريتا. لقد اشتغلتُ اليوم جيداً. سترين أن الأخيرة سيكون لها طفل بالتأكيد. هذا كافٍ ليوم واحد، أليس كذلك؟»

راحت الممرضة تنظر إلى الدكتور سكريتا بحنان، ولكن دون أية نيةٍ بإطاعة أمره.

فهم الدكتور سكريتا هذه النظرة: «حسناً، لاتصرفيهن، بل قولي لهن أني سأعود بعد نصف ساعة.

ـ دكتور، البارحة كانت نصف ساعة أيضاً، واضطررتُ أن أركض وراءك في الشارع.

ـ لا تخافي ياصغيرتي، سأعود خلال نصف ساعة»، قال سكريتا، ودعا صديقه لإعادة القميص الأبيض للممرضة. ثم خرجا من المبنى، وذهبا عبر الحديقة العامة إلى مقابل ريشموند.

2

صعدا إلى الطابق الأول، وسارا على طول السجادة الحمراء حتى بلغا نهاية الممشى. فتح الدكتور سكريتا باباً ودخل مع صديقه غرفةً ضيقة لكنها لطيفة.

«شيء رائع من قِبَلك، قال جاكوب، أن يكون لي غرفة عندك دوماً.

ـ لدي الآن غرف محجوزة لمرضاي المميزين في هذا الطرف من الممشى. بجانب غرفتك توجد شقة جميلة على زاوية كان ينزل فيها الوزراء والصناعيون سابقاً. أنزلتُ فيها أهم مرضاي، وهو أمريكي غني، أصل عائلته من هنا. إنه صديقي إلى حد ما.

ـ وأين تقيم أولغا؟

ـ مثلي، في مجمع كارل ماركس. وضعها ليس سيئاً فيه، لا تقلق.

ـ الشيء الأساسي هو أنك اهتممتَ بها. كيف حالها؟

ـ الاضطرابات الاعتيادية للنساء ذوات الأعصاب الهشة.

ـ شرحتُ لك في رسالتي الحياة التي عاشتها.

ـ غالبية النساء يأتين إلى هنا طلباً للخصوبة. في حال يتيمتكَ الأفضل ألاّ تسعى بإفراط إلى الخصوبة. هل رأيتَها وهي عارية تماماً؟

ـ يا إلهي! لم أرها في حياتي! قال جاكوب.

ـ حسناً، انظر إليها! لها نهدان ضئيلان يتدليان من صدرها مثل خوختين. كل أضلاعها مرئية. في المستقبل انظر بانتباه أكبر إلى الأقفاص الصدرية. الصدر الحقيقي يجب أن يكون عدوانياً، متجهاً نحو الخارج، يجب أن ينبسط كما لو أنه يريد شغْل أكبر حيز ممكن. بالمقابل هناك أقفاص صدرية تتخذ وضعاً دفاعياً وتتراجع أمام العالم الخارجي، كأنها قميص مجانين يُضَيِّقُ الخناق على صاحبه أكثر فأكثر حتى يخنقه تماماً في النهاية. إنها حالة قفصها الصدري. قل لها أن تريك إياه.

ـ سأتجنب ذلك تماماً، قال جاكوب.

ـ تخشى، إذا رأيتها، ألا تعتبرها بعد ذلك يتيمتك القاصر.

ـ على العكس، قال جاكوب، أخشى أن تزداد شفقتي عليها.

ـ ياصديقي، قال سكريتا، هذا الأمريكي شخص غريب إلى أقصى حد حقاً.

ـ أين يمكن أن أجدها؟ سأل جاكوب.

ـ من؟

ـ أولغا.

ـ لن تجدها حالياً. إنها تتابع علاجها. عليها أن تمضي الصباح كله في المسبح.

ـ لا أريد أن تفوتني فرصة رؤيتها. هل يمكن أن نطلبها؟»

رفع الدكتور سكريتا السماعة وطلب رقماً دون قطع حديثه مع صديقه: «سأقدمه لك ويجب أن تدرسه لي بعمق. أنت محلل نفسي ممتاز وستتمكن من معرفته. في نيَّتي أمور تتعلق به.

ـ ما هي؟» سأل جاكوب، لكن الدكتور سكريتا كان قد بدأ بالكلام في الهاتف:

«روزينا؟ كيف الحال؟... لاتهتمي، هذه التوعُكات شائعة في حالتك. أردتُ أن أسألك إذا لم يكن لديك الآن في المسبح إحدى مريضاتي، جارتك في الغرفة... نعم؟ حسناً، أعلِميها أن لديها زائراً من العاصمة، احرصي خاصةً على ألاً تذهب إلى أي مكان... نعم، سينتظرها ظهراً أمام مُؤسسة الحمَّة».

أغلق سكريتا الخط. «سمعت، ستلاقيها عند الظهر. تبًّاً، عن أي شيء كنا نتحدث؟

ـ عن الأمريكي.

ـ نعم، قال سكريتا. إنه شخص غريب إلى أقصى حد. لقد شَفيتُ له زوجته. لم يكن بوسعهما إنجاب أطفال.

ـ وهو، ماذا يعالج هنا؟

ـ قلبه.

ـ قلتَ إن في نيتك أموراً تتعلق به.

ـ إنه لَشيءٌ مُهين، قال سكريتا مستنكراً، الأشياء التي يُجبَر الطبيبُ على القيام بها في هذا البلد لكي يتمكن من العيش بشكل لائق! كليما، عازف الترومبيت الشهير قادم إلى هنا. يجب أن أرافقه إلى حيث أعزِف على الطبول!»

لم يأخذ جاكوب كلمات سكريتا على محمل الجد، لكنه اصطنع المفاجأة: «كيف، هل تعزف على الطبول؟

ـ نعم ياصديقي! ماذا بوسعي أن أفعل وقد أصبحت الآن مسؤولاً عن عائلة!

ـ كيف! صرخ جاكوب متفاجئاً حقاً هذه المرة. عائلة؟ أنت لا تقصد أنك تزوجت؟

ـ بلى، قال سكريتا.

ـ مِن سوزي؟»

سوزي طبيبةٌ في محطة الحمة، وهي التي كانت صديقة سكريتا منذ سنين، لكنه تمكّن في السابق دوماً من الهرب من الزواج، في اللحظة الأخيرة.

«نعم، من سوزي، قال سكريتا. تعرف جيداً أني كنت أصعد معها إلى المَطَلّ كل يوم أحد.

ـ لقد تزوجت إذن! قال جاكوب بنبرة كئيبة.

ـ كل مرة نصعد فيها، تابع سكريتا، كانت سوزي تحاول إقناعي أنه يجب أن نتزوج. وكنت أنهَك من الصعود إلى درجة أشعر معها أني مسنّ ويتكوّن لديّ انطباع بأنه لم يبق لي سوى أن أتزوج. لكني كنت أبقى دوماً سيد نفسي، في النهاية، وعندما ننزل من المطلّ أستعيد قوّتي ولا تعود لدي رغبة بالزواج. لكنَّ سوزي جعلتنا في أحد الأيام نقوم بدورة فاستمر صعودنا فترةً كانت طويلة إلى درجة أني وافقتُ على الزواج قبل الوصول إلى القمة بكثير. وفي الوقت الحاضر ننتظر طفلاً وعليّ أن أفكر بالمال قليلاً. هذا الأمريكي يرسم أيضاً صوراً وَرِعة. يمكننا بوساطتها أن نجمع مالاً بلا حدود. ما قولك؟

ـ هل تعتقد بوجود سوق للصور الورعة؟

ـ سوق خارقة! يكفي ياصديقي أن تنصب منصةً في أيام الحج بجانب الكنيسة، وتطرح القطعة بمئة كورون. سنجمع ثروة! أستطيع أن أبيعها له ثم نتقاسم نصفاً بنصف.

ـ وهو، هل سيوافق؟

ـ هذا الشخص يملك من المال إلى حد لايعرف معه ماذا يفعل به، ولن أفلح بالتأكيد في إقناعه بالعمل معي»، قال سكريتا بنبرة شتيمة.

3

كانت أولغا ترى جيداً أنَّ الممرضة روزينا تشير لها على طرف الحوض، لكنها تابعت السباحة وتظاهرت بعدم رؤيتها.

لم تكن هاتان المرأتان متحابتين. فقد أنزل الدكتور سكريتا أولغا في غرفة صغيرة ملاصقة لغرفة روزينا. اعتادت روزينا على رفع صوت الراديو بشكل عال بينما أولغا تحب الهدوء. وسبق لها أن دقَّت مرات عديدة على الحائط، وكان الجواب الوحيد الذي تتلقاه من الممرضة هو رفع الصوت أكثر.

واظبت روزينا على إرسال الإشارات ونجحت أخيراً في إعلام المريضة بأن زائراً من العاصمة سينتظرها عند الظهر.

فهمت أولغا أنه جاكوب فشعرت بفرح هائل. وفوجئت على الفور بهذا الفرح: كيف يمكنني أن أشعر بتلك السعادة لفكرة رؤيته ثانيةً؟

كانت أولغا في الحقيقة من تلك النساء العصريّات اللواتي يُضاعفن أنفسهن إلى شخصين: شخص يعيش وشخص يراقب.

ولكن حتى أولغا التي تراقب، كانت سعيدة. لأنها تفهم جيداً أنَّ فرَحَ أولغا (التي تعيش) المتهوِّر بهذا الشكل، مغالاةٌ تامة. ولأنها ميالة إلى الإيذاء فقد كانت تلك المغالاة تسعدها. راحت تبتسم لفكرة أن جاكوب سيصاب بالرعب إذا أدركَ عُنفَ فرحها.

مؤشر الساعة فوق المسبح يشير إلى الثانية عشرة إلا ربعاً. تساءلت أولغا عما ستكون عليه ردة فعل جاكوب إذا ألقت بنفسها حول عنقه وقبّلتهُ قبلة غرام. سبحت عائدةً إلى حافة المسبح. ثم

خرجت من الماء وذهبت تبدل ثيابها في إحدى الحجرات. أسفت قليلاً لعدم إعلامها منذ الصباح بزيارة جاكوب. كانت سترتدي ثياباً أفضل. ليس لديها حالياً سوى طقم قصير رمادي قليل الشأن يُفسِد مزاجَها الجيد.

ثمة أوقات، كتلك التي كانت فيها تعوم في المسبح قبل لحظات، تنسى فيها مظهَرَها تماماً. أما الآن، فقد عسكَرَتْ أمام مرآة حجرة الثياب الصغيرة، وراحت ترى نفسها في طقم رمادي. قبل بضع دقائق من الآن كانت تبتسم ابتسامة شريرة لفكرةُ أنها ستلقي بنفسها حول عنق جاكوب، وتقبِّله قبلة هيام. لكن حين خطر لها ذلك الخاطر كانت في المسبح تعوم بلا جسد، شبيهةً بفكرةٍ غير متجسِّدة. أما الآن وقد صار لها فجأةً جسدٌ وطقم من قطعتين فقد ابتعدت جداً عن تلك النزوة السعيدة، وباتت تعرف أنها، لِغَضَبِها الشديد، تماماً تلك التي يراها جاكوب دوماً: شابة صغيرة تثير العطف وتحتاج إلى مساعدة.

لو أن أولغا حمقاء قليلاً، لوَجدتْ نفسها جميلة تماماً. أما وهي فتاة ذكية، فقد كانت ترى نفسها أبشع كثيراً مما هي في الواقع. فهي للحقيقة، لم تكن لا بشعة ولا جميلة، ومن شأن أي رجلٍ له متطلبات جمالية عادية، أن يمضي الليل معها بطيبة خاطر.

ولكن بما أن أولغا تجد متعةً في مُضاعفة نفسها إلى اثنتين، فإنَّ تلك التي تراقِب أوقَفتْ في تلك اللحظة، تلك التي تعيش: لماذا تعذب نفسها بسبب انعكاسٍ في مرآة؟ أليست شيئاً آخر سوى الشيء المادي في عيون الرجال؟ سوى السلعة التي تعرض نفسَها في السوق؟ أليست قادرة أن تكون مستقلة عن مظهرها، على الأقل بالحدود التي يستطيع فيها أيُّ ذَكَرٍ أن يكون كذلك؟

خرجت من مؤسسة الحمامات ورأت وجهاً متأثِّراً مليئاً بالبلاهة. كانت تعرف أنه بدلاً من أن يمد لها يده، سيمرُّ بها فوق شعرها كبنت صغيرة لطيفة. وهذا ما فعله بطبيعة الحال.

«أين سنتغدى؟» سأل.

اقترحت عليه الذهاب إلى قاعة طعام النزلاء، حيث يوجد مكان شاغر على طاولتها.

كانت قاعة الطعام هائلة وغاصة بالطاولات والناس الذين يتناولون غداءهم مُتَراصِّين جنباً إلى جنب. جلس جاكوب وأولغا وانتظرا طويلاً أن تأتي نادلة وتسكب لهما حساءً في صحنين مقعَّرين. ثم جلست نزيلتان أخريان إلى طاولتهما وحاولتا فتح حديث مع جاكوب الذي اعتبرتاه حالاً من أسرة النزلاء الأليفة. لذا لم يتمكن جاكوب من سؤال أولغا عن بعض التفاصيل العملية إلاّ على شكل شذرات، خلال أحاديث المائدة: هل هي راضية عن الطعام، هل هي راضية عن الطبيب، هل هي راضية عن العلاج؟ حين سألها أين تقيم، أجابت إن لها جارة كريهة. وبإشارة من رأسها دلَّته إلى طاولة قريبة جداً، حيث تتغدى روزينا.

انسحب رفاق طاولتهما بعد إلقاء التحية عليهما، وقال جاكوب وهو ينظر إلى روزينا: «لدى هيغل فكرة غريبة بشأن الهيئة الجانبية للوجه اليوناني، التي يأتي جمالُها، حسب رأيه، من كَوْن الأنف يشكِّل مع الجبين خطاً واحداً، الأمر الذي يُبرِز الجزء العُلوي للرأس، موطن الذكاء والعقل. حين أنظر إلى جارتك ألاحظ أن الوجه كله مركَّز بالمقابل على الفم. انظري كم تمضغ بقناعة وكم تتكلم بقوة في الوقت نفسه. كان هيغل لينفُرَ من تلك الأهمية المُعطاة للجزء الأدنى، الجزء الحيواني من الوجه. ومع ذلك، فإن هذه الفتاة التي لا أدري لماذا أجدها سَمِجةً، جميلة تماماً.

ـ هذا رأيك؟» سألت أولغا وصوتها يشي بِعدوانيَّتها.

لهذا السبب سارَع جاكوب إلى القول: «على أية حال، كنت سأخشى من أن أُفرَمَ إلى قطع صغيرة من قبل هذا الفم الجدير بكائن مجتَرّ». وأضاف: «أنتِ أكثر إرضاءً لهيغل. الجزء الغالب في وجهك هو الجبين الذي يُنبِئ الجميعَ عن ذكائك في الحال.

ـ هذه المحاكمات تُخرِجني عن طوري، قالت أولغا بقوة. إنها

تسعى للبرهنة على أن الشكل الخارجي لكائن إنساني هو بصمة روحِه. وهذا هراء مطلق. أتخيَّل أنَّ لروحي ذقناً طويلة ومعقوفة وشفتين شهوانيتين، مع أن ذقني صغيرة وأيضاً فمي صغير. لو أني لم أرَ نفسي في المرآة أبداً وكان عليَّ أن أصِف شكلي الخارجي وفق ما أعرفه عن نفسي من الداخل، لن تُشبِه الصورةُ ما تراه عندما تنظر إليّ إطلاقاً! لستُ أبداً ما أبدو عليه!»

4

من الصعب العثور على كلمة تعبِّر عن موقف جاكوب إزاء أولغا. إنها ابنة صديق له، أُعدِم وهي في السابعة من عمرها. لذا قرر جاكوب أخذ اليتيمة الصغيرة تحت رعايته. لم يكن لديه أطفال، وقد فتَنَتْهُ تلك الأبوَّة الخالية من القسر. كان يسمي أولغا يتيمَتَهُ القاصر، على سبيل اللهو.

هما الآن في غرفة أولغا. حيث وصلتْ سخاناً بالكهرباء، ووضعت فوقه حلة صغيرة مليئة بالماء وفهم جاكوب أنه لن يستطيع أن يكشف لها سبب زيارته. لا يجرؤ أن يعلن لها بأنه قادم لكي يودِّعها، خشي أن يأخذ النبأ بُعداً مثيراً للعواطف أكثر مما يجب، وأن يخيِّم بينهما مناخٌ عاطفي يرى أنه في غير موضعه. كان منذ زمن طويل يرتاب بأنها مغرمة به.

أخرجت أولغا فنجانين من الخزانة، وضعت فيهما بُنَّاً مطحوناً وسكبت ماءً يغلي. وضع جاكوب قطعة سكر وحرَّك، ثم سمع أولغا تقول له: «من فضلك يا جاكوب، أي نوعٍ من الرجال كان أبي في الحقيقة؟

ـ لماذا؟

ـ ألم يكن هناك حقاً ما يُؤخذ عليه؟

ـ ماذا تتخيلين!» قال جاكوب مندهشاً. لقد أُعيد الاعتبار لوالد أولغا رسمياً منذ بعض الوقت، وبراءةُ رجلِ السياسة الذي حُكِم عليه بالموت وأُعدِم، أُعلِنت على الملأ ولم يشكّك بها أحد.

«ليس هذا ما عنيتُه، قالت أولغا. قصدتُ العكس تماماً.

ـ لا أفهمك، قال جاكوب.

ـ لقد تساءلت إذا كان قد فعل لآخرين ما فعلوه به بالضبط. لم يكن هناك أدنى اختلاف بينه وبين مَن أعدموه. آمنوا جميعاً بالعقيدة نفسها، كانوا الأشخاصَ المتعصّبين أنفسَهم. كانوا مقتنعين بأن حتى أصغر اختلاف يهدد الثورةَ بخطر مميت، وكانوا شكاكين. لقد أرسلوه إلى الموت باسم أشياء مقدسة آمَنَ هو نفسُهُ بها. لماذا لا يمكنه إذن أن يتصرف مع الآخرين مثلما تصرفوا معه؟

ـ الزمن يمضي بسرعة مخيفة والماضي يزداد استغلاقاً على الفهم أكثر فأكثر، قال جاكوب بعد لحظة من التردد. ماذا تعرفين عن والدك باستثناء بضع رسائل، بضع صفحات من يومياته، أُعيدت لكِ على سبيل الإحسان، وبضع ذكريات من أصدقائه؟»

لكن أولغا أصرت: «لماذا تهرب؟ طرحتُ عليك سؤالاً واضحاً تماماً. هل كان والدي مثل الذين أعدموه؟

ـ هذا جائز، قال جاكوب وهو يرفع كتفيه.

ـ لماذا لايمكن إذن أن يكون قد ارتكب الفظائع نفسها؟

ـ نظرياً، أجاب جاكوب ببطء شديد، نظرياً، كان بوسعه تماماً أن يفعل للآخرين الشيء الذي فعلوه به. ليس في هذه الدنيا رجل واحد ليس قادراً، وبضمير مرتاح نسبياً، أن يرسل قريبه إلى الموت. فيما يخصني أنا لم ألتق بأحد من هذا النوع أبداً. ومن وجهة النظر هذه، إذا تَغيَّر الناس يوماً فإنهم سيفقدون الميزة الإنسانية الجوهرية. لن يعودوا أناساً، بل نوعاً آخر من المخلوقات.

- أجدكم مدهشين! صاحت أولغا مُعَنِّفَةً بضمير الجمع آلافَ الجاكوبات. إنكم تجعلون كل الناس قَتَلَةً، وفي الوقت نفسه لا يعود فعلُ القتل الذي ترتكبونه أنتم بالذات جريمةً، ولا يعود سوى خاصية حتمية للجنس البشري.

- معظم الناس يتحركون ضمن دائرة مثالية بين بيتهم وعملهم، قال جاكوب. يعيشون في أرضٍ مسالِمة فيما وراء الخير والشر. تُفزِعهم بصدق رؤيةُ رجلٍ يَقتل. لكن يكفي، في الوقت نفسه، إخراجهم من تلك الأرض الهادئة ويصبحون قَتَلة دون أن يعرفوا كيف. هناك اختبارات وإغراءات لاتخضع لها الإنسانيةُ إلاّ بفواصل متباعدة من التاريخ. ولا أحد يصمد أمامها. لكن الكلام عنها عبث تماماً. المهم بالنسبة لكِ، ليس ما كان والدكِ قادراً نظرياً على فِعله، إنما على أية حال ليس هناك أية طريقة لإثباته. الشيء الوحيد الذي يجب أن يثير اهتمامك هو ما فعله، أو ما لم يفعله. وبهذا المعنى كان نقيَّ الذمة.

- هل يمكنك أن تكون على يقين مطلق من ذلك؟

- تماماً. لم يعرفه أحد أفضل مني.

- أنا مسرورة حقاً لسماع ذلك من فمك، قالت أولغا. لأن السؤال الذي سألته لك، لم أسأله بالمصادفة. أتلقى رسائل مجهولة منذ وقت غير قصير. يكتبون لي أنني أُخطِئ إذ ألعب دور ابنة الشهيد، لأن أبي قام بنفسه، قبل أن يُعدَم، بسَجْن أشخاص أبرياء خطيئتهم الوحيدة هي أنَّ مفهومهم للعالم مختلف عن مفهومه.

- هذا هراء، قال جاكوب.

- في هذه الرسائل يرسمونه لي رجلاً متعصباً عنيداً وقاسياً. إنها بالطبع رسائل مغفلة وشريرة، لكنها ليست غبية. تتحدث عن أمور مادية محسوسة ومحددة، كُتِبت دون مبالغة، وكاد ينتهي بي الأمر إلى تصديقها.

ـ الانتقام نفسه دوماً، قال جاكوب. سأقول لك شيئاً. حين أوقِف والدُكِ كانت السجون مليئة بأناس زجَّت بهم الثورةُ فيها إثر موجةٍ أولى من الرعب. عَرف الموقوفون بأنه زعيم شيوعي فانقضُّوا عليه في أول مناسبة وأوسعوه ضرباً حتى فقد الوعي. وراح الحراس يراقبون المشهد بابتسامة سادية.

ـ أعرف»، قالت أولغا، وانتبه جاكوب أنه روى لها واقعةً سمعتها مرات عديدة. لقد وعَدَ نفسَهُ منذ زمن طويل ألا يعود ثانيةً للكلام عن هذه الأشياء، لكنه أخفق. فالناس الذين تعرَّضوا لحادث سيارة عبثاً يمنعون أنفسهم من تَذَكُّره.

«أعرف، كررت أولغا، لكنَّ هذا لايدهشني. هؤلاء الناس سُجِنوا دون محاكمة، ودون أدنى مبرر في أغلب الأحيان. وفجأةً يجدون أمامهم واحداً ممن يعتبرونهم مسؤولين عن ذلك!

ـ منذ اللحظة التي ارتدى فيها والدك لباس السجن غدا سجيناً بين سجناء آخرين. لم يكن هناك أي معنىً لإيذائه، خاصةً أمام أعين الحراس المغتبِطة. لم يكن ذلك سوى انتقام جبان. سوى الرغبة الأكثر دناءة في دَوْسِ ضحيةٍ لا تستطيع الدفاع عن نفسها. وهذه الرسائل التي تتلقينها ثمرة للانتقام نفسه الذي هو، كما يتَّضح لي، أقوى من الزمن.

ـ لكنهم يا جاكوب، كانوا حوالى المئة ألف في السجون! وآلاف منهم لم يعودوا أبداً! ولم يُعاقَب مسؤول واحد قط! هذه الرغبة بالانتقام هي في الحقيقة رغبة لم تلبَّ بالعدالة!

ـ الانتقام من الأب بابنته، شيء لا علاقة له بالعدالة. تذكَّري أنك بسبب أبيك فقدتِ بيتك الخاص وأنك اضطررتِ إلى تركِ المدينة التي كنتِ تسكنينها، كما حُرِمتِ من التحصيل الدراسي. بسبب أبٍ ميت تقريباً لم تعرفيه! وبسبب أبيكِ يعذبك الآخرون الآن ويلاحقونك؟ سأخبرك بأتعَس اكتشافٍ في حياتي: الملاحَقون ليسوا أفضل من الملاحِقين. بوسعي تماماً أن أتخيل الأدوار معكوسة. أنتِ يمكنك أن

تري في هذا المنطق رغبةً بمحوِ مسؤوليته وتحميلها للخالق الذي صنع الإنسان كما هو. وربما يكون من الجيد أن تري الأمور هكذا، لأن التوصُّل إلى النتيجة القائلة بعدم وجود فرق بين المذنب والضحية يعني *التخلي عن كل رجاء*. وهذا هو ما يُدعى *بالجحيم*، يا ابنتي».

5

كانت زميلتا روزينا تتحرَّقان تَشَوُّقاً. أرادتا معرفة كيف انتهى موعد الأمس مع كليما، لكنهما كانتا تعملان في الطرف الآخر من مؤسسة الحمامات، ولم تتمكنا إلا حوالى الساعة الثالثة من لقاء صديقتهما والانقضاض عليها بالأسئلة.

ترددت روزينا في الإجابة وفي النهاية أجابت بصوتٍ قليلِ الثقة: «قال إنه يحبني وسيتزوجني.

ـ رأيتِ! قلتُ لكِ ذلك! هتفت النحيلة. وهل سيطلِّق؟

ـ قال إنه سيفعل.

ـ لن يستطيع أن يفعل غير ذلك، قالت الأربعينية. أنتِ سيكون لك طفل وليس لزوجته أطفال».

هذه المرة اضطرت روزينا للاعتراف بالحقيقة: «قال إنه سيأخذني إلى براغ. سيجد لي عملاً هناك. وإننا سنذهب في العطلة إلى إيطاليا. لكنه لا يريد أن يكون لدينا طفل في الحال. ومعه حق. فالسنوات الأولى هي الأجمل وإذا كان لدينا طفل لن يستفيد أحدنا من الآخر».

وقفت الأربعينيةُ منذهلةً: «كيف، ستجهضين؟»

أجابت روزينا بالموافقة.

«هل فقدت رشدك! صاحت النحيلة.

ـ لقد لعب بكِ بأصبعه الصغير، قالت الأربعينية. ما أن تتخلصي من الطفل حتى يطردك.

ـ ولماذا؟

ـ تراهنين؟ قالت النحيلة.

ـ لكنه يحبني!

ـ وكيف تعرفين أنه يحبك؟ قالت الأربعينية.

ـ قال لي ذلك!

ـ ولماذا لم يرسل لكِ خبراً عنه طوال شهرين؟

ـ كان خائفاً من الحب، قالت روزينا.

ـ كيف؟

ـ كيف تريدينني أن أشرح لك! كان خائفاً من أن يحبني.

ـ ولهذا السبب انقطعت أخباره؟

ـ إنه اختبار أخضَعَ نفسَهُ له. أراد التأكد من أنه لن يستطيع نسياني. هذا مفهوم أليس كذلك؟

ـ فهمت، استأنفت الأربعينية. وحين علم بأنه أعطاكِ طفلاً فَهِمَ دفعة واحدة أنه لن ينساك.

ـ يقول إنه مسرور لأني حامل. ليس بسبب الطفل، بل لأنني اتصلت به. فهمَ أنه يحبني.

ـ يا إلهي كم أنت حمقاء! صاحت النحيلة.

ـ لا أرى لماذا أنا حمقاء.

ـ لأن هذا الطفل هوِ الشيء الوحيد الذي تملكينه، قالت الأربعينية. إذا أسقطتِ الطفلَ لن يبقى لك شيء، وسيبصق عليك.

ـ أريد أن يرغب بي لأجلي أنا وليس لأجل الطفل!

ـ ومن تظنين نفسك؟ لماذا يرغب بك لأجلك أنت؟»

تناقشن مطولاً وبانفعال. لم تكف المرأتان عن تذكير روزينا

بأنَّ الطفل هو الورقة الرابحة الوحيدة بيدها، وأن عليها ألاّ تتخلص منه.

«أنا ما كنتُ لأجهض نفسي أبداً. أقولها لك، أبداً، تفهمين؟ أبداً»، أكدت النحيلة.

فجأةً بدت روزينا كأنها بنت صغيرة وقالت (الجملة نفسها التي أعادت إلى كليما الرغبةَ بالحياة عشيةَ الأمس) : «قولا لي إذن، ماذا عليَّ أن أفعل!

ـ أن تصمدي، قالت الأربعينية، ثم فتحت درجاً في خزانتها وأخرجت منه أنبوبة أقراص دواء. خذي، تناولي واحدة منها! أعصابك في غاية الإرهاق. هذا سيهدِّئك».

وضعت روزينا قرص الدواء في فمها وابتلعته.

«واحتفظي بالأنبوبة. تجدين التعليمات هنا: حبة ثلاث مرات في اليوم، إنما خذي منها فقط عندما تحتاجين لتهدِئة أعصابك. لا ترتكبي حماقات بعصبيتك. لاتنسي أن هذا الرجل شخص محتال، وليست هذه أولى تجاربه! لكنه لن يفلت بسهولة هذه المرة!»

من جديد باتت لا تعرف ماذا تفعل. منذ لحظةٍ ظنَّتْ نفسها مصممة، لكن حجج زميلتيها بدت مُقنعة وتزعزعَ كيانُها من جديد. نزلت درجات المؤسسة، ممزقةً.

في البهو، هُرع نحوها شاب قرمزي متوفِّز الأعصاب.

«سبق وقلت لكَ ألا تنتظرني هنا أبداً، قالت وهي تنظر إليه بهيئة شريرة. بعد ماحدث بالأمس لا أفهم كيف تجرؤ!

ـ أرجوكِ لاتغضبي! صاح الشاب بنبرة يائسة.

ـ اصمت! صرختْ. لا تسبب لي مشاكل أخرى هنا فوق مافعلتَ، وأرادت الانصراف.

ـ لاتذهبي بهذا الشكل إذا أردتِ أن لا أسبب لك المشاكل!»

لم يكن باستطاعتها أن تفعل شيئاً. فهناك نزلاء يأتون ويذهبون في البهو، وفي كل لحظة يمرُّ بقربها أناس بقمصان

بيضاء. لم تشأ لفت الأنظار وكانت مجبرةً على البقاء وهي تحاول في الوقت نفسه أن تبدو طبيعية: «ماذا تريد مني؟ قالت همساً.

- لاشيء، أردتُ فقط أن تغفري لي. أنا نادم بصدق على مافعلته. ولكن اقسِمي لي من فضلك، أنه لا شيء بينكما.

- سبق وقلت لك، لاشيء بيننا.

- اقسِمي إذن!

- لا تكنْ طفلاً. أنا لا أُقسِم من أجل حماقات من هذا النوع.

- لأنه حدث شيء بينكما.

- قلتُ لكَ، لا. وإذا لم تصدقني، لن يعود بيننا كلام. إنه صديق فقط. أليس لي حق بأن يكون لي أصدقاء؟ إني أحترمه وأنا مسرورة لكونه صديقي.

- أعرف. لا ألومك على شيء، قال الشاب.

- سيعزف في حفلة موسيقية هنا غداً. آملُ أنك لن تتجسس علي.

- إذا أعطيتني كلمة شرف بأنه لاشيء بينكما.

- قلتُ لك أنني لا أتنازل لإعطاء كلمة شرف لأجل هذه الأشياء. لكني أعطيك كلمة شرف بأنك إذا تجسستَ عليَّ مرة أخرى فسوف لن تراني في حياتك بعد الآن أبداً.

- روزينا، هذا لأني أحبك، قال الشاب بهيئة تعيسة.

- أنا أيضاً، قالت روزينا باقتضاب. لكني لا أضعفَ في مواقف سخيفة على الطريق العام، بسبب ذلك.

- هذا لأنك لاتحبينني. تخجلين بي.

- أنت تقول الحماقات.

- لاتسمحين لي أبداً بالظهور معك، بالخروج معك...

- اسكت! كررت له إذ راح يرفع صوته. ربما يقتلني والدي. سبق أن شرحتُ لك أنه يراقبني. أما الآن، لاتغضب، يجب أن أنصرف».

رفعت روزينا نظرها بِيأسٍ نحو السقف. فقال الشاب: «إذا

تزوجنا سيختلف كل شيء. لن يعود بوسعه أن يقول شيئاً. وسيكون لنا طفل.

ـ لا أريد أطفالاً، قالت روزينا بقوة. أفضِّل أن أقتل نفسي على أن أنجب طفلاً!

ـ لماذا؟

ـ هكذا. لا أريد أطفالاً.

ـ أحبك ياروزينا»، قال الشاب مرة أخرى.

وأجابت روزينا: «ولهذا تريد أن تجرني إلى الانتحار، أليس كذلك؟

ـ الانتحار؟ سأل متفاجئاً.

ـ نعم! الانتحار!

ـ روزينا! قال الشاب.

ـ أنت تقودني إليه مباشرةً! أؤكد لك ذلك! إنك تقودني إليه بلا شك!

ـ هل أستطيع القدوم مساء إلى هنا؟ سأل بمذَلَّة.

ـ لا، ليس هذا المساء»، قالت روزينا. ثم أضافت بنبرةٍ أكثر تساهلاً، وقد فهمت أنَّه يجب تهدئته: «تستطيع الاتصال بي إلى هنا، يا فرانتيزيك، ولكن ليس قبل يوم الاثنين». واستدارت على عقبيها.

«انتظري، قال الشاب. أحضرتُ لك شيئاً. لكي تسامحيني»، وقدم لها رزمة صغيرة.

أخذتها وخرجت بسرعة إلى الشارع.

6

«هل الدكتور سكريتا شخص ذو خصوصية مبتَكَرة إلى هذه الدرجة، أم أنه يتظاهر بذلك؟ سألت أولغا جاكوب.

ـ هذا هو السؤال الذي أطرحه على نفسي منذ أن عرفته، أجاب جاكوب.

ـ الأشخاص ذوو الخصوصية لهم حياة جميلة بما فيه الكفاية حين يتمكّنون من فرض احترام خصوصيتهم، قالت أولغا. الدكتور سكريتا ساهٍ على نحو لايصدَّق. ففي منتصف حديث ينسى عن أي شيء كان يتحدث قبل لحظة. وأحياناً يبدأ بمماحكةٍ في الشارع فيَصِلُ متأخراً ساعتين إلى عيادته. لكنَّ أحداً لايجرؤ أن يكنّ له ضغينة لأن الدكتور شخص خاصّ باعتراف رسمي، ولا أحد غير إنسان غليظ يمكنه أن ينكِر عليه حقَّهُ في الخصوصية.

ـ سواء كان ذا خصوصية أم لا، لا أعتقد أنه يعالجك بشكل سيء.

ـ دون شك، لكنَّ الجميع هنا لديه انطباع أنَّ عيادته الطبية شيء ثانوي بالنسبة له، يمنعه من التركيز على كمٍّ من المشاريع الأكثر أهمية بكثير. غداً مثلاً سيعزف على الطبول!

ـ انتظري، قال جاكوب مقاطِعاً أولغا. هذه القصة صحيحة إذن؟

ـ طبعاً! المحطة كلها مغطاة بالملصقات التي تعلن أنَّ عازف الترومبيت الشهير كليما سيقدم هنا حفلة موسيقية، وأنَّ الدكتور سكريتا سيرافقه على الطبول.

ـ هذا لايُصَدَّق، قال جاكوب. لم يُفاجئني أبداً أن أعلم أنَّ سكريتا ينوي العزف على الطبول. سكريتا أكبر حالِمٍ عرفتُهُ في حياتي. لكني لم أره يحقق واحداً من أحلامه. حينَ عرفته في الجامعة لم يكن سكريتا يملك الكثير من المال. كان دوماً يفتقر إلى المال ويتخيل دوماً أكواماً من المشاريع لكسب المال. في ذلك الوقت أعدَّ مشروعاً للحصول على كلبةٍ أنثى من نوع ويلش تيريير، لأنه قيل له إنَّ جِراء هذا النوع يُباع الواحد منها بأربعة آلاف كورون. أجرى العملية الحسابية من فوره. ستحمل الكلبةُ مرتين في العام، خمسة جراء في كل بطن. خمسة مكررة مرتين تساوي عشرة، أربعة آلاف مكررة عشر مرات تساوي أربعين ألف كورون في العام. لقد

فكَّر بكل شيء. وضمن بصعوبة كبيرة مساعدةَ صاحب النُّزْل الجامعي الذي وعد بإعطائه بقايا المطبخ كل يوم لأجل كلبته. كَتبَ لطالبتين أطروحتَيْ دبلومهما لكي تُخرِجا له كلبته كل يوم. كان يسكن في مجمع للطلبة حيث يُمنع اقتناء الكلاب. لذا راح يقدِّم كل أسبوع باقة ورد للمديرة، إلى أن وعدته باستصدار استثناءٍ لصالحه. خلال شهرين جَهَّز الوضع لأجل كلبته، لكننا كنا نعرف جميعاً أنه لن يحصل عليها قط. كان يلزمه أربعة آلاف كورون لشرائها ولم يُقرِضهُ إياها أحد. لم يأخذه أحد مأخذ الجد. الجميع اعتبروه حالماً، وبالتأكيد ماكراً بشكل استثنائي وجَسوراً، إنما في مملكة الخيال وحسب.

ـ شيء جذاب تماماً، لكني لاأفهم مع ذلك محبَّتَكَ الغريبة له. فلا يمكن حتى الاعتماد عليه. إنه عاجز عن الوصول إلى مواعيده في الوقت المحدد وينسى في اليوم التالي ما وعد به بالأمس.

ـ هذا ليس دقيقاً تماماً. لقد ساعدني كثيراً في الماضي. في الحقيقة لم يساعدني أحد مثلما ساعدني هو».

أدخل جاكوب يده في الجيب العلوي لسترته وأخرج منه ورقة حرير مطوية. فتحها فظهرت حبة زرقاء شاحبة.

«ما هذا؟ سألت أولغا.

ـ سُمّ».

استمتع جاكوب لحظةً بصمتِ الشابةِ المتسائل، واستأنف قائلاً: «هذه الحبة معي منذ أكثر من خمسة عشر عاماً. بعد السنة التي قضيتها في السجن، فهمت أمراً. يجب أن يكون لدى المرء يقين واحد على الأقل: أنه سيدُ موتِهِ ويستطيع اختيار الوقت والوسيلة اللتين يريدهما له. بهذا اليقين يمكنك تحَمُّل أشياء كثيرة. تعرفين أنَّ بوسعك الإفلات منهم حين تشائين.

ـ كانت هذه الحبة معك في السجن؟

ـ للأسف لا! لكني حصلتُ عليها منذ خروجي.

ـ حين لم يعد لك حاجة بها؟

ـ في هذا البلد لا يعرف المرء أبداً متى يمكن أن يحتاج إلى هذه الأشياء. ثم إن هذه مسألة مبدأ بالنسبة لي. على كل إنسان أن يحصل على سُمٍّ يوم بلوغه سن الرشد. ويجب أن يقام احتفال رسمي بهذه المناسبة. ليس لحثّه على الانتحار، بالعكس، إنما لكي يعيش بقدر أكبر من الثقة ومن الهدوء الداخلي. لكي يعيش وهو يعرف بأنه سيد حياته وموته.

ـ وكيف حصلت على هذا السم؟

ـ عمل سكريتا كيميائياً مبتدئاً في مخبر للكيمياء الحيوية. توجهتُ في البداية إلى شخص آخر، لكن ذاك الشخص اعتبر أن واجبه الأخلاقي يقضي برفض إعطائي السم. وصنع لي سكريتا الحبة بنفسه دون أن يتردد لحظة واحدة.

ـ ربما لأن هذا شيء ذو خصوصية.

ـ ربما. ولكن بالدرجة الأولى لأنه فهمني. عرف أني لست شخصاً هستيرياً تروق له المسرحيات الانتحارية. فهِمَ حقيقةَ مُرادي. سوف أعيد له هذه الحبة اليوم. لن تعود لي حاجة بها.

ـ زالت كل الأخطار إذن؟

ـ غداً صباحاً أغادر هذا البد نهائياً. دُعيت إلى إحدى الجامعات وحصلتُ من السلطات على الإذن بالسفر».

أخيراً، قيلَ الأمر. راح جاكوب ينظر إلى أولغا ورأى أنها تبتسم. أمسكت يده: «صحيح؟ هذا خبر جيد للغاية! أنا سعيدة جداً لأجلك!»

أظهَرَت الفرحَ غيرَ المكترِثِ نفسَهُ الذي كان سيشعر به هو إذا علم أنَّ أولغا ستسافر إلى الخارج حيث ستعيش حياةً أكثر متعة. فاجأهُ ذلك لأنه طالما خشي أن تكون متعلِّقة به عاطفياً. كان سعيداً أنَّ الأمر ليس هكذا، لكنه، لخيبته الخاصة، أشعره بالغيظ.

كانت أولغا مهتمةً بالخبر الذي كشف عنه جاكوب، إلى درجة نسيت معها أن تسأله عن الحبة الزرقاء الشاحبة التي وُضِعت بينهما

في ورقة الحرير المدعوكة، واضطر جاكوب أن يعرض لها بالتفصيل كل ظروف عمله القادم.

«أنا في غاية السعادة لأنك نجحت. كنتَ هنا شخصاً مشبوهاً على الدوام. لم يسمحوا لك حتى بممارسة مهنتك. وإلى جانب هذا يمضون وقتهم في المناداة بحب الوطن. كيف تحب بلداً تُمنَع فيه من العمل؟ أستطيع أن أقول لكَ بأني لا أشعر بأي حب لوطني. هل هذا شيء سيء من قِبلي؟

ـ لا أعرف، قال جاكوب. حقاً لا أعرف. فيما يخصني، كنتُ متعلِّقاً بما فيه الكفاية بهذا البلد.

ـ ربما يكون هذا سيئاً، استأنفت أولغا، لكني لا أشعر بأنَّ شيئاً يربطني به. ما الذي يمكن أن يربطني به؟

ـ حتى الذكريات الأليمة بالنسبة لنا رابطة تُلزِمنا.

ـ تُلزِمنا بماذا؟ بالبقاء في البلد الذي وُلِدنا فيه؟ لا أفهم كيف يمكن للمرء أن يتحدث عن الحرية دون أن يُلقي بهذا العبء عن كاهله. مثل شجرة موجودة في موطنها الذي لاتستطيع أن تنمو فيه. تكون الشجرة في موطنها حيث تجد الأرض الخصبة.

ـ وأنتِ، هل تجدين الأرض الخصبة هنا؟

ـ إجمالاً، نعم. الآن وقد سُمِح لي أخيراً بالدراسة، فإنَّ لديَّ ما أريد. سأدرس العلوم الطبيعية. ولا أريد أن أسمع كلاماً عن أي شيء آخر. لستُ أنا من اخترع هذا النظام، ولستُ مسؤولة عنه إطلاقاً. ولكن متى بالضبط ستسافر؟

ـ غداً.

ـ بهذه السرعة؟» أمسكت بيده: «أرجوك، بما أنك كنت لطيفاً لتأتي وتودِّعني لا تستعجِل بهذا الشكل».

كانت الأمور تبدو دوماً مختلفة عما يتوَّقعه. لم تكن تتصرف لا كامرأة تحبه في السر، ولا كابنةٍ بالتبنِّي تكنُّ له حباً بَنَوياً مجرَّداً. أمسكت بيده برقةٍ بالغة، وراحت تنظر في عينيه وتردد: «لا تستعجل!

لن يكون للأمر أي معنى بالنسبة لي إذا لم يكن لِتَوَقُّفِكَ هنا من غرَضٍ سوى أن تودِّعني».

وقع جاكوب في شبه حيرة: «سنرى، قال. سكريتا أيضاً يريد إقناعي بالبقاء لوقت أطول قليلاً.

ـ يجب حتماً أن تبقى وقتاً أطول، قالت أولغا. في كل الأحوال أمامنا وقت قليل جداً. يجب أن أعود الآن إلى الحمامات..». وبعد لحظة تفكير، أكّدتْ أنها لن تذهب إلى أي مكان بما أن جاكوب هنا.

«لا، لا، يجب أن تذهبي. لايجوز أن تهملي علاجك. سأرافقك.

ـ صحيح؟» سألتْ أولغا مليئة بالسعادة. ثم فتحت الخزانة لتبحث عن شيء فيها.

كان القرص الأزرق الشاحب فوق الطاولة على الورقة المفتوحة، وكانت أولغا الكائن الوحيد في العالم الذي كَشَفَ له جاكوب حقيقةَ وجوده، كانت منحنية باتجاه الخزانة المفتوحة وظهرُها للسم. فكّرَ جاكوب أن هذا القرص الأزرق الشاحب هو مأساة حياته، مأساة مهمَلة، شبه منسية وربما حتى بلا أهمية. وقال لنفسه إنه الوقت المناسب للتخلص من تلك المأساة عديمة الأهمية، ليقول لها وداعاً بسرعة كبيرة ويتركها وراءه. غلّف القرص بالوريقة ودسَّ الكل في الجيب العلوي لسترته.

أخرجت أولغا كيساً من الخزانة، وضعت فيه منشفةً وأغلقت الخزانة. «أنا جاهزة»، قالت لجاكوب.

7

كانت روزينا جالسةً يعلم الله منذ كم من الوقت، على مقعد بالحديقة العامة، وعاجزة عن الحراك، دون شكٍ لأنَّ أفكارها أيضاً كانت ساكنة، مثبتة عند نقطة وحيدة.

بالأمس فقط كانت تصدِّق مايقوله لها عازف الترومبيت. ليس

فقط لأن كلامه كان لطيفاً، بل كان أكثر بساطةً أيضاً: بات بوسعها بتلك الطريقة أن تتخلى وهي مرتاحة الضمير عن معركةٍ تنقصها القوةُ لأجل خَوْضها.

أما منذ أن سخرت منها زميلتاها، فقد عادت إلى الشك والتفكير به بكراهية، وفي أعماقها خوف من ألا تتحلّى بما يكفي من المكر ولا بما يكفي من العِناد لاستمالته.

مزقت، بلا فضول، ورقةَ الرزمة التي قدَّمها لها فرانتيزيك. كان في داخلها قماش أزرق شاحب وفهمت روزينا أنه أهداها قميص نوم، القميص الذي أراد أن يراها فيه كل يوم؛ كل يوم وأياماً كثيرة وطوال حياته. راحت تتأمل لون القماش الأزرق الشاحب وخيَّل لها أنها ترى تلك البقعة الزرقاء تَنِشُّ وتنتشر، تتحول إلى بركة، بركة من الطيبة والإخلاص، بركة من الحب العبودي الذي سينتهي بالتِهامها.

من كانت تكره أكثر؟ ذاك الذي لايريدها أم ذاك الذي يريدها؟

كانت مثبَّتة إذن إلى المقعد بهذين الشعورين بالكره، ولا تعرف شيئاً عما يدور حولها. عندما توقفت حافلة صغيرة عند حافة الرصيف، تتبعها شاحنة خضراء مغلقة وتناهتْ منها إلى روزينا أصواتُ نباح كلاب. انفتح باب الحافلة الصغير وخرج منه عجوز يرتدي ساعِدةً حمراء فوق كمه. أخذت روزينا تنظر أمامها بانذهال وبقيت لحظة دون أن تعي ما تنظر إليه.

صرخَ العجوز نحو الحافلة الصغيرة آمِراً، فنزل عجوزٌ آخر يرتدي أيضاً ساعدةً حمراء فوق كمه ويمسك بيده عصاً بطول ثلاثة أمتار ثُبِّتت في نهايتها حلقة من سلك حديدي. نزل رجالٌ آخرون واصطفوا أمام الحافلة الصغيرة. كانوا جميعاً رجالاً عجائز، وجميعاً يرتدون سواعد حمراء ويمسكون بأيديهم عصيّاً طويلة زوَّدَتْ نهاياتها بحلقة من سلك حديدي.

لم يكن الرجل الذي نزل أولاً يحمل عصاً وكان يعطي الأوامر، نفَّذ العجائز عدة أوامر بالاستعداد والاستراحة، كأنهم فرقة جند من رماة رماح غريبي الشكل. ثم صرخ الرجل مصدِراً أمراً آخر،

فاندفعت فرقةُ العجائز جرياً في الحديقة العامة. هناك تفرَّقوا وجرى كل منهم في اتجاه مختلف، بعض في الممرات، والبعض الآخر فوق المروج. كان في الحديقة نزلاء يتنزهون وأطفال يلعبون، وتوقف الجميع فجأةً للنظر إلى هؤلاء العجائز الذين يهاجمون مسلحين بعصيّ طويلة.

روزينا أيضاً خرجت من غيبوبة تَأَمُّلِها لكي تراقب مايحدث. لقد تعرفت على والدها بين العجائز وراحت تراقبه بقرف ولكن دون مفاجأة.

ثمة كلب لقيط يعدو فوق أحد المروج تحت شجرة بتولا. ركض أحد العجائز باتجاهه والكلب ينظر إليه باندهاش. رفع العجوز عصاه وحاول وضع حلقة السلك الحديدي أمام رأس الكلب. لكن العصا طويلة واليدين ضعيفتان بسبب الشيخوخة. يخطئ العجوز هدفه. تهتز الحلقة حول رأس الكلب فيراقبها الكلب بفضول.

لكن مُتَقاعِداً آخر ذراعُهُ أقوى، هرع لنجدة العجوز، فوجد الكلبُ نفسَهُ أخيراً أسيرَ الحلقة الحديدية. شدَّ العجوز العصا، فتغلغلت الحلقة إلى الرقبة كثيرة الوبر، وأطلق الكلب نباحاً. قهقه المتقاعدان وجرَّا الكلب فوق المرج حتى الحافلتين المتوقفتين. فتحا باب الشاحنة الكبير الذي خرج منه صخبُ نباح الكلاب؛ وألقيا باللقيط في الشاحنة.

بالنسبة لروزينا، لم يكن كل ماتراه سوى واحد من عناصر قصتها الخاصة: إنها امرأة تعِسة أسيرة عالمين: عالم كليما الذي يرفضها، وعالم فرانتيزيك الذي تريد الهرب منه (عالم الابتذال والملل، عالم الإخفاق والاستسلام) يأتي في طلبها إلى هنا على شكل فرقة الهجوم هذه، كما لو أنه يريد جرَّها في واحدةٍ من تلك الحلقات الحديدية.

في أحد الممرات الرملية، كان صبي في حوالى العاشرة من العمر ينادي يائساً كلبَهُ الذي تاه في دغل. وبدلاً من الكلب هرع إلى جوار الطفل والدُ روزينا مسلَّحاً بعصا طويلة. صمتَ الطفل في الحال. خاف من أن ينادي كلبه لِعلمِهِ بأن العجوز سيأخذه منه.

فاندفع في الممر لكي يهرب، لكن العجوز راح يركض أيضاً. راحا يركضان في وقت واحد. والد روزينا مسلح بعصاه والصبي الصغير الذي ينتحب أثناء ركضه. ثم دار الطفلُ نصف دورةٍ وعاد أدراجه دون أن يتوقف عن الركض. دار والد روزينا هو أيضاً نصف دورة وأخذا يركضان معاً من جديد.

خرج كلبٌ من نوع تيكِل من دغل. مدَّ والدُ روزينا عصاه نحوه، لكن الكلب ابتعد فجأةً وعدا إلى جانب الطفل الذي رفعه عن الأرض وضمَّه إليه. هرع عجائز آخرون لمساندة والد روزينا وانتزاع التيكِل من بين ذراعي الطفل. فأخذ هذا يبكي، يصرخ، ويقاوم، بحيث اضطر العجائز إلى ليِّ ذراعيه وكَمِّ فمه لأن صراخه يلفت فوق الحد أنظار المارة الذين بدأوا يلتفتون لكنهم كانوا يخشون التدخل.

لم تعد روزينا تريد رؤية والدها وصحبَه. ولكن إلى أين تذهب؟ لديها في غرفتها الصغيرة رواية بوليسية لم تُنْهِها ولا تثير اهتمامها، وفي السينما يُعرض فيلم سبق أن شاهدته، وفي بهو ريشموند تلفزيون يعمل بشكل دائم. آثرت التلفزيون. نهضت عن مقعدها، وبين جلبة العجائز التي ظلت تصل إلى أسماعها من كل جانب استعادتِ الوعي بكثافةٍ بما تحمله في أحشائها، وقالت في سرها إنه حملٌ مقدَّس. إنه يُغيِّرها ويضفي عليها نُبلاً. يميزها عن أولئك المجانين الذين يتصيَّدون الكلاب. أخذت تقول لنفسها إنها لاتملك الحق بالتخلّي، لاتملك الحق بالاستسلام، لأنها تحمل في بطنها أملَها الوحيد، بطاقتها الوحيدة للدخول إلى المستقبل.

حين وصلت إلى نهاية الحديقة العامة لمحتْ جاكوب. كان على الرصيف أمام ريشموند، ويراقب مشهد الحديقة العامة. لم تكن قد رأته سوى مرة واحدة أثناء الغداء، لكنها تذكرته. المريضةُ التي هي مؤقّتاً جارتُها والتي كانت تدق على الجدار كل مرة ترفع فيها صوت المذياع قليلاً، كريهة للغاية بالنسبة لها، بحيث باتت تنظر إلى كل ما يعنيها باشمئزاز يقِظ.

لم يكن وجه ذلك الرجل يعجبها. وجدْتهُ ساخراً وروزينا تمقُت السخرية. فكّرتْ دوماً أن السخرية أشبه بخفيرٍ مسلّح يقف عند

مدخل المستقبل، حيث تريد، هي روزينا، الدخول، وأنَّ هذا الخفير يُمعن النظر فيها بعينٍ فاحِصة، ويرفضها بهزةٍ من رأسه. نفخت جذعها وقررت المرور أمام هذا الرجل بكل غطرسة نهديها الاستفزازية، وبكل كبرياء بطنها.

وفجأةً قال هذا الرجل (لم تكن تراقبه إلا بطَرَف عينها) بصوتٍ رقيق وناعم: «إلى هنا... هيَّا معي..».

لم تفهم أولاً لماذا يخاطبها. حَيَّرَتْها الرقةُ في صوته، ولم تعرف بماذا تجيب. لكنها انتبهت لاحقاً وهي تلتفت، بأن كلب بوكسر، بِخطمٍ بشع من وجهة النظر الإنسانية، يتعقَّبها.

جذب صوتُ جاكوب الكلبَ. أمسك به من طَوْقِه: «تعالَ معي، وإلاَّ فليس لديك أية فرصة». رفع الكلبُ نحو جاكوب رأساً واثقاً يتدلَّى منه لسانه مثل رايةٍ طَلِقة.

امتلأت مدةَ ثانيةٍ بمهانةٍ مضحكة، تافهة، إلا أنها أكيدة: لم ينتبِه الرجلُ لِغطرَسَتِها الاستفزازية ولا لكبريائها. ظنت أنه يتكلم معها، وهو يتكلم مع كلب. مرت أمامه وتوقفت عند درج مدخل ريشموند.

خرج عجوزان مسلحان بالعصّي من الحديقة العامة وانقضَّا على جاكوب. راحت تراقب المشهد بِنية عدوانية ولم تستطع منع نفسها من أن تكون في صف العجائز.

قاد جاكوب الكلب من طَوْقه نحو درج مدخل الفندق فصرخ فيه أحد العجائز: «دعْ هذا الكلب حالاً!»

والعجوز الآخر: «باسم القانون!»

تظاهرَ جاكوب بعدم الانتباه للعجائز ومضى في السير، إلا أن عصاً تَدَلَّت ببطء من الخلف على طول جسمه واهتزت الحلقة الحديدية بشكل أخرق فوق رأس الكلب.

أمسك جاكوب بطرف العصا وأبعدها بقوّة.

هرع عجوز ثالث وصرخ: «هذا تَعَدٍّ على النظام العام! سأطلب الشرطة!»

وانطلق صوتٌ حادّ لعجوزٍ آخر يتَّهِم: «كان يركض في الحديقة! يركض فوق منطقة اللعب وهذا ممنوع! كان يبول فوق الرمل المخصص للأطفال! أنت تفضِّل الكلاب على الأطفال».

كانت روزينا تراقب المشهد من أعلى درج المدخل، وأخذ الكبرياءُ الذي لم تكن تشعر به قبل لحظةٍ إلا في بطنها يتدفَّق في كل جسدها ويملؤها بقوة تمردية. كان جاكوب والكلب يقتربان منها فوق الدرج وقالت لجاكوب: «لايحق لك الدخول إلى هنا برفقة كلب».

ردَّ جاكوب بصوت هادئ، لكنها لم تعد تستطيع التراجع. باعدت بين ساقيها مرسَّخةً وقفتها أمام باب ريشموند الواسع، وكررت: «هذا فندق لطلاب الاستشفاء وليس فندقاً للكلاب. الكلاب ممنوعة هنا.

ـ لماذا لا تمسكين عصاً بحلقة، أنت أيضاً يا آنسة؟» قال جاكوب وهو يجتاز الباب مع الكلب.

لمحت روزينا في جملة جاكوب السخريةَ التي طالما وجدَتْها بغيضةً والتي تُعيدها من حيث أتت، حيث لا تريد أن تكون. شوَّشَ الغضبُ نظرَها. أمسكت الكلب من طوقه. كلاهما يمسكان به الآن. جاكوب يسحبه إلى الداخل وهي إلى الخارج.

أمسك جاكوب بروزينا من معصمها وفكَّ أصابعها عن الطوق بعنفٍ جعلها تترنَّح.

«أنت تفضِّل رؤية الكلاب في المهود بدلاً من الأطفال!» صرخت في وجهه.

استدار جاكوب وتقاطعت نظراتهما وقد وحَّد بينهما بغضٌ فجائيٌّ عارٍ.

8

راح كلب الحراسة يعدو في الغرفة بفضول ولم يراوده قطعاً أي شك بأنه نجا للتو من خطر. كان جاكوب مستلقياً على الصوفا،

ويتساءل ما الذي سيفعله به. كان الكلب يعجبه، فهو مرح ومليء بالطيبة. لكن خلوَّ البال الذي تأقلَمَ به، خلال بضع دقائق، مع غرفة مجهولة، والسهولة التي ارتبط بها برباطِ صداقةٍ مع شخصٍ مجهول، كانا شيئاً يكاد يكون مريباً وبدا مُتاخِماً للحماقة. بعد أنْ تَشمَّم كل أركان الغرفة، قفز فوق الصوفا وتمدد بجانب جاكوب. فوجئ جاكوب بهذا، إلا أنه تلقّى بلا تحفُّظ هذا المؤشر على الصُحبة. وضع يده فوق ظهر الكلب وأحسَّ، مستمتِعاً، بحرارة جسد الحيوان. لطالما أحبَّ الكلاب. كانا قريبين، متحابَّين، مخلصين، وفي الوقت نفسه عصيَّيْنِ تماماً على الفهم. لن يكون بالإمكان أبداً معرفة مايجري فعلاً في رأسِ وقلبِ رَسولَيْ الطبيعةِ غيرِ المفهومة، هذين، الواثقَيْنْ والفرِحَينْ.

أخذ يحك ظهر الكلب ويفكر بالمشهد الذي رآه بأم عينه منذ قليل. بالنسبة له لقد اختلط أولئك العجائز المسلّحون بالعصيّ، بحرَّاس السجن، بقضاة التحقيق والمخبرين الذين يترقبون ليعرفوا إذا كان الجار سيتكلم بالسياسة أثناء قيامه بالتسوُّق. ما الذي يدفع هؤلاء الناس للقيام بنشاطهم المشؤوم؟ حب الأذى؟ بالتأكيد، ولكن أيضاً الرغبة بالنظام. لأن الرغبة بالنظام تريد تحويل العالم الإنساني إلى مملكة غير عضوية، كل شيء فيها يسير وفق إرادة لاشخصية، يعمل في ضوئها كل شيء، ويخضع لها كل شيء. الرغبة بالنظام هي في الوقت ذاته رغبة بالموت، لأنّ الحياة خرقٌ دائم للنظام. أو، بالعكس، الرغبة بالنظام هي الحجة الفاضلة التي يبرِّرُ كرْهُ الإنسان للإنسان إساءاته عن طريقها.

ثم فكر بالشابة الشقراء التي أرادت منعه من الدخول إلى ريشموند مع الكلب، وشَعَرَ إزاءها بكرهٍ أليم. لم يكن العجائز المسلحون بالعصي يستفزونه، فهو يعرفهم جيداً ويحسب حسابهم، لم يشك قط بأنهم موجودون ويجب أن يوجَدوا وسيكونون مضطَهِديه على الدوام. أما تلك المرأة فهي هزيمتُهُ الأبدية. كانت جميلة وظهرت على الخشبة ليس كمُضطَهِدة بل كمُتفرِّجةٍ تَماثلتْ لِشدةِ افتتانها بالعرض مع المُضطَهِدين. لطالما استفظَعَ جاكوب فكرةَ أنَّ

الذين يتفرجون سيكونون مستعدين لتثبيت الضحية أثناء إعدامها. لأن الجلاد أصبح مع الوقت شخصيةً قريبة وأليفة، أما المضطَهَد ففيه شيء تفوح منه رائحةُ الأرستقراطية العفِنة. أصبحت روحُ الجمهور التي كانت في السابق تتماثل مع بؤس المضطَهَدين تتماثل اليوم مع بؤس المضطهِدين. لأن مطاردة الإنسان باتت في قرننا تعني مطاردة أصحاب الامتيازات: أولئك الذين يقرؤون كتاباً أو يملكون كلباً.

كان يشعر بجسد الحيوان الحار تحت يده ويقول لنفسه بأن تلك الشابة الشقراء جاءت لكي تعلن له، بحركةٍ خفية، أنه لن يكون محبوباً قط في هذا البلد، وأنها هي، مبعوثة الشعب، ستكون مستعدةً دوماً لتثبيته لكي تقدِّمه إلى الرجال الذين يهددونه بعصيِّهم ذات الحلقة المصنوعة من سلك حديدي. عانق الكلب وضمه إليه. كان يفكر بأنه لايستطيع تركه هنا عرضةً للخطر، وأنَّ عليه أَخْذَهُ معه بعيداً عن هذا البلد، كذكرى للاضطهاد، كأحد الناجين. ثم قال لنفسه بأنه يخفي هنا هذا الكلب المرِح مثل أحد المُبعَدين الهاربين من الشرطة، وبدت له هذه الفكرة مضحكة.

قُرع الباب ودخل الدكتور سكريتا: «أخيراً عدتَ. بحثتُ عنك طيلة بعد الظهر. أين تسكَّعت؟

ـ ذهبتُ لرؤية أولغا، ثم..». أراد أن يحكي حادثة الكلب لكن سكريتا قاطعه:

«كان عليَّ أن أشكَّ حقاً بالأمر. نضيِّع وقتنا هكذا حين يكون لدينا كثير من الأشياء لنناقشها! لقد قلتُ لِ برتليف أنك هنا وتدبرتُ أموري لكي يدعونا كلينا».

في تلك اللحظة قفز الكلب عن الصوفا، اقترب من الدكتور وانتصب على قائمتيه الخلفيتين ووضع قائمتيه الأماميتين فوق صدره. حكَّ سكريتا نقرة الكلب. «حسناً بوب، نعم أنت لطيف... قال دون أن يندهش من شيء.

ـ يُدعى بوب؟

ـ نعم، هذا بوب»، قال سكريتا وشرح بأن الكلب يعود لمالكِ نزلٍ في منطقة الغابات في مكان غير بعيد عن المدينة؛ الجميع يعرفون الكلب لأنه يتجول في كل مكان.

فهم الكلب أن الحديث عنه فَسُرَّ وراح يهز ذيله وأراد أن يلحس وجه سكريتا.

«أنت محلِّلٌ نفسي بارع، قال الدكتور. يجب أن تدرسه لي اليوم، بعمق. لاأعرف كيف أتعامل معه. أخطط لأهداف كبيرة لها علاقة به.

ـ بيع لوحات ورِعة؟

ـ الصور الورعة شيء غبي، قال سكريتا. الموضوع أهم بكثير. أريده أن يتبنَّاني.

ـ أن يتبنَّاك؟

ـ أن يتبنَّاني ابناً له. الأمر حيوي بالنسبة لي. إذا أصبحتُ ابنه بالتبني سأحصل آلياً على الجنسية الأمريكية.

ـ تريد أن تهاجر؟

ـ لا. لقد باشرتُ هنا بتجارب طويلة الأجل ولا أريد إيقافها. يجب أصلاً أن أكلمك عنها اليوم، لأني سأحتاج إليك من أجل هذه التجارب. أما إذا حصلتُ على الجنسية الأمريكية فسأحصل أيضاً على جواز سفر أمريكي وسأتمكن من السفر بحرية في كل أنحاء العالم. بغير ذلك، كما تعرف جيداً، ليس بوسع رجل عادي الخروج من هذا البلد أبداً. ولدي رغبة شديدة بالذهاب إلى إيسلاندة؟

ـ لماذا إلى إيسلاندة بالتحديد؟

ـ إنها أفضل مكان لصيد السلمون»، قال سكريتا. وتابع: «ما يُعقِّد الأمور قليلاً هو أن برتليف ليس كبيراً في السن بما يكفي ليكون أبي. سيحتاج الأمر إلى أن أشرح له أن الأبوة بالتبني حالة قانونية لا شأن لها بالأبوة الطبيعية، وأنه يستطيع نظرياً أن يكون أبي بالتبني حتى لو كان أصغر مني. ربما سيفهم ذلك إلا أنَّ لديه زوجة شابة جداً. إنها إحدى مريضاتي. ستكون هنا بعد غد. أرسلتُ سوزي إلى براغ لاستقبالها عند نزولها من الطائرة.

ـ هل تعلم سوزي بأمر مشروعك؟

ـ طبعاً. لقد ألزمتُها أن تفوز، بأي ثمن، بتعاطف حَماتها المقبلة.

ـ والأمريكي؟ ما قوله في ذلك؟

ـ هذا بالضبط هو أصعب ما في الأمر. هذا الشخص غير قادر أن يفهم بالتلميح. لذا أحتاج إليك. لكي تدرسه وتقول لي كيف أتصرف معه».

نظر سكريتا إلى ساعته وأعلن أنَّ برتليف بانتظارهما.

«ولكن، ماذا نفعل بِـ بوب؟ سأل جاكوب.

ـ كيف أحضرتَهُ إلى هنا؟» قال سكريتا.

شرح جاكوب لصديقه كيف أنقذ حياة الكلب، لكن سكريتا كان غارقاً في أفكاره ويستمع إليه بشرود. حين أنهى جاكوب كلامه، قال:

«صاحبة النزل إحدى مريضاتي. منذ عامين أنجبت طفلاً. إنهم يحبون بوب كثيراً، ويجدر بك إعادته لهم غداً. بانتظار ذلك سنعطيه منوِّماً لكي يدعنا بسلام».

أخرجَ أنبوباً من جيبه وسحب منه حبة دواء. نادى الكلب، فتح له فمه وألقى بالحبة في بلعومه.

«خلال دقيقة سينام نوماً هانئاً»، قال، وخرج من الغرفة مع جاكوب.

9

رحَّب برتليف بزائريه وأجال جاكوب ناظريه عبر الغرفة. ثم اقترب من اللوحة التي تمثل قديساً ملتحياً: «سمعتُ أنك ترسم، قال لِـ برتليف.

ـ نعم، أجاب برتليف، إنه معلّمي القديس إليعازر.

ـ كيف حدث أن جعلتَ له هالةً زرقاء؟ قال جاكوب مُظهِراً مفاجأتَهُ.

ـ أنا سعيد أنك طرحتَ عليَّ هذا السؤال. الناس عادةً ينظرون إلى اللوحة ولايعرفون حتى مايشاهدونه. لقد جعلتُ الهالةَ زرقاء، لأن الهالة، ببساطة، تكون في الحقيقة زرقاء».

عبَّر جاكوب من جديد عن مفاجأته وتابع برتليف: «الناس الذين يحبون الله حباً خاصاً في قوته، يُجازَون لقاء ذلك بفرحٍ قدسيّ ينتشر في كل رأسهم، ويشعُّ منه إلى الخارج. نور هذا الفرحُ الإلهي هادئ وناعم وبِلونِ لازوردِ السماء.

ـ انتظر، قاطعه جاكوب. هل تقصد أنَّ الهالةَ هي أكثر من رمز؟

ـ بالتأكيد، قال برتليف. ولكن لاتتخيل أنها تنبعث بصورة دائمة من رأس القديسين وأنَّ القديسين يمضون عبر العالم مثل فوانيس متنقِّلة. لا، طبعاً. فجبينهم لايبعث نوراً أزرق إلاَّ في لحظات معينة من الفرح الداخلي الحاد. في القرون الأولى التي تلت وفاة يسوع، في عصرٍ كَثُر فيه القديسون، وعَرفهُم كثير من الناس معرفةً حميمية لم يكن لدى أحد أي شك بلون الهالة، وفي جميع لوحات ذلك الزمن وجدارياته تلاحظ أن الهالة زرقاء. واعتباراً من القرن الخامس فقط، بدأ الرسامون شيئاً فشيئاً يصوِّرونها بألوان مختلفة كالبرتقالي مثلاً أو الأصفر. ولاحقاً في الرسم القوطي لم يعد هناك سوى هالات مذهَّبة لأنَّها أكثر تزيينيةً، مما يدلُّ دلالة أفضل على القدرة الدنيويَّة للكنيسة وعلى مجدها. لكن تلك الهالة لم تعد تشبه الهالةَ الحقيقية للكنيسة في العصور البدائية للمسيحية.

ـ هذا شيء كنتُ أجهله»، قال جاكوب وتوجَّهَ برتليف إلى خزانة المشروبات. تناقشَ لحظاتٍ مع الزائرين لكي يعرف الزجاجةَ التي سيختارها. حين صبَّ الكونياك في ثلاث كؤوس التفت نحو الطبيب:

«أرجوك، لاتنسَ ذاك الأب التعِس. يهمُّني الأمر كثيراً!»

أكَّد سكريتا لِ برتليف أنَّ كل شيء سينتهي على مايرام، وسأل

جاكوبُ ما الموضوع. حين أخبراه (فلنتأمل في التكَتُّم الأنيق للرجلين اللذين لم يذكرا أي اسم، حتى أمام جاكوب)، عبَّر عن شفقته الشديدة إزاء الوالد منكود الحظ:

«مَنْ مِنَّا لم يعِش هذه المحنة! إنها إحدى الاختبارات الكبرى في الحياة. وأولئك الذين يستسلمون لها ويصبحون آباء رغماً عنهم محكومون بهزيمتهم إلى الأبد. يصبحون شريرين مثل جميع الخاسرين ويتمنون المصير نفسه للآخرين جميعاً.

ـ ياصديقي! صاح برتليف. إنك تتكلم أمام أب سعيد! إذا بقيتَ هنا يوماً آخر أو يومين سوف ترى ابني، وهو طفل جميل، وستسحب ما قلتَهُ للتو!

ـ لن أسحب شيئاً، قال جاكوب، لأنك لم تصبح أباً رغماً عنك!

ـ لا بالتأكيد. أصبحتُ أباً بملء إرادتي وبفضل الدكتور سكريتا».

وافق الدكتور بهيئة راضية وصرَّح أنَّ له هو أيضاً فكرة أخرى عن الأبوة مختلفة عن فكرة جاكوب، كما تشهد على ذلك أصلاً حالةُ غالِيَتِه سوزي. وأضاف: «الشيء الوحيد الذي يحيِّرُني قليلاً في موضوع الإنجاب هو الاختيار الأخرق للأبوين. أمر لايصدَّق أن يصمم أفرادٌ قبيحون على الإنجاب. إنهم يتصورون حتماً أنَّ عبء القبح يصير أخفَّ ثقلاً إذا تَقاسموه مع خَلَفِهم».

وصفَ برتليف وجهةَ نظر الدكتور سكريتا بأنها تنتمي إلى التمييز العنصري الجَمالي: «لاتنسَ أن سقراط لم يكن وحده قبيحَ الخلقة، بل أنَّ الكثير من العشاق الشهيرين لم يمتازوا قط بكَمال خِلقَتهم. لطالما كان التمييز العنصري الجمالي دلالةً على انعدام الخبرة. أولئك الذين لم يتغلغلوا بعيداً بما فيه الكفاية في عالم ملذَّات الحب لايستطيعون الحكم على النساء إلاَّ من خلال ما يرون. أما الذين يعرفونهن حقَّ المعرفة فإنهم يعلمون أن العين لاتكشف سوى جزء يسير للغاية مما يمكن أن تمنحنا إياه المرأة. دكتور، حين دعا الله البشرية لممارسة الحب والتكاثر فَكَّرَ بالقبيحين مثلما فكَّرَ

بالجَميلين. أنا متيقّن أصلاً مِن أنَّ المعيار الجمالي لا ينبثق من الله بل من الشيطان. في الجنة لا أحد يميّز بين القبح والجمال».

استأنف جاكوب الكلام وأكّد أنَّ الدوافع الجمالية لا تلعب أي دور في الاشمئزاز الذي يشعر به إزاء الإنجاب. «لكنني أستطيع أن أذكر لكم عشرة أسباب أخرى تدعوني كيلا أكون أباً.

ـ تكلم، لديَّ فضول لسماعها، قال برتليف.

ـ أولاً، لا أحب الأمومة، قال جاكوب، وقطع كلامه متأملاً. العصرُ الحديثُ فَضَحَ كلَّ الأساطير. ومنذ زمن طويل كفَّت الطفولةُ عن أن تكون سنَّ البراءة. فقد كشف فرويد الميولَ الجنسية لدى الطفل الرضيع وقال لنا كلَّ شيء عن أوديب. جوكاستا فقط بقيتْ غيرَ قابلةٍ لأنْ تُمَسّ، لا أحد يجرؤ أن ينزع عنها حجابها. الأمومة هي التابو الأخير والأكبر الذي يخفي أخطر لعنة. ليست هناك رابطة أقوى من تلك التي تُقَيِّد الأمَّ إلى طفلها. هذه الرابطة تُشَوِّه روحَ الطفل إلى الأبد، وتَعِدُ للأم، حين يكبر ولدُها، أقسى عذابات الحب. أقول إنَّ الأمومة لعنة وأرفض المساهمةَ فيها.

ـ ثم، قال برتليف.

ـ سبب آخر يجعلني لا أريد أن أزيد عدد الأمهات، قال جاكوب بنوع من الارتباك، هو أني أحب جسد المرأة، ولا أستطيع التفكير دون قرَفٍ بأنَّ نهدَ حبيبتي سيصبح كيس حليب.

ـ ثم، قال برتليف.

ـ سيؤكد لنا الدكتور حتماً بأن الأطباء والممرضات يعاملون النساء اللواتي يدخلن المشافي إثر انقطاعٍ في الحمل، بشكل أقسى من معاملتهم للنساء اللواتي ينجبن المواليدَ، فيُظهِرون لهنّ نوعاً من الاحتقار، ناسِين أنهم سيحتاجون بدورهم بالتأكيد، مرة واحدة في حياتهم على الأقل لمداخلةٍ شبيهة. لكنَّ هذا السلوك بالنسبة لهم فِعلٌ مُنعكِس أقوى من أي تفكير، لأنَّ عبادة الإنجاب من ضرورات الطبيعة. لذا لا فائدة من البحث عن أقلِّ حجة عقلانية في الترويج للإنجاب. وفي رأيك هل الصوت الذي تسمعه في أخلاق الكنيسة

المشجِّعة على إكثار المواليد هو صوت المسيح، أَم أن الصوت الذي تسمعه في دعاية الدولة الشيوعية لصالح الإنجاب هو صوت ماركس؟ إن الإنسانية التي تقودها الرغبةُ الوحيدة في إكثار النوع ستنتهي إلى الاختناق فوق أرضها الصغيرة. لكن الدعوة لإكثار المواليد ماتزال المحرك الذي يسيِّرها، وما يزال الجمهور يذرف دموعِ التأثُّر حين يرى صورة امرأة ترضع مولوداً أو رضيع متغضِّن الوجه. هذا يصيبني بالقرف. حين أفكر أنني قد أنحني، مع ملايين من متحمِّسين آخرين، فوق مهدٍ بابتسامة بلهاء، يسري بردٌ في ظهري.

ـ ثم، قال برتليف.

ـ وبالطبع، عليَّ أيضاً أن أتساءل إلى أي عالمٍ سأرسِلُ طفلي. لن تلبث المدرسة أن تنتزعه مني لكي تحشو جمجمته بمضاداتِ حقائقَ عبثاً حاربتُها أنا نفسي طوال حياتي. هل يجب أنِ أرى ابني يتحول أمام عيني إلى شخصٍ امتثاليٍّ أبله؟ أم عليَّ أن ألقِّنه أفكاري الخاصة وأراه يعاني لأنه سوف ينْجَرُّ إلى النزاعات نفسها التي انجررتُ إليها؟

ـ ثم، قال برتليف.

ـ وبالطبع، يجب أن أفكر بنفسي أيضاً. في هذا البلد يدفع الأطفال ثمن عدم طاعة الآباء، ويدفع الآباءُ ثمن عدم طاعة الأطفال. كم من الفتيان مُنِعوا من الدراسة لأن آباءهم كان مغضوباً عليهم! وكم من الآباء قَبِلوا بشكل نهائي أن يكونوا جبناء لسبب واحد هو عدم إيذاء أبنائهم؟ مَن يريد الاحتفاظ هنا بنوعٍ من الحرية على الأقل، عليه ألاَّ ينجب أطفالاً، قال جاكوب، وصمتَ.

ـ بقيت لك خمسة أسباب أخرى لكي تُكمِل الوصايا العشر، قال برتليف.

ـ السبب الخامس له وزنٌ يجعله بمفرده يعادل خمسة أسباب، قال جاكوب. أن تنجب طفلاً يعني أن تُظهِر وِفاقاً مطلقاً مع الإنسان.

إذا كان لدي طفل فهذا يعني أنني أقول: لقد وُلدتُ، وتذوَّقتُ طعم الحياة، وتحققتُ من أنها جميلة وأنها تستحق أن تُكَرَّر.

- وأنت لا ترى أن الحياة جميلة؟» سأل برتليف.

أراد جاكوب أن يكون دقيقاً وقال بحذر: «لا أعرف سوى شيء واحد هو أني لن أستطيع أن أقول أبداً: إنَّ الإنسان كائن رائع وأريد أن أعيد إنتاجه.

- هذا لأنك لم تعرف من الحياة غير جانب واحد والأسوأ، قال الدكتور سكريتا. لم تعرف قط كيف تعيش. فكرتَ دوماً أن واجبك هو، كما يُقال، أن تشارك في الأمور في مركز الحقيقة. ولكن وما الحقيقة بالنسبة لك؟ إنها السياسة. والسياسة هي أقلُّ ما في الحياة جوهريةً وأقلُّه قيمة. السياسة هي الزبَد الوسِخ فوق سطح النهر، في حين أنَّ حياة النهر تجري في الأعماق. دراسة الخصوبة الأنثوية شيء مستمر منذ آلاف السنين. إنه تاريخ راسخ وأكيد. وسواءٌ تماماً بالنسبة له الحكومة التي تمسك بالسلطة. أنا حين أرتدي قفازاً مطاطياً وأفحص الأعضاء الأنثوية، أكون أقرب بكثير إلى مركز الحياة منك أنت الذي كدتَ تفقد الحياة لأنك انشغلتَ بخير الإنسانية».

وبدلاً من أن يُبدي جاكوب احتجاجاً، أيَّدَ مآخذ صديقه، وحين شعر الدكتور بالتشجيع، تابعَ: «أرخميدس أمام دوائره، مايكل أنجلو أمام كتلته الحجرية، باستور أمام أنابيب اختباره، هؤلاء هم، هم وحدهم الذين غيَّروا حياة الناس والذين صنعوا التاريخ الحقيقي، أما السياسيون..»». توقف سكريتا ورسم بيده حركة احتقار.

«أما السياسيون؟ سأل جاكوب، وتابع: سأقول لك. إذا كانت العلوم والفنون هي بالفعل حلبة التاريخ الحقيقية، فإن السياسة هي على العكس المختَبر العلمي المغلق الذي تُجرى فيه على الإنسان تجارب خارقة. يُلقى فيه بحيوانات تجارب إنسانية عبر فتحات أرضية، ثم يُرفعون إلى خشبة المسرح، مفتونين بالتصفيق ومرعوبين من المقصلة، مفضوحين ومجبَرين على الوشاية.

عملتُ في مركز التجارب هذا كمِخبَري، لكني أيضاً خدمتُ عدة مرات ضحايا التشريح الحي. أعرف أني لم أنتج أيةَ قيمة (لم أكن أسوأ ممن عملوا معي)، لكني دون شك فهمتُ فيه أفضل من كثيرين ماهو الإنسان.

ـ أفهمك، قال برتليف، وأعرف أيضاً مركز التجارب ذاك، مع أني لم أعمل فيه كمِخبَريٍّ أبداً، بل كحيوان تجارب دوماً. كنت في ألمانيا حين اندلعت الحرب. المرأة التي أحببتُها آنذاك هي التي وشت بي للغستابو. جاؤوا إليها وعرضوا عليها صورتي في السرير مع امرأة أخرى. آلمها ذلك، وأنت تعرف أن الحب غالباً ما يأخذ ملامحَ الحقد. دخلتُ السجن بشعورٍ غريب بأن الحب قادني إليه. أليس مدهشاً أن تجد نفسك بين أيدي الغستابو، وأن تعلم أنَّ في ذلك، في حقيقة الأمر، امتيازاً لرجلٍ محبوب أكثر مما يجب؟»

أجاب جاكوب: «إذا كان هناك شيء أثار على الدوام تقزُّزي على نحو عميق لدى الإنسانِ فهو رؤية الكيفية التي تُفلِح بها فظاظتُهُ، سفالتُهُ وغباؤهُ في التَّقَنُّع بقِناعِ الشاعرية الغِنائية. أرسلتْكَ إلى الموت وعاشت التجربةَ كمأثرةٍ عاطفيةٍ لحبٍّ جريح. وأنتَ صعدتَ إلى المقصلة بسبب امرأة محدودة الأفق، بشعورِ شخصٍ يلعب دوراً في مأساة كتبها له شكسبير.

ـ بعد الحرب، أتت إليَّ باكيةً، تابع برتليف، كما لو أنه لم يسمع اعتراضات جاكوب. قلتُ لها: «لاتخافي، برتليف لاينتقم أبداً».

ـ أتَعلَم، قال جاكوب، غالباً ما أفكر بهيرودت. أنت تعرف القصة. يُحكى أنَّ هيرودت؛ إذ علمَ بمولد ملك اليهود القادم عمل على قتل جميع المواليد الجدد خشيةَ فقدان عرشه. أنا شخصياً أتخيل هيرودت بطريقة أخرى، مُدرِكاً في الوقت ذاته أنَّ هذا ليس سوى لعبة للمخيلة. كان هيرودت، حسب رأيي، ملكاً متعلماً، حكيماً وكريماً جداً، عملَ وقتاً طويلاً في مختبر السياسة، وتعلَّم كيف يعرف الحياة والناس. فهمَ أنَّ الإنسانَ ما كان يجب أن يُخلَق. أساساً لم تكن شكوكه في غير محلِّها كثيراً أو مُلامَةً. إذا لم أخطئ فإن الرب أيضاً شكَّ بالإنسان وفكَّر بتدمير هذا القسم من خَلْقِه.

- نعم، وافق برتليف، كُتب هذا في الإصحاح السادس من سفر التكوين: *أمحو عن وجه الأرض الإنسانَ الذي خلقتُهُ، لأني حزنتُ أني عَمِلتُه*.

- وربما ليست سوى لحظة ضعف من الرب أنه سمح لنوح باللجوء إلى سفينته لكي يبدأ تاريخ البشرية من جديد. هل نستطيع أن نكون على يقين من أنَّ الله لم يندمِ أبداً على هذا الضعف؟ غير أنه سواء ندِمَ أم لا، فلم يعد بالإمكان فِعْلُ شيء. لايمكن أن يجعل اللهُ من نفسه أضحوكةً بتغيير قراره باستمرار. ولكن، ماذا لو كان هو مَنْ أدخل هذه الفكرة في رأس هيرودت؟ هل هذا مستَبْعَد؟»

رفعَ برتليف كتفيه ولم يقل شيئاً.

«هيرودت ملك. لم يكن مسؤولاً عن نفسه فقط. لم يكنْ باستطاعته أن يقول مثلي: فليفعل الآخرون مايشاؤون، أنا أرفض الإنجاب. هيرودت ملك ويعرف أنه لم يكن عليه أن يقرر باسمه فقط، بل باسم الآخرين أيضاً، وقرر باسم الإنسانية كلها بأنَّ الإنسان لن ينجب ثانيةً. هكذا بدأت مذبحةُ المواليد الجدد. لم تكن دوافعه تتصف بالخساسة التي تنسبها له التقاليد. كان دافعُ هيرودت هو الرغبة الأنبَلُ بتخليص العالم من براثن الإنسان.

- يعجبني تأويلكَ لِـ هيرودت كثيراً، قال برتليف. إنه يعجبني إلى درجة أنني اعتباراً من اليوم سأفسر مذابحَ الأبرياء، على طريقتك. ولكن لاتنسَ أنه في اللحظة التي قرر فيها هيرودت أن الإنسانية ستكف عن الوجود، وُلِد في بيت لحم صبي أفلتَ من سكّينِهِ. وكبر هذا الطفل وقال للناس بأنه يكفي شيء واحد لكي تستحق الحياة عناءَ أن تُعاش: أن يحب الناس بعضهم بعضاً. كانَ هيرودت بلا شك أكثر تعلماً وأكثر خبرة، وكان يسوع بالتأكيد غِرًّا ولا يعرف الكثير عن الحياة، وكل تعاليمه لاتُفَسَّر إلا من خلال حداثة سنه وقلة خبرته، وإذا أردتَ سذاجته. ومع ذلك فقد كان يملك الحقيقة.

- الحقيقة؟ من الذي برهن على هذه الحقيقة؟ سأل جاكوب بقوة.

ـ لا أحد، قال برتليف. لم ولن يبرهن عليها أحد. كان يسوع يحب أباه حباً لايمكنه معه الافتراض بأنَّ خَلْقَهُ سيء. توصل إلى هذه النتيجة بالحب وليس بالعقل. لذا فلا شيء يستطيع أن يبتَّ في النزاع بينه وبين هيرودت سوى القلب. أن تكون إنساناً هل هذا أمرٌ يستحق العناء، نعم أم لا؟ ليس لدي أي برهان على ذلك، أما مع المسيح فأعتقد أن الجواب هو نعم». قال قوله والتفت مبتسماً نحو الدكتور سكريتا: «لهذا السبب أرسلتُ زوجتي إلى هنا للعلاج بإدارة الدكتور سكريتا الذي هو بنظري أحد تلامذة المسيح القديسين، فهو يستطيع تحقيق معجزات وإعادة الحياة لأحشاء النساء النائمة. أرفع كأسي في صحته!»

10

لطالما عاملَ جاكوب أولغا بجدٍّ أبويّ، وكان يحب أن يصف نفسه، على سبيل اللهو، بِـ «السيد العجوز». لكنها مع ذلك كانت تعرف أن هناك نساء كثيرات يتصرف معهن بشكل مغاير تماماً، وهو ما تحسدهن عليه. أما اليوم، وللمرة الأولى، فقد فكرت أنَّ ثمة جانب عجوز لدى جاكوب. ففي شكل سلوكه معها أخذت تشْتَمُّ الرائحة العفِنة التي يشعر الإنسان الشاب أنها تنبعث من الجيل الأكبر منه.

يُعرَف العجائز من عادةِ التفاخُر بالعذابات التي ألمَّت بهم في الماضي، ومن كونهم يصنعون لها متحفاً يدعون إليه الزوار (على فكرة، تلك المتاحف التعِسة قلَّما تُزار!). كانت أولغا تدرك أنها المادة الرئيسية الحيّة لمتحف جاكوب وأنَّ سلوك جاكوب الكريم في غيريَّتِهِ إزاءها يرمي إلى استدرار دموع الزوار.

اكتشفت اليوم أيضاً أثمنَ مادةٍ غير حية في هذا المتحف: القرص الأزرق الشاحب. منذ قليل، حين فتح أمامها الورقة التي صرَّ بها القرص، فوجئت لكونها لم تشعر بأي تأثر. ومع إدراكها بأن جاكوب فكَّرَ بالانتحار في أوقات صعبة، وجدت الاحتفاليةَ التي

أطلعها بها على ذلك مضحكةً. وجدت ذلك القدر من الحذر الذي فتح به ورقة الحرير، كما لو أن الأمر يتعلق بألماسة، مضحكاً. ولم تكن تفهم لماذا يريد إعادة السم للدكتور سكريتا يوم رحيله، في حين راح يؤكد أن على كل إنسان راشد أن يكون سيد موته في كل الظروف. إذا حدث وأصيب بسرطانٍ في الخارج، ألن يحتاج للسم؟ ولكن لا، لم يكن القرص بالنسبة لجاكوب مجرد سم، بل كان من المكمِّلات الرمزية التي يريد الآن إعادتها للكاهن الكبير أثناء صلاة مقدسة. في هذا مايثير الضحك.

خرجت من الحمامات ومضت باتجاه ريشموند. رغم كل تأملاتها المتحررة من الأوهام كانت سعيدة برؤية جاكوب. كان لديها رغبة كبيرة بإزالة القداسة عن متحفه، وبألا تعود فيه مادةً، بل امرأة. لذا خاب أملها قليلاً حين وجدت على بابه رسالة يطلب منها فيها موافاته إلى غرفة مجاورة ينتظرها فيها مع برتليف وسكريتا. إن فكرةُ تَواجُدِها برفقة أشخاص آخرين تُفقِدُها الشجاعة، لاسيما أنها لاتعرف برتليف وأن الدكتور سكريتا يعاملها كشخص عادي مع عدم اكتراثٍ لطيف إلا أنه واضح.

سرعان ما أنساها برتليف خجلها. قدم نفسه بانحناءة عميقة ولامَ الدكتور سكريتا لأنه لم يعرّفه على امرأة مثيرة للاهتمام بهذا الشكل.

أجاب سكريتا بأن جاكوب كلَّفَهُ بالسهر على الشابة، وأنه امتنع عمداً عن تقديمها إلى برتليف، لعلمِه أنه ليس هناك امرأة تصمد أمامه.

استقبل برتليف هذا العذر برضىً ضاحك. ثم رفع السماعة وطلب المطعم لكي يوصي على العشاء.

«أمر لا يصدق، قال الدكتور سكريتا، إلى أية درجة يُتقِن صديقُنا العيشِ ببحبوحةٍ في هذا الجحر الذي ليس فيه مطعم يقدم عشاءً مضبوطاً».

بحث برتليف في علبة سيجار مفتوحة وُضعت قرب الهاتف

ومليئة بقطع فضية من ذات النصف دولار: «البخل خطيئة..». قال وهو يبتسم.

قال جاكوب إنه لم يلتق أبداً بشخص يؤمن بالله بهذا القدر من الورع ويعرف إلى هذه الدرجة كيف يستمتع بالحياة.

«هذا يعود حتماً لكونك لم تلتق بمسيحيٍّ حقيقي. فكلمة إنجيل تعني، كما تعرفون، رسالة في الفرح. الاستمتاع بالحياة هي الوصية الأهم للمسيح».

رأت أولغا أن تلك مناسبة للتدخل في الحديث: «بقدر مايمكنني الثقة بما كان يقوله أساتذتنا فإنَّ المسيحيين لايرون في الحياة على الأرض أكثر من وادٍ للدموع ويغتبطون بفكرة أنَّ الحياة الحقيقية بالنسبة لهم تبدأ بعد موتهم.

ـ أيتها الآنسة العزيزة، قال برتليف، لاتصدّقي الأساتذة.

ـ وجميع القديسين، تابعت أولغا، لم يفعلوا شيئاً أبداً سوى الزهد بالحياة. لقد ساطوا أنفسَهم بدلاً من أن يمارسوا الحب، وانسحبوا إلى الصوامع بدلاً من أن يناقشوا مثلكم ومثلي، ومضغوا جذور النباتات بدلاً من أن يطلبوا عشاءهم بالهاتف.

ـ أنت لاتعرفين شيئاً عن القديسين، يا آنستي. لقد ارتبط هؤلاء الناس ارتباطاً لاحدَّ له بملذات الحياة. الفرق أنهم كانوا ينالونها بوسائل أخرى. برأيك، ماهي المتعة القصوى للإنسان؟ يمكنك أن تُخمِّني لكنك ستخطئين، لأنك لستِ صادقة كفايةً. هذا ليس لوماً لأن الصدق يتطلب معرفة النفس، ومعرفة النفس هي ثمرة سنيّ العمر. وكيف تستطيع شابةٌ تشعُّ مثلك بالشباب، أن تكون صادقة؟ إنها لاتستطيع أن تكون صادقة لأنها لاتعرف حتى ما بداخلها. أما إذا عرفت، فعليها أن تقرَّ معي أنَّ أقصى متعة للإنسان هي أن يكون موضع إعجاب. ألستِ من هذا الرأي؟»

أجابت أولغا أنها تعرف مُتعاً أكبر.

«لا، قال برتليف. خذي مثلاً عدّاءكُم الذي يعرفه جميع الأطفال لأنه أحرز ثلاثة انتصارات أولمبية متلاحِقة. أتعتقدين أنه زَهِدَ

بالحياة، مع أنه كان عليه بالتأكيد أن يمضي وقته في دوران متواصل على أرض ملعب، بدلاً من أن يتحدَّث ويمارس الحب ويُقبل على الطعام؟ تدريبه يشبه كثيراً ما فَعَلَهُ أشهَرُ قدِّيسينا. عندما كان قديس الاسكندرية ماكير في الصحراء راح يوماً بعد يوم وبانتظام يملأ سلةً بالرمل، يضعها فوق ظهره ويجول بها مساحاتٍ لا تنتهي حتى الإنهاك التام. ولكن، بالنسبة لعَدَّائكم كما بالنسبة لقديس الاسكندرية ماكير كانت هناك جائزة كبرى تُعَوِّضهما بسخاء عن كل جهودهما. هل تعرفين مامعنى سَماع تصفيقٍ من ملعب أولمبي هائل؟ ليست هناك متعة أكبر! كان قديس الاسكندرية ماكير يعرف لماذا يحمل سلة رمل فوق ظهره. لم تلبث عظَمَةُ مسيراته الماراتونيَّة في الصحراء أن انتشرت في المسيحية كلها. وقديس الاسكندرية ماكير مثل عدَّائكم. عدَّاؤكم أيضاً ربحَ أولاً في سباق الخمسة آلاف متر، ثم في العشرة آلاف وفي النهاية لم يكفِهِ ذلك ففاز في سباق الماراتون أيضاً. الرغبة بأن تكون محَطَّ إعجاب غير قابلة للإشباع.
ذهب القديس ماكير إلى دير في طيبة دون أن يعرِّف عن نفسه، وطلب أن يُقبَل فيه عضواً. أما عندما حان وقت الصوم الكبير فقد كانت تلك ساعة مجدِهِ. صامَ جميعُ الرهبان جالسين، أما هو فبقي واقفاً طيلة أيام الصوم الأربعين! كان ذلك نصراً ليست لديك فكرة عنه! أو، تَذَكَّري القديس سمعان العمودي! بنى في الصحراء عموداً، ليس في قمته سوى سطح ضيق لايمكن الجلوس عليه، وعلى المرء أن يبقى واقفاً عليه. وبقي واقفاً كل حياته. راح العالَمُ المسيحي قاطبةً، يتأمل بحماس، ذلك الرقم القياسي الخارق لرجلٍ فاقَ حدود الطاقة الإنسانية. كان القديس سمعان العمودي غاغارينَ القرنِ الخامس. هل تستطيعين تخيُّلَ السعادة التي شعرتْ بها جانفييف قدِّيسةُ باريس، في اليوم الذي أخبرَتْها فيه بعثةٌ تجارية غاليَّة بأنَّ القديس سمعان العمودي سمع عنها وأنه يباركها من فوق عموده؟ ولماذا سعى باعتقادك إلى تحطيم رقم قياسي؟ ربما لأنه لا يكترث بالحياة ولا بالناس؟ لا تكوني ساذجة! آباء الكنيسة يعرفون جيداً أن القديس سمعان العمودي كان مغروراً، فوضعوه تحت الاختبار. ثم أمروه، باسم السلطة الروحية، بالنزول عن عموده والتخلي عن

المباراة. وكانت تلك محنة قاسية للقديس سمعان! لكنه أطاع، إما من قبيل الحكمة أو الحيلة. لم يكن آباء الكنيسة مُعادين لأرقامه القياسية، لكنهم أرادوا التأكد من أن غرور القديس سمعان لايفوق إحساسَهُ بالنظام. حين رأوه ينزل بحزنٍ عن رأس عموده أمروه حالاً بالصعود ثانيةً، بحيث أمكَنَ للقديس سمعان أن يموت فوق عموده محاطاً بحبِّ العالم وإعجابه».

كانت أولغا تصغي بانتباه، وحين سمعت كلمات برتليف الأخيرة راحت تضحك.

«ليس في هذه الرغبة بنيل الإعجاب شيء مضحك، أجدها بالأحرى مؤثِّرةً، قال برتليف. ذلك الشخص الذي يرغب بإثارة الإعجاب مرتبطٌ بأشباهه، إنه متمسك بهم، لايستطيع العيش من دونهم. القديس سمعان العمودي وحيد في الصحراء فوق متر مربع من قمة عمود. ومع ذلك فهو مع جميع الناس يتخيَّل ملايين الأنظار ترنو إليه. إنه حاضر في ملايين من الأفكار ويبهجه ذلك. هذا مثال كبير على حب الإنسان وحب الحياة. لن تعرفي يا آنستي العزيزة إلى أي حد مازال سمعانُ العمودي يعيش في كلِّ منا. واليوم أيضاً مايزال القطبَ الأفضلَ في كياننا».

قُرِع الباب ودخل الغرفة نادل دافعاً أمامه عربة محمَّلة بالطعام. مدَّ مفرشاً فوق الطاولة ووضع الأدوات. بحث برتليف في علبة السيجار، ودسَّ في جيب النادل حفنةً من القطع النقدية. ثم بدؤوا بتناول الطعام، وكان النادل واقفاً خلف الطاولة يصب النبيذ ويسكب ألوان الطعام المختلفة في الأطباق.

كان برتليف يعلِّق بنهم على مذاق كل لون، وأشار سكريتا إلى أنه لايعرف منذ كم من الوقت لم يتناول وجبة جيدة بهذا الشكل. «ربما في آخر مرة طهتْ لي فيها أمي الطعام، لكني كنتُ صغيراً. تَيتَّمْتُ منذ الخامسة من عمري. كان العالم المحيط بي عالماً غريباً، وطعامه أيضاً بدا لي غريباً. حب الطعام يولد من حب القريب.

ـ هذا صحيح تماماً، قال برتليف، وهو يحمل إلى فمه لقمةً من لحم البقر.

ـ الطفل المهجور يفقد الشهية. صدقوني، حتى هذا اليوم يؤلمني أن أكون دون أب أو أم. صدقوني، حتى هذا اليوم، مهما كنتُ عجوزاً، أعطي أي شيء لقاء أن يكون لي أب.

ـ إنك تبالغ في تقدير العلاقات الأسرية، قال برتليف. الناس كلهم أقرباؤك. لاتنسَ ما قاله يسوع حين أرادوا تذكيره بأمه وأخوته. أشار إلى حوارييه وقال: أمي وأخوتي موجودون هنا.

ـ مع ذلك، لم تكن لدى الكنيسة المقدسة، حاول الدكتور سكريتا أن يجيب، أية رغبة بإلغاء العائلة أو استبدالها بالمجتمع الحر الذي يضم الجميع.

ـ هناك فرق بين الكنيسة المقدسة ويسوع. والقديس بول، إذا سمحتَ لي بقول هذا، هو في نظري استمرار ليسوع لكنه أيضاً مزوِّر له. هناك أولاً ذاك الانتقال الفجائي من شاؤول إلى بول! كما لو أننا لم نعرف ما يكفي من أولئك المتحمِّسين المتعصبين الذين يقايضون عقيدةً بأخرى بين ليلةٍ وضحاها؟ ولا أريد أن يقول لي أحد بأن المتعصبين يُسَيِّرُهُم الحب! إنهم دُعاة أخلاق يُتمتِمون بوصاياهم العشر. لكن يسوع لم يكن داعية أخلاق. تذكروا ما قاله حين انتُقِد لعدم احتفاله بالسبت. السبت للإنسان والإنسان ليس للسبت. كان يسوع يحب النساء! وهل يمكنكم تَخيُّل القديس بول بملامح عاشق؟ لو عاد الأمر للقديس بول لأدانني لأنني أحب النساء. أما يسوع فلن يفعل. لا أرى سوءاً في كوني أحب النساء وكثيراً من النساء، وفي كوني محبوباً من النساء، كثير من النساء». راح برتليف يبتسم، وتنمُّ ابتسامته عن ابتهاج كبير بالنفس: «أصدقائي لم أعِش حياة سهلة، وقد واجهتُ الموتَ أكثر من مرة. لكن هناك شيئاً كان الله بسببه كريماً معي. لقد عرفتُ كثرةً من النساء وأحببنني».

أنهى المدعوون وجبتهم وبدأ النادل بإخلاء الطاولة حين طُرق الباب ثانيةً، طرقات ضعيفة وخجولة بدا كأنها تستجدي التشجيع. «تفضَّل!» قال برتليف.

فُتِح الباب ودخلت طفلة. كانت طفلةً في الخامسة ربما، ترتدي ثوباً أبيض مُكَشْكَشاً، أحيط وسطه بشريط أبيض عريض معلَّق على الظهر بعقدة كبيرة تشبه أطرافُها الأجنحة. تمسك بيدها ساق زهرة: زهرة دهليَّة كبيرة. وحين رأت في الغرفة هذا العدد الكبير من الناس الذين بدوا جميعاً مذهولين ويوجهون أنظارهم نحوها توقفت ولم تجرؤ أن تمضي أبعد من ذلك.

لكن برتليف نهض، أضاء وجهه وقال: «لا تخافي أيها الملاك الصغير، تعالي».

وإذ رأت الطفلة ابتسامة برتليف، كما لو أنها استمدَّت الدعم منها، ضحكت مقهقهة وركضت نحو برتليف الذي أخذ منها الوردة وقبَّلها على جبينها.

أخذ الضيوف جميعاً وكذلك النادل يراقبون المشهد متفاجئين. بدت الطفلة ذات العقدة الكبيرة البيضاء على ظهرها، تشبه ملاكاً صغيراً حقاً. كان برتليف الذي يميل في وقفته إلى الأمام، والدهلية في يده، يذكِّر بتماثيل القديسين الباروكية التي نراها في ساحات المدن الصغيرة.

«أصدقائي الأعزاء، قال وهو يلتفت نحو مدعويه، لقد أمضيتُ معكم وقتاً ممتعاً جداً، وأتمنى أن يكون هذا شأنكم أنتم أيضاً. بودي أن أبقى معكم حتى ساعة متأخرة من الليل، لكني لا أستطيع كما ترون. هذا الملاك الجميل جاء في طلبي للقاء إنسانة تنتظرني. كما قلت لكم بأني تلقيت من الحياة ضربات مختلفة الأشكال، لكن النساء أحببنني».

كان برتليف يمسك إلى صدره وردة الدهلية بإحدى يديه، وباليد الأخرى يلمس كتف الطفلة. وجَّهَ تحيةً إلى جماعة مدعويه الصغيرة. وجدَتْهُ أولغا استعراضياً بشكل مثير للضحك، وابتهجت لذهابه ولِتَواجُدِها أخيراً بمفردها مع جاكوب.

دار برتليف نصف دورة واتجه نحو الباب وهو يعطي يده للبنت الصغيرة. قبل أن يخرج انحنى فوق علبة السيجار ووضع في جيبه حفنة وافرة من قطع النقود.

11

رتب النادل الصحون الوسخة والزجاجات الفارغة فوق العربة، وحين خرج من الغرفة سألت أولغا:

«من تكون هذه البنت الصغيرة؟

ـ لم أرها سابقاً أبداً، قال سكريتا.

ـ بدت فعلاً مثل ملاك صغير، قال جاكوب.

ـ ملاك يمدُّهُ بالعشيقات؟ قالت أولغا.

ـ نعم، قال جاكوب. ملاك قَوَّاد ووسيط. هكذا حقاً أتصور ملاكَهُ الحارس.

ـ لا أعرف إذا كان ذاك ملاكاً، قال سكريتا، لكن الغريب هو أنني لم أر هذه البنت الصغيرة قط، مع أني أعرف تقريباً كل الناس هنا.

ـ في هذه الحالة لا أجد سوى تفسير واحد، قال جاكوب. ليست من هذا العالم.

ـ سواء كانت ملاكاً أو ابنة إحدى خادمات الغرف أستطيع أن أؤكد لكم أمراً، قالت أولغا، أنه لم يذهب للقاء امرأة! هذا الشخص مغرور بشكل مخيف ولا يفعل شيئاً سوى التفاخر.

ـ أجده محبباً، قال جاكوب.

ـ ممكن، قالت أولغا، لكني أصر على الاعتقاد بأنه أكثر الأشخاص غروراً قاطبةً. أراهنكم بأنه قبل وصولنا بساعة أعطى حفنةً من قطع نقدية من ذات الخمسة آلاف لهذه البنت الصغيرة وطلب

منها المجيء إليه ومعها وردة في الساعة المتفق عليها. لدى المؤمنين حس حاد بالإخراج المسرحي للمعجزات.

ـ آمُلُ بقوةٍ أنٍ تكوني على حق، قال الدكتور سكريتا. السيد برتليف مريض جداً في الحقيقة وقد تُعَرِّضُهُ ليلةُ حب لخطرٍ كبير.

ـ أنت ترى جيداً أني على حق. كل تلك التلميحات إلى النساء ليست أكثر من تَشَدُّق.

ـ آنستي العزيزة، قال الدكتور سكريتا، أنا طبيبه وصديقه ومع ذلك فلستُ متأكداً من ذلك إلى هذا الحد. يراودني السؤال.

ـ هل هو مريض إلى هذه الدرجة حقاً؟ سأل جاكوب.

ـ ولماذا تظن أنه يقيم هنا منذ ما يقرب العام، وأن زوجته الشابة، وهو شديد التعلق بها، لا تأتي إليه إلا من وقت لآخر؟

ـ وفجأةً غدا الجو كئيباً بعض الشيء من دونه»، قال جاكوب.

كان هذا صحيحاً، فقد انتاب الأشخاصَ الثلاثة فجأةً شعور بالخذلان، ولم يرغبوا بالبقاء وقتاً أطول في هذه الغرفة التي ليست لهم.

نهض سكريتا عن كرسيه: «سنعيد الآنسة أولغا إلى غرفتها ثم نقوم بجولة. لدينا أشياء كثيرة نناقشها».

احتجت أولغا: «لا أريد أن أرقد منذ الآن!

ـ بالعكس، لقد حان الوقت جداً لذلك. آمرك بذلك كطبيب»، قال سكريتا بقسوة.

خرجوا من ريشموند ودخلوا الحديقة العامة. أثناء الطريق وجدت أولغا الفرصة لتقول لجاكوب بصوت هامس: «كنتُ أريد قضاء السهرة معك...».

لكن جاكوب اكتفى برفع كتفيه، لأن سكريتا فرضَ إرادته بحزم. أوصلا الشابة إلى مجمع كارل ماركس، ولم يقُم جاكوب، أمام صديقه، حتى بمسح شعرها مثلما اعتاد أن يفعل، فقد كان نُفورُ الدكتور من النهدين الشبيهين بخوختين لا يشجعه على ذلك. قرأ الخيبةَ على وجه أولغا، وكان مُجبراً على إيلامِها.

«إذن، ما رأيك؟ سأل سكريتا حين أصبح وحده مع صديقه في ممر الحديقة العامة. سمعتَني حين قلتُ أنني بحاجة لأب. حتى الحجر كان سيشفق علي. بينما هو راح يتكلم عن القديس بول! هل هو عاجز حقاً عن الفهم؟ منذ عامين وأنا أشرح له أني يتيم، منذ عامين وأنا أمتدح له مزايا جواز السفر الأمريكي. لمحتُ له، مروراً، آلاف التلميحات إلى حالات مختلفة من التبنِّي. ووفق حساباتي، فإنه كان يجب أن توحي له جميع هذه التلميحات، منذ زمن طويل، بفكرة أن يتبنَّاني.

ـ إنه مفتون بنفسه أكثر مما يجب، قال جاكوب.

ـ هو كذلك، قال سكريتا مؤيداً.

ـ إذا كان مريضاً جداً فليس الأمر مفاجئاً، قال جاكوب. هل وضعه سيء حقاً إلى الدرجة التي تقولها؟

ـ وأكثر، قال سكريتا. منذ ستة أشهر، أصابته جلطة جديدة خطيرة جداً، ومنذ ذلك الوقت مُنِع من السفر الطويل وهو يعيش هنا مثل سجين. حياته معلَّقة بخيط. وهو يعرف ذلك.

ـ أرأيت، قال جاكوب، في هذه الحالة كان عليك منذ زمن طويل أن تفهم بأنَّ طريقة التلميحات غير صحيحة، لأن أيّ تلميح لا يثير لديه سوى رد فعل حول نفسه. كان عليك أن تقدِّم له طلبك بلا مواربة. وكان سيوافق عليه بالتأكيد، لأنه يحب إرضاء الآخرين. وهذا ينسجم مع فكرته عن نفسه. إنه يريد إرضاء أشباهه.

ـ أنت عبقري! صاح سكريتا، إنَّ هذا في غاية البساطة، هكذا هو الأمر بالضبط! ومن شدة حماقتي ضيَّعتُ عامين من حياتي لأنني لم أعرف كيف أفك رموزه! أمضيتُ عامين من حياتي في مواربات بلا طائل! والخطأ خطؤك، لأنه كان عليك أن تنصحني منذ زمن طويل.

ـ وأنت! كان عليك أن تطرح علي السؤال منذ زمن طويل!

ـ لم تزرني منذ عامين!»

راح الصديقان يسيران في الحديقة التي خيمت عليها الظلمة، ويتنفسان الهواء البارد لخريفٍ في أوّله.

«الآن وقد جعلتُهُ أبي، ربما أستحقُّ أن يجعلني ابنَهُ!» قال سكريتا.

وافق جاكوب.

«المصيبة، تابع سكريتا بعد صمت طويل، هي أننا محاطون بالأغبياء. هل يوجد في هذه المدينة شخص أستطيع أن أطلب نصيحته؟ ومهما ولد الإنسان بقليل من الذكاء فإنه يجد نفسَهُ دفعةً واحدة في عزلة مطلقة. إني لا أفكر بشيء آخر، لأن هذا هو اختصاصي: تنتج الإنسانية كماً لا يُصدَّق من الأغبياء. كلما زاد غباءُ الشخص زادت رغبتُهُ في الإنجاب. الأشخاص الكاملون ينجبون طفلاً واحداً على الأكثر، والأشخاص الأفضل، مثلك، يقررون عدم الإنجاب نهائياً. إنها كارثة. إنني أمضي وقتي وأنا أحلم بعالمٍ لا يولد فيه الإنسانُ بين غرباء، وإنما بين أخوته».

راح جاكوب يستمع إلى كلام سكريتا ولا يجد فيه شيئاً كبير الأهمية. تابع سكريتا:

«لا تعتقد أن الموضوع مجرد كلام! لستُ سياسياً بل طبيباً ولكلمة أخ معنى محدد بالنسبة لي. يكون الناسُ أخوة عندما يكون لهم على الأقل أم مشتركة أو أب مشترك. جميع أبناء سليمان أخوة رغم أنهم ولدوا من مئة أم مختلفة. لابد أن الأمر كان رائعاً! ما رأيك أنت؟»

كان جاكوب يستنشق الهواء الندي ولا يجد شيئاً يقوله.

«يصعب جداً بالطبع، استأنف سكريتا، إجبار الناس على الاتحاد جنسياً من أجل خير الأجيال القادمة. لكن ليست هذه هي المسألة. لابد على الأقل أن توجد في عصرنا وسائل أخرى لحل مشكلة الإنجاب العقلاني للأطفال. ليس بوسعنا أن نخلط إلى الأبد بين الحب والإنجاب».

وافق جاكوب على هذه الفكرة.

«لكن الشيء الوحيد الذي يهمُّكَ أنت، هو تخليص الحب من الإنجاب، قال سكريتا. المسألة بالنسبة لي هي بالأحرى تخليص الإنجاب من الحب. أردت أن أُطلِعك على مشروعي. الشيء الموجود في أنبوب الاختبار هو سائلي المنوي».

هذه المرة تيقَّظ انتباهُ جاكوب.

«ما قولك؟

ـ أرى أن هذه فكرة مدهشة! قال جاكوب.

ـ خارقة! قال سكريتا. بهذه الطريقة شفيتُ عدداً لابأس به من النساء من عُقمِهنّ. لاتنسَ أنه إذا كانت نساء كثيرات لايستطعن إنجاب الأطفال، فليس لهذا سبب سوى عُقم الزوج. لدي الكثير من الزبائن في كل أنحاء البلد، ومنذ أربع سنين أصبحتُ المسؤول عن الفحوص النسائية في مستوصف المدينة. إنك تفعل شيئاً زهيداً حين تُقَرِّب إبرة ضِخٍّ من أنبوب الاختبار، ثم تُلَقِّح المرأة التي تفحصها بالسائل المخصِب.

ـ وكم من الأبناء لديك؟

ـ أقوم بهذا العمل منذ عدة سنين، لكن حساباتي تقريبية جداً. لا أستطيع التأكد دوماً من أبوَّتي، لأنَّ مريضاتي، إذا أمكَنني القول، يَخُنَّني مع أزواجهنّ. وأيضاً يعدن إلى بيوتهن، ويحدُث ألاَّ أعرف قط إذا كان العلاج قد نجح. الأشياء أكثر وضوحاً مع المريضات من هذا المكان».

صمتَ سكريتا واستسلم جاكوب لأحلام يقظة ناعمة. لقد فتَنَهُ مشروع سكريتا وكان متأثراً، لأنه عرف فيه صديقَهُ القديم والحالمَ غير القابل للإصلاح: «لا بُدَّ أنَّه شيء حسن جداً أن يكون للإنسان أطفال من هذا القدر من النساء... قال.

ـ وجميعهم أخوة»، أضاف سكريتا.

أخذا يسيران، يستنشقان الهواء العطِر ويصمتان. استأنف سكريتا الكلام:

«أتعرف، كثيراً ما أقول لنفسي إنه رغم وجود أشياء كثيرة لا تعجبنا هنا نحن مسؤولون عن هذا البلد. كوني لا أتمكن من السفر إلى الخارج بحرية، يسبب لي الحنق، لكني لن أستطيع أبداً أن ألجأ إلى النميمة والافتراء بحق بلدي. عليّ أن أفعل ذلك بحق نفسي أولاً. ومن منا فعلَ شيئاً قط لكي يكون هذا البلد أفضل؟ من منا فعل شيئاً قط لكي نصير قادرين على العيش فيه؟ لكي يصير بلداً يمكننا أن نشعر فيه أننا في بلدنا؟ لاشيء سوى أن نشعر أننا في بلدنا...». خفض سكريتا صوته وراح يتكلم بحنان: «أن يشعر المرء أنه في بلده يعني أن يشعر أنه بين ذويه. وبما أنك قلتَ بأنك مسافر، فقد فكرتُ أن عليّ إقناعك بالمشاركة في مشروعي. لدي أنبوب اختبار لك. أنت ستكون في الخارج، وهنا سيولد أطفالك. وسترى أي بلدٍ رائع سيكون من الآن وحتى عشر أو عشرين عاماً!»

كان في السماء قمر مستدير (بقي فيها حتى آخر ليلة من حكايتنا التي نستطيع، لهذا السبب، أن نصفها بالحكاية القمرية). اصطحب الدكتور سكريتا جاكوب إلى ريشموند: «يجب ألاّ تسافر غداً، قال.

- يجب أن أسافر. هناك من ينتظرني، قال جاكوب، لكنه كان يعرف أنه سيستسلم للإقناع.

- ليس لهذا أي معنى، قال سكريتا، يسرني أن يعجبك مشروعي. غداً نناقشه بعمق».



اليوم الرابع

1

كانت السيدة كليما تستعد للخروج، لكن زوجها كان مايزال في السرير.

«ألا يجب أن تخرج أنت أيضاً هذا الصباح؟ سألت.

ـ ولمَ العجلة! لدي الوقت للذهاب إلى أولئك البُلَهاء»، أجاب كليما. تثاءب واستدار إلى الناحية الأخرى.

أعلنَ لها الليلة قبل الماضية أنه اضطر، في تلك المحاضرة المزعجة، للتعهُّد بمساعدة فرق الموسيقيين الهواة، وأنه بالتالي سيقدم حفلة موسيقية في السهرة، يوم الخميس القادم في مدينة مياه صغيرة برفقة صيدلاني وطبيب يعزفان الجاز. قال كل ذلك بلهجة شاتِمة، لكن السيدة كليما كانت تنظر إليه مواجهةً، وترى بوضوح أن تلك الشتائم لا تعبِّر عن استنكار حقيقي لأنه لاتوجد حفلة البتة، ولأن كليما اختلقها بغرض وحيد هو أن يضمن لنفسه الوقت لواحدةٍ من مغامراته الغرامية. إنها تقرأ ذلك في وجهه؛ لم يكن باستطاعته أن يخفي عنها شيئاً. عندما استدار إلى الناحية الأخرى شاتِماً، فهمت في الحال أنه لايشعر بالنعاس بل يريد إخفاء وجهه عنها ومنعها من تَقَصِّيه.

ثم ذهبت إلى المسرح. عندما حَرَمَها المرضُ، قبل سنين، من أضواء المسرح، وجد كليما لها مكاناً تعمل فيه كسكرتيرة. لم يكن ذلك العمل كريهاً، فهي تلتقي يومياً بأناس مثيرين للاهتمام وتستطيع تنظيم وقتها بقدر كافٍ من الحرية. جلست وراء مكتبها لتحرير بضعة رسائل رسمية، لكنها لم تستطع التركيز.

لاشيء مثل الغيرة يمتصُّ كائناً إنسانياً بكامله. حين فقدت

كاميلا أمها قبل عام، كان الحدث أكثر مأساويةً بالتأكيد من مغامرة طائشة يقوم بها عازف الترومبيت. مع ذلك فإن موت أمها التي تحبها حباً هائلاً، وُلِد أقل إيلاماً لها. تَزيَّنَ هذا الألم، رأفةً بها، بألوان متعددة: وُلِد في داخلها حزن وحنين وتأثر وتوبة (هل اعتنت كاميلا بشكل كافٍ بأمها؟ ألم تهملها؟) وأيضاً ابتسامة صافية. انتشر هذا الألم، من قبيل الرحمة في جميع الجهات: وراحت أفكار كاميلا تتقافز قرب نعش أمها، وتحلِّق نحو ذكريات من طفولتها، وإلى أبعد من ذلك أيضاً، إلى طفولة أمها، تحلِّق نحو عشرات من الهموم العملية، تحلِّق نحو المستقبل المفتوح حيث ترتسم قامة كليما مثل عزاء (نعم، إنها أيام استثنائية كان زوجُها فيها عزاءً لها).

على العكس من ذلك، لم يكن ألم الغيرة يتطور في المكان، بل يدور مثل مِخرَطة حول نقطة وحيدة. هنا لا يوجد انتشار. إذا كان موت الأم قد فتح الباب لمستقبلٍ مختلفٍ، أكثر عزلة وأكثر نضجاً أيضاً فإن الألم الذي سببه عدمُ إخلاص الزوج لم يفتح باباً لأيِّ مستقبل. كل شيءٍ مركّز في الرؤية الوحيدة (والحاضرة دوماً) للجسد الخائن، مركّز في اللَّوْم الوحيد (والحاضر دوماً). حين فقدت أمها كان بوسعها أن تسمع الموسيقا، كان بوسعها حتى أن تقرأ؛ وحين بدأت تغار لم يكن بوسعها أن تفعل شيئاً على الإطلاق.

في العشيَّة بالذات فكرت أن تسافر إلى مدينة المياه، لكي تتأكد من وجود الحفلة الموسيقية المشبوهة، لكنها سرعان ما عدَلَتْ لأنها تعرف أن غيرتها تُصيب كليما بالرعب، وأنَّ عليها ألاَّ تُظهرها له صراحةً. لكن الغيرة راحت تدور في داخلها مثل محركٍ مُحْتَدِم ولم تستطع منع نفسها من رفع سماعة الهاتف. قالت في سرها لكي تبرر سلوكَها لنفسها، بأنها تتصل بالمحطة دون قصد محدد، على سبيل التسلية فقط، لأنها لم تكن تستطيع التركيز على تحرير المراسلات الإدارية.

حين علمت أن القطار ينطلق في الساعة 11 صباحاً، تخيلت نفسها تجوب شوارع مجهولة، تبحث عن ملصق باسم كليما، تذهب إلى نقابة تشجيع السياحة لتسأل إذا كانوا على علم بحفلة موسيقية يُفتَرَض أن يعزف فيها زوجها، وتسمع نفسَها وهي تجيب بأنه

ليست هناك حفلة موسيقية، فتهيم بائسةً مخدوعة، في مدينة مقفرة وغريبة. ثم تخيّلت كيف سيحدِّثها كليما في اليوم التالي عن الحفلة، وكيف ستسأله عن التفاصيل. ستنظر إليه مواجهةً، ستستمع إلى اختلاقاته وتشرب معه بنشوةٍ مُرَّة، منقوعَ أكاذيبه السامّ.

لكنها ما لبثتْ أن قالت لنفسها إنها لايجب أن تتصرف هكذا. لا، إنها لاتستطيع أن تبقى أياماً وأسابيع كاملة، وهي تَرقَبُ وتغذّي رؤى غيرتها. كانت تخاف أن تفقده، وبسبب هذا الخوف ربما تنتهي إلى فقده!

لكنَّ صوتاً آخر سرعان مايُجيب بسذاجةٍ ماكرة: ولكن لا، إنها لم تكن ذاهبة لتتجسس عليه! لقد أكَّد لها كليما بأنه سيعزف في حفلة موسيقية وقد صدَّقَتْهُ! وتحديداً لأنها لم تعد تريد أن تغار، فقد أخذتْهُ على محمل الجِدّ، وقبِلَتْ تأكيداته دون شكوك! ألم يقل لها بأنه ذاهب إلى هناك دون متعة، وأنه يخشى من قضاء يوم نكِدٍ! لذا قررت الذهاب إليه هناك، فقط لكي تُعِدَّ له مفاجأة ممتعةً! في اللحظة التي سيحَيِّي فيها كليما بقَرَفٍ، وهو يفكر برحلة العودة المنهكة، سوف تنزلق إلى أسفل خشبة المسرح، سيراها ويضحكان معاً!

سلمت المدير الرسائل التي كتبَتْها بصعوبة. كانت موضِعَ تقديرٍ في المسرح. كانوا يقدِّرون أن تتصرف زوجةُ موسيقي شهير بتواضع وصداقة. وكان الحزن المنبعِث منها أحياناً ذا قدرةٍ ما على التأثير. لم يكن باستطاعة المدير أن يرفض لها شيئاً. وعدَتْ أن تعود بعد ظهر يوم الجمعة وتبقى حتى وقت متأخر لتعويض الوقت الضائع.

2

الساعة هي العاشرة ومنذ قليل استلمتْ أولغا من يد روزينا ملاءة كبيرة ومفتاحاً، مثل كل يوم. دخلت إحدى الحجرات، نزعت ثيابها وعلقتها، ثم ألقت بالملاءة حول جسمها مثل رداء روماني

قديم، أغلقت الحجرة بالمفتاح، أعادت المفتاح لروزينا واتجهت إلى صدر المكان حيث القاعة التي يوجد فيها المسبح. وضعت الملاءة فوق الحاجز ونزلت الدرجات لكي تدخل الماء حيث تستحم نساء أخريات كثيرات. لم يكن المسبح كبيراً، لكن أولغا كانت مقتنعة بأن السباحة ضرورية لصحتها، وحاولت السباحة قليلاً بتطويح يديها. حرَّكت الماءَ الذي راح ينضح داخل فم امرأةٍ زلِقة اللسان. «هل أنت مجنونة؟ صرخت هذه المرأة في وجه أولغا بصوتٍ جاف، هذا ليس حوض سباحة!»

كانت النساء مقرفِصات في مياه المسبح مثل ضفادع ضخمة. وكانت أولغا تخشاهن. فهنَّ جميعاً أكبر منها سناً وأقوى منها، وعلى أجسادهن قدر أكبر من الشحم والجِلد. غطست إذن بينهن، ذليلةً، وبقيت بلا حراك، مقطبة الحاجبين.

فجأةً لمحت شاباً عند مدخل القاعة. كان قصيراً ويرتدي بنطال جينز أزرق وكنزة مثقَّبة.

«ماالذي يفعله هذا الشخص هنا؟» صاحت.

نظرت جميع النساء إلى الجهة التي تنظر إليها أولغا ورحن يَنَقْنِقْن ويصرخن.

في تلك اللحظة دخلت روزينا القاعة وصرخت:

«هناك سينمائيون يقومون بزيارة، وهم سيصوِّرونكن في شريط الأخبار اليومية».

صدرت ضحكة كبيرة عن النساء في المسبح.

احتجَّتْ أولغا: «ما هذه الحكاية!

ـ لقد حصلوا على إذن من الإدارة، قالت روزينا.

ـ لاتهمُّني الإدارة، لم يستَشِرْني أحد!» صاحت أولغا.

كان الشاب صاحب الكنزة المثقَّبة (حول عنقه آلة لحساب كثافة الضوء) قد اقترب من الحوض وراح ينظر إلى أولغا بابتسامة هازئة وجَدَتْها بلا حياء: «يا آنستي، ستُرعِبين آلاف المشاهدين حين يرونك على الشاشة!»

أجابت النساء بانفجار آخر بالضحك وأخفتْ أولغا صدرها بيديها (لم يكن ذلك صعباً، لأن نهديها، كما نعلم، يشبهان خوختين) وقرفصتْ وراء الأخريات.

تقدم شخصان آخران ببنطالَيْ جينز نحو المسبح وصرَّح أطوَلُهُما: «من فضلكنّ، تَصَرَّفْنَ بصورة طبيعية كما لو أننا لسنا هنا».

مدَّت أولغا يدها نحو الحاجز حيث عُلِّقت ملاءتها. لفَّتْها حول جسمها دون أن تخرج من المسبح ثم صعدت الدرجات ووضعت قدمها على أرض القاعة المبَلَّطة. كانت الملاءة مبللةً تقطر ماءً.

«ولكن لا تذهبي هكذا! صاح الشاب صاحب الكنزة المثقَّبة.

ـ يجب أن تبقي ربع ساعة أخرى في الحوض! صاحت روزينا بدورها.

ـ إنها محتشمة! انفجر المسبح مقهقهاً خلف ظهرها.

ـ تخاف أن يُسرَق منها جمالُها! قالت روزينا.

ـ أرأيتم، الأميرة! قال صوت من داخل المسبح.

ـ من لا تريد أن نصوِّرها، تستطيع الذهاب بطبيعة الحال، قال الشخص الطويل الذي يرتدي الجينز.

ـ نحن من جهتنا لسنا خجِلات! نحن نساء جميلات!» قالت سيدة سمينة بصوت رنَّان، وتَلَوَّى سطحُ الحوض من الضحك.

«ولكن يجب ألا تذهب هذه الآنسة! بقي لها ربع ساعة أخرى!» قالت روزينا محتَجَّةً وهي تنظر في إثر أولغا التي اتجهت عائدةً بعِناد نحو حجرة الثياب.

3

لا يمكننا أن نحقد على روزينا لكونها بهذا المزاج السيء. ولكن لماذا استَفزَّها إلى هذا الحد رفضُ أولغا البقاء أمام الكاميرا؟

لماذا تَماثَلَتْ كلياً مع جمهور النساء السمينات اللواتي قابلن مجيء الرجال بزقزقات فرِحة؟

ولماذا أصلاً، زقزقتْ تلك النساء السمينات بهذا القدر من الفرح؟ هل أردن إظهار جمالهن أمام الشبان وغوايتهم؟

لا. كان مَبعَثُ وقاحتهن العلنية، يقينُهُنَّ بأنهن لايمتلكن أي قدر من الجمال. كنَّ ممتلئات بالضغينة إزاء صِبا النساء، ويتمنَّيْنَ أن يعْرِضْن أجسادهنَّ غير الصالحة للاستعمال جنسياً، لكي يَشِينَ بالعري الأنثوي ويسخرن منه. أردن الانتقام ونَسْفَ هالةِ الجمالِ الأنثوي بواسطة بشاعة أجسادهن، لأنهن يعرفن أن الأجساد، بشعةً كانت أم جميلة، هي في النهاية نفسها، وأن الجسد البشع يلقي بظله على الجسد الجميل وهو يهمس في أذن الرجل قائلاً: انظر، هذه هي حقيقة ذاك الجسد الذي يسحرك! انظر، هذا الثدي الكبير الرخو هو نفسه ذاك النهد الذي تعشقه مثل مجنون.

كان انعدامُ الحياء الطافح بالسرور لدى السيدات السمينات في المسبح، أشبه بدائرة من حُبِّ الجثث نُصِبَتْ حول الشباب الزائل. ووجودُ امرأةٍ شابة في المسبح لكي تكون الضحيةَ جعلَ هذه الدائرةَ أكثرَ مَثاراً للفرح. حين التفَّتْ أولغا في ملاءة الحمام، فسَّرْنَ تلك الحركةَ على أنها تخريب لاحتفالهنَّ الفظ وغضبن.

لكن روزينا لم تكن سمينة ولا مسنَّة، حتى أنها كانت أجمل من أولغا! لماذا لم تتضامن معها إذن؟

لو أنها قررت القيام بعملية الإجهاض، ولو أنها كانت مقتنعة بأن حباً سعيداً ينتظرها مع كليما لَتَصرَّفتْ بطريقة مغايرة تماماً. فَوَعْيُ المرأة بأنها محبوبة من شأنه أن يفصلها عن القطيع، وروزينا كانت ستعيش، بافتتان، فرادَتَها غير القابلة للتقليد. كانت سترى في السيدات السمينات عدوَّاتٍ، وفي أولغا أختاً. كانت ستغيثها، مثلما يغيث الجمالُ الجمالَ، والسعادةُ سعادةً أخرى، والحبُّ حباً آخر.

لكن روزينا نامت بالأمس نوماً سيئاً جداً وقررت أنها

لاتستطيع الاعتماد على حب كليما، بحيث بدا لها كلُّ ما يفْصلها عن القطيع وهماً. الشيء الوحيد الذي تملكه هو في بطنها ذاك الرُشيم المُبَرْعِم الذي يحميه المجتمع والتقاليد. الشيء الوحيد الذي تملكه هو شموليةُ المصير الأنثوي المجيدة، الذي يَعِدُها بالقتال لأجلها.

وأولئك النساء في المسبح كنَّ يمثِّلن بالضبط الأنثويةَ بما فيها من شموليّ: أنثويَّة كل ما هو أبدي كالحبَل، والإرضاع، والذبول. الأنثوية التي تضحك هازئةً من فكرة تلك الثانية العابرة التي تظن فيها المرأةُ أنها محبوبة وتشعر فيها بأنها متفرِّدة على نحو لايقبل التقليد.

ليست هناك مصالحة ممكنة بين امرأة مقتنعة بفَرادَتِها، وبين النساء اللواتي ارتدين كَفَنَ شموليةِ المصير الأنثوي. بعد ليلةٍ من أرقٍ مُثقلٍ بالتأملات انحازت روزينا (يالِعازف الترومبيت المسكين!) إلى صَفِّ أولئك النساء.

4

كان جاكوب يمسك بالمقود، وبوب يجلس بجانبه على المقعد الأمامي، وفي كل لحظة يدير رأسه نحوه ويلعق له وجهه. بعد المقصورات الأخيرة لمدينة المياه الصغيرة يقوم بناء برجي. لم يكن موجوداً هنا في العام الماضي، ووجده جاكوب قبيحاً. بدا، وسط المنظر الطبيعي الأخضر، مثل مكنسة فوق أصيص من الزهور. راح جاكوب يداعب بوب الذي يتأمل هذا المنظر بعين الرضى، كما راح يفكر بأن الله كان رحيماً مع الكلاب لأنه لم يُدخِل في رؤوسها الإحساس بالجمال.

لعق له الكلب وجهه من جديد (ربما كان يحس أن جاكوب يفكر به باستمرار) وقال جاكوب لنفسه إن الأشياء لاتتحسن في بلده، لكنها لاتَسوء أيضاً، بل تزداد إثارةً للضحك أكثر فأكثر: لقد كان منذ عهد قريب ضحيةَ مطاردةِ الناس فيه، ومساء أمس شهِدَ فيه مطاردةً

للكلاب، كما لو أن المشهد مايزال هو نفسه بتوزيع آخر. تلعب فيه مجموعة من المتقاعدين دورَ قضاة التحقيق والحراس، ويمثل رجالَ الدولة المسجونين كلبُ بوكسر وكلبٌ هجين وكلبُ تيكِل.

تذكَّرَ أنَّ جيرانه وجدوا قطتهم، قبل بضع سنين، أمام باب منزلهم وقد غُرِس مسماران في عينيها، وقُطِع لسانها، وأوثقت قوائمها. كان الصغار في الشارع يلعبون على طريقة الكبار. داعب جاكوب رأس بوب وأوقف السيارة أمام النزل.

حين نزل، ظنَّ أن الكلب سيندفع فرحاً نحو باب مسكنه. لكن بوب، بدلاً من أن يركض، راح يتقافز حول جاكوب طالِباً اللعب. مع ذلك فعندما صرخ صوتٌ «بوب!» انطلق الكلب مثل سهم نحو المرأة الواقفة عند العتبة.

«أنت متشرِّد غير قابل للإصلاح»، قالت، وسألت جاكوب معتذرةً، منذ كم من الوقت يضايقه الكلب.

حين أجاب جاكوب بأن الكلب أمضى الليل عنده وأنه أعاده الآن بالسيارة، بالغت المرأةُ في التعبير الصاخب عن شكرها ورَجَتْهُ أن يدخل. أجلسته في قاعة خاصة كانت تُقام فيها دون شك الولائم الخاصة وذهبت راكضةً في طلب زوجها.

عادت بعد لحظة بصحبة رجل شاب جلس بجانب جاكوب ومدَّ له يده: «لابُدَّ أنك شخص لطيف حقاً لكي تأتي إلى هنا بالسيارة لإعادة بوب. هذا الكلب أحمق ولايفعل شيئاً سوى التسكع. لكننا نحبه حقاً. ألا تتناول شيئاً من الطعام؟

ـ بكل سرور»، قال جاكوب وركضت المرأة إلى المطبخ. ثم روى جاكوب كيف أنقذ بوب من رهطٍ من المتقاعدين الضُّراة.

«القذرون! صرخ الرجل ثم استدار برأسه نحو المطبخ ونادى زوجته: فيرا! تعالي إلى هنا! هل سمعتِ ماذا يفعل أولئك القذرون في الأسفل!»

عادت فيرا إلى القاعة بصينية عليها طبق حساء يتصاعد منه البخار. جلست واضطر جاكوب إلى تكرار قصة مغامرته عشية

الأمس. كان الكلب جالساً تحت الطاولة ويستسلم لمداعبته خلف أذنه.

عندما أنهى جاكوب حساءه نهض الرجل بدوره، ركض إلى المطبخ وأحضر منه لحم خنزير مشوي مع عشبة الكنودل.

كان جاكوب قرب النافذة وكان يشعر بالارتياح. كان الرجل يكره الناس في الأسفل (مما فَتَنَ جاكوب: فالرجل يَعتبر مطعَمَهُ بمثابة مرتَفَع، أولمب، مكان قصيّ وعالٍ). ابتعدت المرأة لكي تعود بطفل في الثانية من العمر: «اشكُر السيد، قالت، لقد أعاد لكَ بوب».

همهمَ الطفل ببضع كلمات غير مفهومة وابتسم لجاكوب. الجو في الخارج مُشمِس والأوراق المصفرَّة تميل بهدوء نحو النافذة المفتوحة. لم تكن تُسمَع أية ضجة. فالنزل مرتفع حقاً فوق العالم ويجد فيه المرءُ السلامَ.

كان جاكوب يحب الأطفال في الوقت الذي يرفض فيه الإنجاب: «لديك صبي صغير جميل، قال.

ـ إنه مسَلٍّ، قالت المرأة. لا أعرف ممن ورِث هذا الأنف الكبير».

تذكَّرَ جاكوب أنف صديقه وقال: «قال لي الدكتور سكريتا إنه عالجَكِ.

ـ أنت تعرف الدكتور؟ سأل الرجل بابتهاج.

ـ إنه صديقي، قال جاكوب.

ـ نحن ممتنون له جداً»، قالت الأم الشابة، وفكَّرَ جاكوب بأنَّ ثمة احتمالاً في أن يكون الطفل أحد نجاحات مشروع سكريتا في تحسين النسل.

«إنه ليس بطبيب، إنه ساحر»، قال الرجل بإعجاب.

فكَّرَ جاكوب بأن هؤلاء الأشخاص الثلاثة في هذا المكان الذي يخيِّم عليه سلامُ بيتِ لحم هم *العائلة المقدسة*، وأنَّ طفلهما لم يولد من والدٍ بَشَريّ بل من الإله ـ سكريتا.

من جديد همهمَ الطفل ذو الأنف الكبير بكلام غير مفهوم ونظر

إليه الأب الشاب بحبّ. «أتساءل، قال لزوجته، مَنْ مِن بين أجدادك البعيدين كان له أنف كبير».

ابتسم جاكوب. مرت في رأسه للتو فكرة غريبة: هل لقحَ الدكتور سكريتا زوجتَهُ بالذات بحقنةٍ أيضاً؟

«ألستُ مُحِقّاً؟ سأل الأب الشاب.

ـ بالتأكيد، قال جاكوب. إنه لَعَزاءٌ كبير أن يفكر المرء بأنه بينما هو راقد في القبر منذ زمن طويل، سوف يتجوَّل أنفُهُ عبر العالم».

انفجر الجميع ضاحكين. أمّا كَوْن سكريتا هو والد الطفل فهي فكرةٌ بدت لجاكوب الآن أشبه بحلمٍ فانتازي.

5

استلم فرانتيزيك النقود من السيدة التي أصلح لها ثلاجتها للتو. خرج من المنزل، امتطى دراجته الوفيَّة ومضى إلى الطرف الآخر للمدينة الصغيرة لتسليم حصيلة اليوم للمكتب الذي يدير خدمات إصلاح الأدوات المعطلة لمجموع المنطقة. كانت الساعة تتجاوز الثانية بقليل عندما أصبح حراً تماماً. شغَّل محرك الدراجة وانطلق باتجاه مؤسسة الحمّة. لمح الليموزين البيضاء في ساحة الوقوف. أوقف الدراجة بجانب الليموزين تحت القناطر، واتجه نحو بيت الشعب لأنه افترض أنَّ عازف الترومبيت موجود هناك.

ليست الجرأة ولا الروح القتالية هما الشيء الذي قادهُ إلى هناك. لم يعد يريد إثارة الفضائح. على العكس غدا مصمماً أن يسيطر على نفسه، أن يطيع، أن يستسلم كلياً. راح يقول لنفسه بأنَّ حبَّهُ كبير إلى درجة أنه يستطيع تَحَمُّل كل شيء باسمِه. ومثل أمير الحكايات الخيالية، الذي يقاسي الآلام والمواجع، يجابه التنِّين ويجتاز المحيط من أجل الأميرة، كان مستعداً لقبول إهاناتٍ جائرة إلى حد خرافي.

لماذا هو متواضع إلى هذا الحد؟ لماذا لا يلتفت بالأحرى إلى امرأة أخرى، باعتبار أن النساء في مدينة المياه الصغيرة هذه كثيرات إلى درجة تثير الشهية؟

فرانتيزيك أصغر سناً من روزينا، وهذا يعني، لسوء حظه أنه صغير جداً. حين سينضج أكثر سيكتشف قابلية الأشياء للزوال وسيعرف أنه، وراء أفق واحدةٍ من النساء ينفتح أفقُ نساء أخريات. غير أن فرانتيزيك مازال يجهل ما الزمن. فهو منذ الطفولة يعيش في عالمٍ مستمر ولا يتغير، يعيش في نوعٍ من الأبدية الساكنة. مازال لديهُ الأب نفسه والأم نفسها أيضاً. وروزينا، التي جعلت منه رجلاً، تُخيِّم فوقه مثل غطاء قبة السماء، القُبة الوحيدة الممكنة. إنه لايتصور الحياة من دونها.

وعدها عشية الأمس، طائعاً، بألاّ يتجسس عليها، وكان في تلك اللحظة صادق العزم على عدم مضايقتها. راح يقول لنفسه بأنه لايهتم إلاَّ بعازف الترومبيت وطالما أنه الشخص الذي يلاحقه فلن ينكث بوعده. لكنه كان في الوقت نفسه يعلم أنَّ هذا ليس سوى عذر وأنَّ روزينا سوف تدين سلوكه، لكن الأمر بالنسبة له أقوى من أي تفكير ومن أي قرار عَزَمَ على تنفيذه، إنه أشبه بالإدمان: كان يجب أن يراه؛ يجب أن يراه مرة أخرى، مطوَّلاً وعن كثب، يجب أن ينظر مواجهةً إلى وَجْهِه، أن ينظر إلى هذا الجسد الذي يبدو اتحادُهُ مع جسد روزينا غير قابل للتخيُّل وغير قابل للتصديق. يجب أن ينظر إليه لكي يُعايِن بنفسه إمكانيةَ التفكير باتحاد جسديهما أو عَدَمها.

كانوا قد بدؤوا بالعزف: الدكتور سكريتا على الطبول، رجل قصير ضئيل الحجم على البيانو وكليما على الترومبيت. جلس في القاعة بعض الشبان من مُحِبِّي الجاز الذين انسلُّوا إلى هناك لحضور التدريبات. لم يكن هناك مايدعو فرانتيزيك لأنْ يخشى من اكتشاف حضوره. فهو متأكد من أن عازف الترومبيت لم يرَ وجهه مساء الثلاثاء بسبب أنوار الدراجة المبهرة، وأنه بسبب حذر روزينا لا أحد يعرف الكثير عن علاقته بها.

قاطع عازفُ الترومبيت الموسيقيين وجلس بنفسه إلى البيانو لكي يعزف للرجل القصير مقطعاً يتصوره بإيقاع آخر. كان فرانتيزيك جالساً على كرسي في آخر القاعة، وراح يتحول ببطء إلى ظلٍ لن يُفارِق عازفَ الترومبيت لحظةً ذلك اليوم.

6

عاد من نَزْلِ الغابة ونَدِمَ على أن الكلب المَرِحَ الذي كان يلعق له وجهه لم يعد بجانبه. ثم فكر بأنه حقق معجزةً حين استطاعَ الإبقاء على هذا المكان شاغراً بقربه طوال سنين حياته الخمس والأربعين، بحيث بات باستطاعته الآن مغادرة هذا البلد بهذه السهولة، دون متاع ودون عبء، وحده، بمظهر الشباب الخدَّاع (والجميل مع ذلك)، كأنه طالب بدأ للتو يؤسس لمستقبله.

كان يحاول استيعاب فكرة أنه يغادر بلده. ويحاول جهده استحضار حياته الماضية. يحاول جهده أن يراها مثل منظر واسع يلتفت نحوه بحنين، منظر بعيد إلى درجة تسبب الدُّوار. لكنه لا يستطيع ذلك. وما يستطيع أن يراه عقلياً خلفه كان ضئيلاً مسطَّحاً مثل أكورديون مغلق. واحتاج أن يبذل جهداً لكي يستحضر نتَفاً من ذكرياتٍ يمكن أن تمنحه الوهمَ بأنه عاش حياةً ما.

أخذ ينظر إلى الأشجار من حوله. أوراقها خضراء وحمراء وصفراء وبنية. بدت الغاباتُ مثل حريق. قال لنفسه بأنه يسافر في اللحظة التي تشتعل فيها الغابات وبأنَّ هذه النيران الرائعة غير المحسوسة تلتهم حياته وذكرياته. هل يفترض به أن يتألم لكونه لا يتألم؟ هل يفترض به أن يحزن لكونه لايشعر بالحزن؟

لم يكن يشعر بالحزن، إنما لم تكن لديه أيضاً رغبة بالاستعجال. وحسب ما اتفق عليه مع أصدقائه في الخارج كان عليه أن يجتاز الحدود في تلك اللحظة، لكنه شعر من جديد بأنه

فريسةُ كسلٍ متردِّد عُرِف به جيداً في دائرة علاقاته وطالما عرَّضَهُ للسخرية لأنه يستسلم له تحديداً في الظروف التي تتطلب سلوكاً قوياً وحازماً. كان يعرف أنه سيظلُّ يؤكد حتى اللحظة الأخيرة بأنه سيسافر في اليوم نفسه، لكن يتبيَّن له أيضاً أنه منذ الصباح يفعل كل ما بوسعه لكي يؤخر لحظة مغادرة مدينة المياه الفاتنة هذه، حيث اعتاد منذ سنين أن يأتي لرؤية صديقه على فترات متباعدة جداً أحياناً، إنما بسرور دوماً.

أوقف السيارة (نعم، حيث وقفت سيارة عازف الترومبيت البيضاء ودراجة فرانتيزيك الحمراء) ودخل إلى المطعم ـ المشرب الذي يفترض أن توافيه أولغا إليه بعد نصف ساعة. أعجبته طاولةٌ في صدر المكان قرب النافذة التي يمكن من خلالها الإطلال على الأشجار المشتعلة في الحديقة العامة، لكنَّ رجلاً ثلاثينياً كان يشغلها لسوء الحظ. فجلس جاكوب إلى الطاولة المجاورة. لم يكن يرى الأشجار من هناك، وبالمقابل فقد أسَرَ نظرَهُ ذاك الرجلُ الذي بدت عصبيَّتُهُ للعيان والذي لم تكن عيناه تفارقان الباب ويوقِّع بقدمه على الأرض.

7

دخلت أخيراً. قفز كليما عن كرسيه، واقترب للقائها قرب الزجاج. ابتسم لها كما لو أنه أراد بابتسامته تلك أن يؤكد لها بأن اتفاقهما مازال سارياً، أنهما هادئان ومتواطئان ويثق كل منهما بالآخر. كان يبحث في تعبير الشابة عن جواب تأكيدي لابتسامته، لكنه لايجده. أقلقه الأمر. لم يجرؤ أن يتكلم عما يقلقه، ودخل مع الشابة في حديث لامعنى له من شأنه أن يخلق جواً من خلوِّ البال. مع ذلك فقد كان رجْعُ كلماته صمتَ الشابة، كأن هذه الكلمات تصطدم بحجَرٍ.

قاطعته: «غيَّرتُ رأيي. سيكون ذلك جريمة. ربما تستطيع أنت أن تقوم بفعل مشابه، أما أنا فلا».

شعر عازف الترومبيت أن كل شيء ينهار في داخله. حدج روزينا بنظرة خالية من المعنى ولم يعد يعرف ماذا يقول. لم يجد في داخله غير تعبٍ يائس. وكررت روزينا: «سيكون ذلك جريمة».

أخذ ينظر إليها وبدتْ له غير حقيقية. هذه المرأة التي يعجز عن تذكُّر شكلها حين يكون بعيداً عنها، تبدو له الآن كأنها إدانتُهُ المؤبَّدة. (يرى كليما، مثل كل واحد منا، أن الأشياء التي لاتدخل إلى حياته من داخلها، تدريجياً وعضوياً، ليست حقيقية، أما مايأتي من الخارج، بشكل فجائي وعرَضي، فهو في نظره لاحقيقي. للأسف! ليس هناك ما هو حقيقي مثل هذا اللاحقيقي).

ظهر النادل الذي تعرَّف على عازف الترومبيت ذاك اليوم أمام طاولتهما، حاملاً لهما كأسي كونياك فوق صينية وقائلاً لهما بنبرة مرحة: «تريان أني أستطيع قراءة رغباتكما في عيونكما». وقال لروزينا الملاحظة الماضية نفسها: «خذي حذرك! الفتيات سوف يقتلعن لك عينيك!» وضحك بصوت مرتفع جداً.

هذه المرة كان كليما أكثر استغراقاً في خوفه من أن يعير اهتماماً لكلمات النادل. شرب جرعة كونياك ثم مال نحو روزينا: «أرجوكِ. كنتُ أظن أننا اتفقنا. لقد قلنا كل شيء. لماذا غيرت رأيك فجأة؟ روزينا، كنتِ تفكرين مثلي بأن على أحدنا أن يكرس نفسه كلياً للآخر بضع سنين! ونحن لانفعل هذا إلا بدافع الحب، ثم ننجب طفلاً في اليوم الذي نريد فيه ذلك معاً حقاً».

8

تعرَّف جاكوب في الحال على الممرضة التي أرادت تسليم بوب

للعجائز. كان ينظر إليها مأخوذاً، وكله فضول لمعرفة ما يدور بينها وبين محدِّثها من كلام. لم يكن يميِّز كلمة واحدة لكنه يرى جيداً أن الحديث متوتر إلى أقصى حد.

سرعان ما اتَّضح، من خلال تعبير الرجل، أنه تلقَّى للتو نبأً مُغِمّاً. فقد احتاج لوقتٍ لكي يستعيد القدرة على الكلام. كانت تعابيره تشي بأنه يحاول إقناع المرأة وأنه يتوسَّل لها. لكن المرأة تلزم الصمت بعناد.

لم يستطع جاكوب منع نفسه من التفكير بأنَّ حياةً ما معرضة للخطر. وماتزال الشابة الشقراء تبدو له *ذاك الشخص المستعد لتثبيت الضحية ريثما يقوم الجلاد بعمله*، ولم يشكّ لحظةً بأن الرجل يقف في صفِّ الحياة وهي في صفِّ الموت. يريد الرجل إنقاذ حياة شخص ما، ويطلب المساعدة، لكن الشقراء ترفض، وسوف يموت إنسانٌ بسببها.

لاحظ بعدها أن الرجل كفَّ عن الإلحاح، بدأ يبتسم ولم يتردد في مداعبة خَدِّ المرأة. هل اتفقا؟ إطلاقاً. كان الوجهُ، تحت الشعر الأصفر، ينظر بعناد إلى البعيد متجنِّباً نظرة الرجل.

لم يقوَ جاكوب على إبعاد نظره عن المرأة الشابة التي لم يستطع، منذ الأمس، أن يتصورها إلاّ في ملامح *مساعد الجلادين*. كان لها وجه جميل وفارغ. جميل بما يكفي لاجتذاب رجل، وفارغ بما يكفي لكي تضيع فيه جميعُ توسلاته. كان ذلك الوجه فخوراً، لكن جاكوب يعرف أنه فخور بفراغه وليس بجماله.

كان يقول لنفسه بأن آلافاً من وجوهٍ أخرى عرفها جيداً، تَحضرُهُ في هذا الوجه. بأنّ حياته بأكملها لم تكن سوى حوار مستمر مع ذلك الوجه. عندما كان يحاول أن يشرح شيئاً لهذا الوجه يستدير بهيئةٍ مُغتاظة، ويردّ على حججه بالكلام عن شيء آخر. عندما يبتسم له، كان هذا الوجه يلومه على مرحه، حين يتوسل إليه، كان هذا الوجه يتَّهمُهُ بالفوقية. هذا الوجه الذي لايفهم شيئاً ويبثُّ

في كل شيء وجه فارغ مثل صحراء ومزهوٌّ بصحرائه.

قال جاكوب لنفسه إنه ينظر اليوم إلى هذا الوجه للمرة الأخيرة ويمضي غداً بعيداً عن مملكته.

9

روزينا أيضاً لاحظت جاكوب وعرفته. شعرت بنظراته مثبتة عليها فخافت. رأت نفسها مطوَّقة برجلين أضمرا التواطؤ، بنظرتين مصوبتين إليها مثل سَبَطانَتَيْ بندقية.

كان كليما يجتَرُّ حجَجَهُ وهي لاتعرف بماذا تجيب. فضّلت أن تكرر بسرعةٍ قولها بأنه عندما يتعلق الأمر بحياة طفل قادم، لايعود هناك مايمكن للعقل أن يقوله وأن العواطف وحدها هي التي يجب أن تتكلم. أشاحت بوجهها بصمت لكي تبعده عن مجال النظرة المزدوجة، وأخذت تحدق عبر النافذة بنظرة ثابتة. عندها، وبفضل درجة معينةٍ من التركيز، أحست بالشعور بالمَهانة الذي يولد لدى عشيقةٍ وأمٍّ أُسيءَ فَهْمُهما، وبدأ هذا الشعور يختمِر في روحها مثلما تختمر العجينة. وبسبب عجزها عن التعبير عن هذا الشعور بالكلمات فقد تركته ينبثق من عينيها المركَّزتين دوماً على النقطة نفسها من الحديقة العامة.

إلا أنها في الموضع الذي كانت تحدق إليه مذهولةً لمحت فجأةً قامةً مألوفة لها وتملَّكَها الذعر. لم تعد تسمع مايقوله كليما. إنها النظرة رقم ثلاثة التي تُسدِّد سبَطانتَها إليها، وهي النظرة الأكثر خطورة. لأنه لم يكن بوسع روزينا أن تجزم من عساه أن يكون المسؤول عن أمومتها. فأول رجلٍ نظرت إليه بعين المراعاة هو الذي يراقبها الآن خلسةً من الحديقة العامة مختبئاً وراء شجرةٍ لم تُخفِهِ تماماً عن العيون. لم يحدث ذلك سوى في البداية طبعاً، لأنها منذ ذلك الوقت بدأت شيئاً فشيئاً تميل لاختيار عازف الترومبيت أباً

لطفلها، إلى اليوم الذي قررت فيه أخيراً أنه هو بالتأكيد. لِنَفْهمْ جيداً: لم تشأ تحميله مسؤولية حبَلها خِداعاً. فعندما اتخذت قرارها لم تختر الخديعة بل الحقيقة. قررت أن الأمر هو حقيقةً كذلك.

الأمومة أساساً شيء مقدس إلى درجةٍ رأت من المستحيل معها أن يكون مسبِّبُها رجلاً تحتقره. ما كان ذلك محاكمةً منطقية، بل نوعاً من إشراقة فوقـعقلانية أقنعَتْها بأنها ما كان ممكناً أن تحبل إلا من رجل يروق لها، تقدِّرُهُ وتعجب به. وحين سمعت عبر الهاتف أن الشخص الذي اختارته أباً لطفلها قد صُدِم وارتاع ورفض مهمَّته الأبوية، حُسِم كل شيء نهائياً، لأنها منذ تلك اللحظة لم تعد تشكّ بحقيقتها، بل باتت على استعداد لدخول المعركة في سبيلها.

صمتَ كليما وداعب خدَّ روزينا. أُخرِجتْ من أفكارها ولاحظتْ ابتسامته. قال لها إنه يفضِّل أن يقوما بجولة في السيارة في الريف، مثل المرة الماضية، لأن طاولة المقهى هذه تفصل أحدهما عن الآخر مثل جدار بارد.

خافتْ. كان فرانتيزيك مايزال خلف الشجرة في الحديقة العامة وعيناه تحدِّقان بنافذة المكان. ما الذي يمكن أن يحدث إذا وقف لهما كخصم لحظة خروجهما؟ ما الذي يمكن أن يحدث إذا تصرف مثل الثلاثاء الماضي؟

«حساب كأسي الكونياك»، قال كليما للنادل.

أخرجت روزينا أنبوباً زجاجياً من حقيبة يدها.

أعطى عازف الترومبيت النادل ورقة نقدية ورفض الباقي بسخاء.

فتحت روزينا الأنبوب، أفرغت منه قرصاً في باطن يدها وابتلعته.

حين أغلقت الأنبوب التفت عازف الترومبيت نحوها ونظر في وجهها. قرَّبَ يديه من يديها فأفلتت الأنبوب لكي تشعر بملامسة أصابعه.

«تعالي، هيا بنا»، قال، ونهضت روزينا. رأت نظرةَ جاكوب الثابتة والعدائية وأشاحت بوجهها.

حين أصبحا في الخارج نظرت بقلق نحو الحديقة العامة، لكن فرانتيزيك لم يعد هناك.

10

نهض جاكوب، أخذ كأسه نصف المملوء وجلس إلى الطاولة التي أصبحت شاغرة. وبنفسٍ راضيةٍ نظرَ عبر النافذة إلى أشجار الحديقة العامة المحمرَّة، وكرر لنفسه بأنَّ هذه الأشجار تشبه حريقاً يلقي فيه سنين حياته الخمس والأربعين. ثم انزلقت نظرتُهُ إلى سطح الطاولة فلمحِ الأنبوب الزجاجي المنسي قرب المنفضة. تناوله وأخذ يتفحصه: كُتب على الأنبوب اسم دواء مجهول، وأضاف أحدهم بقلم الرصاص: *يؤخذ ثلاث مرات في اليوم*. كانت الأقراص في الداخل بلون أزرق شاحب. بدا له ذاك غريباً.

تلك هي الساعات الأخيرة التي يمضيها في بلده، وغدت أصغر الأحداث تتخذ معنىً استثنائياً وتتحول إلى مشهدٍ مجازيّ. فكر: مامعنى أن يُترَك لي اليوم تحديداً أنبوب حبوب زرقاء شاحبة على طاولة؟ ولماذا تتركها لي هنا هذه المرأة بالذات، وريثةُ القمع السياسي ووسيطةُ الجلادين؟ هل تريد أن تقول لي عبر ذلك أن ضرورة الحبوب الزرقاء الشاحبة لم تنقضِ بعد؟ أم أنها أرادت، من خلال التلميح إلى حبة السم، أن تعبِّر لي عن حقدها الذي لا ينضب؟ أم أنها أرادت أن تقول لي أنني بمغادرتي لهذا البلد، أبرهن عن الاستسلام نفسه الذي أبرهن عنه لو أنني ابتلعت الحبة الزرقاء الشاحبة التي أحملها في جيبٍ من سترتي؟

فتَّش في جيبه، أخرج الورقة المصرورة وفتحها. بدا له الآن وهو ينظر إلى الحبة أن لونها أغمق قليلاً من حبات الأنبوب المنسي. فتح الأنبوب الزجاجي وأسقط منه واحدةً في يده. نعم، حبَّتُهُ أغمق

قليلاً جداً وأصغر. أعاد الحبتين إلى الأنبوب. وتأكَّد وهو ينظر إليها الآن أنه لايمكن اكتشاف أي فرق من النظرة الأولى. الموتُ المقنَّع يقبع في أعلى تلك الأقراص المسالِمة والمخصصة بلا شكٍّ لعلاج اضطراباتٍ عادية جداً.

في تلك اللحظة اقتربت أولغا من الطاولة. سارَعَ جاكوب إلى إغلاق الأنبوب بالسدادة، وضعه قرب المنفضة ونهض لاستقبال صديقته.

«صادفتُ كليما عازف الترومبيت الشهير! هل هذا ممكن! قالت وهي تجلس قرب جاكوب. كان بصحبة تلك المرأة الفظيعة! اليوم، أثناء الحمام، وضعَتْني في موقف...!»

لكنها قطعت كلامها، ففي تلك اللحظة انتصبت روزينا أمام طاولتهما، وقالت: «تركتُ أقراص دوائي هنا».

قبل أن يجد جاكوب الوقت لكي يرد لمحت الأنبوب قرب المنفضة ومدت يدها.

لكن جاكوب كان أسرع منها وأمسك به أولاً.

«أعطني إياه! قالت روزينا.

- أريد أن أطلب منك خدمة، قال جاكوب. اسمحي لي أن آخذ قرصاً!

- عفواً! ليس لدي وقت أضيعه!

- أنا أتناول الدواء نفسه و...

- لستُ صيدلية متجولة»، قالت روزينا.

أراد جاكوب نزع السدادة، لكن روزينا لم تدع له الوقت لذلك وقربت يدها من الأنبوب. وفي الحال شدَّ جاكوب الأنبوب في قبضته.

«مامعنى هذا؟ أعطني هذه الأقراص!» صرخت الشابة في وجهه.

نظر جاكوب في عينيها؛ فتح يده ببطء.

11

في ضجيج العجلات، بدا لها سُخْفُ رحلتها جلياً. كانت على أية حال متأكدة من أن زوجها ليس في مدينة المياه. لماذا تذهب إليها إذن؟ هل تسافر أربع ساعات بالقطار لمجرد التأكد من شيءٍ تعرفه مسبقاً؟ لم تكن تستجيب لغاية عقلانية. بل إنه محركٌ راح يدور ويدور في داخلها وليس من وسيلة لإيقافه.

(نعم، في تلك الدقيقة برز فرانتيزيك وكاميلا في حيز الرواية مثل صاروخين تُسيِّرُهُما عن بعد غيرةٌ عمياء ـ ولكن كيف يمكن أن يسيِّر العمى أيَّ شيءٍ كان؟)

لم تكن المواصلات بين العاصمة ومدينة المياه سهلة، واضطرت السيدة كليما لتغيير واسطة النقل ثلاث مرات قبل أن تنزل منهوكةً في محطة عجيبة مغطاة بلوحات إعلانية توصي بينابيع المدينة العلاجية ووحولِها خارقةِ المفعول. بدأت تسير في الممر المحاط بشجر الحور المؤدي إلى مؤسسة الحمّامات، وحين وصلت إلى أولى أعمدة القناطر أذهلها ملصق مرسوم باليد كُتب عليه اسم زوجها بِحروف حمراء. توقفت متفاجئةً أمام الملصق وقرأت اسمين مذكّرين آخرين تحت اسم زوجها. لم تستطع أن تصدق: لم يكذب عليها كليما! ذاك ما قاله لها بالضبط. في الثواني الأولى، منحها ذلك فرحاً هائلاً، إحساساً بالثقة فُقِدَ منذ زمن طويل.

لم يدُم الفرحُ طويلاً، فقد تَنبَّهتْ إلى أنَّ وجود الحفلة الموسيقية ليس بأي حال دليلاً على إخلاص زوجها. فإذا قبِلَ أن يعزف في

مدينة المياه الضائعة هذه فلكي يلتقي بامرأة فيها بالتأكيد. وفكّرت أن الوضع أسوأ مما افترضت وأنها وقعت في فخ:

جاءت إلى هنا لكي تتأكد من أن زوجها ليس في هذا المكان ولكي تقنعه بهذا الشكل غير *المباشر* (للمرة رقم كذا!) بعدم إخلاصه. أما الآن فقد تغيرت الأمور: لن تمسكه بجرم الكذب المشهود، بل بجرم الخيانة (وسيحدث هذا *مباشرةً* وبأم عينها). شاءت أم أبت سوف ترى المرأةَ التي يقضي كليما يومه معها. وأمام هذه الفكرة كادت تتهاوى. كان لديها يقينٌ طبعاً بأنها تعرف كل شيء، لكنها حتى اللحظة لم ترَ شيئاً (لم ترَ أياً من عشيقات زوجها). لم تكن، والحق يُقال، تعرف شيئاً إطلاقاً، بل تعتقد فقط أنها تعرف، وتنسب إلى هذا الافتراض قوةَ اليقين. كانت تؤمن بعدم إخلاص زوجها مثلما يؤمن مسيحيٌّ بوجود الله. والفرق هو أن المسيحي يؤمن بالله مع يقينٍ مطلق بأنه لن يلمحه قط. وعندما فكرت أنها سوف ترى كليما اليوم بصحبة امرأة تملَّكها الخوف نفسه الذي يتملك مسيحياً أخبرَهُ اللهُ في الهاتف بأنه قادم لتناول الغداء عنده.

اجتاح القلقُ جسدها كله. لكنها سمعت لاحقاً أحداً ما يناديها باسمها. التفتت فلمحت ثلاثة شبانٍ واقفين وسط القناطر، يرتدون بناطيل جينز وكنزات، وتتباين هيئاتُهم البوهيمية مع العناية المُغِمّة التي أولاها المتنزِّهون من زبائن المحطة الآخرين، لثيابهم. حيُّوها بالضحكات.

«ياللمفاجأة!» صاحت. إنهم سينمائيون أصدقاء عرفَتْهم حين كانت تظهر على الخشبة وبيدها ميكروفون.

في الحال أخَذَها أطوَلُهُم، وهو مُخرِج، من ذراعها: «كم سيكون لطيفاً أنكِ جئتِ إلى هنا من أجلنا...

ـ لكنكِ جئتِ من أجل زوجك... قال مساعد المخرج بحزن.

ـ أي حظ سيء! قال المخرج. أجمل امرأة في العاصمة، وعازف ترومبيت حيوان يبقيها حبيسة قفص، بحيث لم نعد نراها في أي مكان أبداً منذ سنين...

ـ اللعنة! قال المصور (الشاب صاحب الكنزة المثقَّبة)، يجب أن نحتفل بهذه المناسبة!»

كانوا يتخيلون أنهم يخصُّون ملكةً متألِّقةً بإعجابٍ سرعان ما تلقي به في سلة قصبٍ مليئة بهدايا مُزْدَراة. وخلال ذلك الوقت كانت هي تستقبل كلماتهم بامتنان مثلما تتكئ فتاةٌ عرجاء إلى ذراعٍ عطوفة.

12

كانت أولغا تتكلم بينما جاكوب يفكر بأنه أعطى السمَّ للشابة المجهولة وأنها ربما تبتلعه في أية لحظة.

حدث ذلك فجأةً، حدث بسرعةٍ لم تُتِح له الوقتَ للانتباه إلى وقوعه. حدث دون علمه.

كانت أولغا ماتزال تتكلم بينما جاكوب يبحث في ذهنه عن تبريرات لتصرفه، ويقول لنفسه بأنه لم يشأ أن يعطي الشابة الأنبوب، وأنها هي، وهي وحدها التي أجبرته على ذلك.

لكنه فهم في الحال أن هذا عذر سهل. كانت أمامه ألف إمكانية لعدم إعطائها إياه. كان باستطاعته أن يواجه وقاحةَ الشابة بوقاحته هو، أن يُسقِط الحبة الأولى بهدوء من الأنبوب في باطن يده ويضعها في جيبه.

وبما أنه افتقر إلى حضور الذهن ولم يفعل شيئاً من ذلك، فإنَّ بوسعه الانطلاق في إثر الشابة والاعتراف لها بوجود سمٍّ في الأنبوب. ليس صعباً أن يشرح لها ماحدث.

لكنه بدلاً من أن يفعل، بقي جالساً فوق كرسيه، ينظر إلى أولغا

التي تشرح له شيئاً. يجب أن ينهض، أن يبدأ بالركض لكي يلحق بالممرضة. مازال الوقت مناسباً. ومن واجبه أن يفعل كل شيء لإنقاذ حياتها. لماذا يبقى جالساً فوق كرسيه إذن، لماذا لا يتحرك؟

راحت أولغا تتكلم وهو مندهش من بقائه جالساً فوق كرسيه ومن كونه لا يتحرك.

قرر للتو أن عليه النهوض في الحال والانطلاق بحثاً عن الممرضة. راح يتساءل كيف سيشرح لأولغا بأن عليه الذهاب. هل عليه أن يعترف لها بما حدث؟ توصل إلى أنه لا يستطيع الاعتراف لها بذلك. ما الذي سيحدث إذا تناولت الممرضة الحبة قبل أن يتمكن من اللحاق بها؟ هل يجب أن تعرف أولغا أن جاكوب قاتل؟ وحتى إذا لحق بها في الوقت المناسب، كيف سيتمكن من تبرير نفسه في عيني أولغا وإفهامِها سبب تردُّدِهِ كل هذا الوقت؟ كيف سيشرح لها أنه أعطى تلك المرأة الأنبوب؟ لابد أنه منذ الآن، وبسبب هذه اللحظة التي بقي فيها مسمَّراً إلى كرسيه، دون أن يفعل شيئاً، لابد أنه يُعتَبر قاتلاً في نظر كل مراقِب!

لا، إنه لا يستطيع أن يبوح لأولغا بما يعتمل في نفسه، وماذا يمكنه أن يقول لها؟ كيف يشرح لها نهوضه فجأةً لكي يركض ويعلم الله إلى أين؟

ولكن هل ماسيقوله لها مهمّ؟ كيف يمكن أن تشغله حماقات مشابهة؟ كيف يمكن أن يقلقه ما ستقوله أولغا حين يتعلق الأمر بحياة إنسانٍ أو موته؟

كان يعرف أن أفكاره ليست في محلها أبداً، وأن كل ثانية من التردد تؤدي إلى تفاقم الخطر الذي يهدد الممرضة. في الواقع كان الأوان قد فات. فمنذ وقت تردده ابتعدت مع صديقها عن المطعم ـ المشرب إلى درجةٍ لن يتمكّن جاكوب معها من معرفة حتى في أي اتجاه يبحث عنها. هل يعرف على الأقل أين ذهبا؟ أي طريق يسلك لكي يجدهما؟

لكنه مالبث أن لام نفسه على هذه الفكرة التي لم تكن سوى عذر جديد. لاشك أن العثور عليهما بسرعةٍ أمرٌ صعب، لكنه ليس مستحيلاً. لم يفت الأوان كثيراً جداً، لكن عليه أن يتصرف في الحال، وإلاً فات الأوان!

«بدأ نهاري بشكل سيء، قالت أولغا. لم أستيقظ، وتأخرتُ على وجبة الفطور فرفضوا أن يخدموني، وفي الحمامات جاء أولئك السينمائيون الأغبياء. كم كنت أرغب أن يكون نهاراً جميلاً، لأنه آخر نهار أقضيه معك. هذا مهم جداً لي. ولكن هل تعرف ياجاكوب إلى أي حد هذا مهم لي؟»

انحنت فوق الطاولة وأمسكت بيديه.

«لاتخشي شيئاً، ليس هناك أي سبب لكي تقضي نهاراً سيئاً»، قال لها بصعوبة، لأنه كان عاجزاً عن تركيز اهتمامه عليها. ثمة صوت يذكِّره بلا انقطاع بأن الممرضة تحمل سماً في حقيبتها وأن حياتها وموتها متعلقان به. كان صوتاً وقحاً ملحّاً، لكنه في الوقت نفسه ضعيف على نحو غريب، يبدو أنه يصله من أعماق سحيقة.

13

كان كليما يقود روزينا بالسيارة على طول طريق في الغابة، ملاحظاً أن النزهة بالسيارة الفاخرة ليست في صالحه أبداً. لم يستطع شيءُ إلهاءَ روزينا عن صمتها العنيد، وبقي عازف الترومبيت وقتاً طويلاً دون أن يتكلم. وعندما غدا الصمتُ أثقل مما يجب، قال: «هل ستأتين إلى الحفلة؟

ـ لا أعرف، أجابت.

ـ تعالي»، قال، وشكلت الحفلةُ المسائية ذريعةً لحديثٍ يبعدهما لحظةً عن موضوع شجارهما. بذل كليما جهداً ليتكلم بأسلوبٍ سارّ

عن الطبيب الذي يعزف على الطبول، وقرر إرجاءَ اللقاء الحاسم مع روزينا حتى المساء.

«آمل أن تنتظريني بعد الحفلة، قال. مثل المرة الماضية...» حالما لفظ تلك الكلمات الأخيرة، أدركَ مغزاها. «مثل المرة الماضية»، أي أنهما سيمارسان الحب معاً بعد الحفلة. يا إلهي، كيف لم يفكر بهذا الاحتمال؟

كان ذلك غريباً، لكنَّ فكرة النوم معها حتى لم تخطر له قبل تلك اللحظة. إن كونُ روزينا حبلى يدفعها ذلك ببطء وبشكل غير محسوس إلى منطقة القلق التي تتَّصِف بالبرود الجنسي. لاشك أنه أجبرَ نفسَه على إظهار الرقة معها، على تقبيلها ومداعبتها، وحرص على القيامِ بذلك، لكن ذلك لم يكن سوى حركة، إشارة فارغة غابت عنها ميولُ الجسد كلياً.

بينما كان الآن يفكر بهذا قال لنفسه إن هذه اللامبالاة إزاء جسد روزينا هي أخطر غلطة ارتكبها خلال الأيام الأخيرة. نعم، بات الأمر واضحاً له تماماً (وحقد على الأصدقاء الذين استشارهم لأنهم لم يلفتوا نظره إلى هذه الناحية): النوم معها ضروري حتماً! لأن صِفَةَ الغريبةِ التي لَبِسَت الشابةَ فجأةً، والتي لم يكن هناك من وسيلة لخرقها تعود إلى بقاء جسديهما متباعِدَيْن. وهو حين رفضَ الطفلَ، زهرةَ أحشاءِ روزينا، فقد رفضَ الجسدَ الحاملَ، الرفضَ الجارِحَ نفسَه. كان يجب بالأحرى إذن إظهار اهتمام أكبر بالجسد الآخر (غير الحامل). يجب وضع الجسد غير المخصِب مقابل الجسد المخصِب والعثور على حليفٍ فيه.

حين أجرى هذه المحاكمة شعر بأمل جديد يولد في نفسه. ضمَّ كتفي روزينا ومال نحوها: «يؤلمني أن نتشاجر. اسمعي، سنجد حلاً. الشيء الرئيسي هو أن نكون معاً، لن ندع أحداً يحرمنا من هذه الليلة وستكون ليلةً بمثل جمال المرة السابقة».

كان يمسك المقود بيد ويضم كتفي روزينا باليد الأخرى، وفجأةً شعر بالرغبة تصعد في داخله لدى ملامسة الجسد العاري

لهذه المرأة الشابة. اغتبط لذلك لأن هذه الرغبة تزوده باللغة المشتركة الوحيدة التي يمكن أن يتكلمها معها.

«وأين سنلتقي؟» سألتْ.

لم يكن كليما يجهل أن مدينة المياه بأسرها سوف ترى بصحبة مَنْ سيغادر الحفلة. لكن لم يكن هنالك من مهرَب:

«تعالي إليَّ خلف المنصة حالما أنتهي».

14

بينما كان كليما يتعجَّل العودة إلى بيت الشعب لمراجعة البروفة الأخيرة لمقطوعتَيْ *سان لويس بلوز* و *عندما يمضي القديسون* كانت روزينا تنظر حولها بقلق. لقد تأكدت قبل لحظات، عدة مرات، في السيارة ومن خلال المرآة العاكسة، أنه يتبعهما من بعيدٍ فوق دراجته. أما الآن فإنها لا تراه في أي مكان.

أحسَّت أنها تشبه هارِباً يطارده الوقتُ. وتدرك أن عليها من الآن حتى اليوم التالي أن تعرف ما تريد، لكنها لم تكن تعرف شيئاً. ليس في العالم كائن واحد تثق به. أسرتها غريبة عنها. فرانتيزيك يحبها، لكنها كانت تحذر منه لهذا السبب بالتحديد (مثلما تَحْذَرُ الظبيةُ من الصياد). حذرها من كليما يشبه (حذر الصياد من الظبية). إنها تحب زميلاتها حقاً، لكنها لا تثق بهن تماماً (مثلما يَحذَر الصياد من الصيادين الآخرين). إنها وحيدة في الحياة ومنذ بضعة أسابيع أصبح لديها رفيق غريب تحمله في أحشائها ويزعم البعضُ أنه فرصتُها الأعظم، والبعض الآخر عكس ذلك تماماً، ولاتشعر هي بغير اللامبالاة تجاهه.

لم تكن تعرف شيئاً. إنها ممتلئة حتى قمة رأسها بالجهل. ليست أكثر من جهل. تجهل حتى إلى أين تمضي.

مرت للتو أمام مطعم سلافيا، أسوأ مؤسسات المحطة، وهو

أيضاً مقهى قذر يشرب فيه أهل البلد البيرة ويبصقون على الأرض. لاشك أنه كان في السابق أفضل مطعم في مدينة المياه. ومن آثار تلك الأيام بقيت في الحديقة الصغيرة ثلاث طاولات خشبية مطلية باللون الأحمر (تَقَشَّرَ الطلاء) مع الكراسي، بمثابة ذكرى للمتعة البرجوازية بالجوقات الموسيقية التي تعزف في الهواء الطلق، والاجتماعات الراقصة والمظلات المسنودة إلى المقاعد. ولكن ما الذي كانت روزينا تعرفه عن الحياة، وهي التي لا تسير في الحياة إلا على معبر الحاضر الضيق المحروم من أية ذاكرة تاريخية؟ لم يكن بوسعها أن ترى ظِلَّ المظلةِ الوردية، المنبعث من زمنٍ بعيد حتى هنا، لم تكن ترى سوى ثلاثة رجال يرتدون الجينز، وامرأة جميلة وزجاجة نبيذ وسط طاولة بلا غطاء.

ناداها أحد الرجال. التفتت وعرفت المصور صاحب الكنزة المثقَّبة.

«تعالي اشربي معنا كأساً»، صاح بها. وأطاعت.

«بفضل هذه الآنسة الجذابة استطعنا اليوم أن نصور فيلماً إباحياً قصيراً»، قال المصور وهو يقدم روزينا للمرأة التي مدت لها يدها وهمست باسمها على نحو غير مفهوم.

جلست روزينا بجانب المصور الذي وضع أمامها كأساً وصبَّ فيه النبيذ.

كانت روزينا ممتنَّةً لأن شيئاً ما قد حدثَ. لأنها لم تعد مضطرة لأن تتساءل إلى أين تذهب ولا ماذا عليها أن تفعل. لأنها لم تعد مضطرة لأن تقرر الاحتفاظ بالطفل أو عدم الاحتفاظ به.

15

أخيراً فعلَ. دفع الحساب للنادل وقال لأولغا إنه مضطر أن يتركها وأنهما سيلتقيان قبل الحفلة.

سألته أولغا عما سيفعله، وانتاب جاكوب الشعور المزعج لشخصٍ يُستَجْوَب. أجاب أن لديه موعداً مع سكريتا.

«حسن جداً، قالت، عسى ألا يأخذ منك وقتاً طويلاً جداً. سأذهب لتغيير ملابسي وأنتظرك هنا الساعة السادسة. أدعوك للعشاء».

رافق جاكوب أولغا إلى مجمع كارل ماركس. وحين اختفت في الممر المؤدي إلى الغرف توجه إلى البواب:

«من فضلك، هل الآنسة روزينا في غرفتها؟

ـ لا، قال البواب. المفتاح معلق على اللوحة.

ـ لدي شيء عاجل إلى أقصى حد أقوله لها، قال جاكوب. هل تعرف أين يمكن أن أجدها؟

ـ ليست لدي أية فكرة.

ـ رأيتها منذ لحظة مع عازف الترومبيت الذي سيقدم حفلةً هنا هذا المساء.

ـ نعم، أنا أيضاً سمعتُ أنها تخرج معه، قال البواب. في هذه الساعة لابد أنه يتمرن في بيت الشعب».

عندما لمح الدكتور سكريتا الذي يتصدَّر المنصة خلف طبوله، جاكوب في إطار الباب، أشار له بيده. ابتسم له جاكوب وتملّى صفوف المقاعد التي شغَلَتها دزينة من المتحمسين. (نعم، كانَ فرانتيزيك الذي أصبح ظلاً لِكليما بينهم.) جلس جاكوب بدوره، آملاً أن تظهر الممرضة أخيراً.

راح يتساءل أين يمكنه أن يذهب أيضاً للبحث عنها. في تلك الدقيقة يمكن أن تتواجد في أماكن مختلفة جداً، ليست لديه أية فكرة عنها. هل عليه أن يسأل عازف الترومبيت؟ ولكن كيف يطرح عليه السؤال؟ وماذا لو أن شيئاً حلَّ بروزينا؟ سبق أن قال جاكوب لنفسه إن موت الممرضة المحتمَل لن يكون له تفسير أبداً، وإنَّ القاتل الذي يقتل بلا سبب لايمكن أن يُكتَشف. هل يلفت الأنظار إليه؟ هل يترك أثراً ويعرِّض نفسه للشبهات؟

ذكَّرَ نفسَهُ بضرورة الانضباط. ثمة حياة إنسان في خطر ولا يحق له أن يحاكم الأمر بهذه النذالة. استفاد من وقفة بين مقطوعتين وصعد فوق المنصة من الخلف. التفت إليه سكريتا مشرق الوجه، لكن جاكوب وضع إصبعاً فوق شفته ورجاهُ هامساً أن يسأل عازف الترومبيت عن مكان الممرضة التي رآها معه في المطعم ـ المشرب قبل ساعة من الآن.

«ماذا تريدون منها كلكم؟ دمدم سكريتا بهيئة مقطَّبة. أين روزينا؟» صرخ بعدها لعازف الترومبيت الذي احمرَّ وقال بأنه ليست لديه فكرة.

«أحسن! قال جاكوب بطريقة الاعتذار. تابعوا!

ـ كيف تجد فرقتنا؟ سأله الدكتور سكريتا.

ـ ممتازة»، قال جاكوب ونزل للجلوس في القاعة. كان يعرف أنه مايزال يتصرف بشكل سيء للغاية. فلو أنه مهتم حقاً بحياة روزينا لَهَزَّ السماء والأرض واستنفر العالم بكامله للعثور عليها بأسرع ما يمكن. لكنه لم يبدأ بالبحث عنها إلا لكي يجد مبرراً أمام ضميره.

استعادَ اللحظة التي أعطاها فيها الأنبوب الذي يحتوي السم. هل حدث ذلك بسرعةٍ حقاً بحيث لم يجد الوقت للانتباه إليه؟ هل حدث ذلك من دون علمه؟

كان جاكوب يعرف أن هذا غير صحيح. لم يكن ضميرُهُ نائماً. استرجعَ الوجه تحت الشعر الأصفر وفهمَ أنه ليس مصادفةً (ليس بسبب نوم ضميره) أنه أعطى الممرضةَ الأنبوب المحتوي على السم، بل إنَّ هذا الفعل بالنسبة له تعبير عن رغبة قديمة كانت تتحيَّنُ الفرصة منذ سنين، رغبة كانت من القوة بحيث أنَّ الفرصةَ أطاعتْ أخيراً وحانت.

ارتجف ونهض من مقعده. مضى راكضاً نحو مجمَّع كارل ماركس، لكن روزينا لم تكن قد عادت إلى غرفتها بعد.

16

ياللبراءة الريفية، ياللراحة! ياللفاصل في منتصف المسرحية! ياللعصرونية المثيرة بصحبة ثلاثة فحول!

مُعَذِّبَتا عازفِ الترومبيت، مصيبتاه، جالستان وجهاً لوجه، تشربان نبيذاً من الزجاجة نفسها، وكلتاهما سعيدتان بالقدر نفسه لوجودهما هنا، ولِتَمَكُّنِهما، ولو للحظة، من فعلِ شيء آخر غير التفكير به. أي تواطؤ مؤثِّر، أي انسجام!

كاميلا تنظر إلى الرجال الثلاثة. كانت فيما مضى تشكل جزءاً من دائرتهم، وتنظر إليهم الآن كما لو أنها تنظر إلى مسوّدة حياتها الحاضرة. هاهي غارقة في الهموم، تواجه خُلُوَّ البال الصِّرْف. هي المقيَّدة إلى أصفاد رجل واحد، هاهي تجلس مقابل ثلاثة فحول يجسِّدون الرجولةَ في تَنَوُّعِها اللانهائي.

كلام الفحول يرمي إلى هدف واضح: قضاء الليلة مع المرأتين، قضاء الليلة بين خمسة أشخاص معاً. هذا هدف وهمي، لأنهم يعرفون أن زوج كاميلا هنا، لكن هذا الهدف جميل إلى درجة أنهم كانوا يسعون إليه وهم يعرفون أنه لايمكن بلوغه.

كانت كاميلا تعرف إلى أين يريدون الوصول، واستسلمت لملاحقة هذا الهدف بسهولة، خصوصاً أنه لم يكن أكثر من نزوة، من لعبة، من حلمِ يقظةٍ. راحت تضحك من كلامهم الملتبس، تتبادل مزحاتٍ مشجِّعة مع شريكتها المجهولة وتتمنى إطالة هذا الفاصل في المسرحية أكبر قدرٍ ممكن لكي تؤخِّر لحظةَ رؤية غريمتها ومواجهة الحقيقة طويلاً.

زجاجة نبيذ أخرى، الجميع مبتهجون، الجميع ثملون قليلاً، لكنَّ هناك من النبيذ أقَلّ مما هناك من هذا الجو الغريب، من هذه الرغبة بإطالة اللحظة التي ستمضي بسرعة شديدة.

شعرت كاميلا بساق المخرج تضغط ساقها اليسرى تحت الطاولة. كانت تعي ذلك جيداً لكنها لاتبعد ساقها. إنه احتكاك يقيم بينهما تواصلاً حسياً، لكنه كان يمكن أيضاً أن يحدث مصادفةً، وكان يمكن ألاً تنتبه له طالما أنه قليل الشأن بهذا الشكل. إنه إذن، احتكاك قائم تماماً عند الحدود بين البراءة والفحش. لاتريد كاميلا تجاوز هذه الحدود، لكنها سعيدة لتمَكُّنها من المكوث عندها (عند هذا الحيِّز الهزيل جداً من حريةٍ فجائية) وسيبهجُها أكثر انتقالُ هذا الخط السحري من تلقاء نفسه نحو تلميحات أخرى كلامية، نحو ملامسات أخرى وألعاب أخرى. إنها ترغب بأن تُجرَف بعيداً بعيداً، تحميها البراءةُ الملتبَسة لتلك الحدود المتحرِّكة.

في حين كان جمالُ كاميلا، الباهرُ إلى درجة يكاد يصير معها مزعجاً، يُرغِم المخرجَ على قيادة هجومه ببطءٍ حذِر، فقد كان سحرُ روزينا العاديّ يجتذب المصور بعنفٍ وبلا مواربة. ضمها واضعاً يده فوق نهدها.

راحت كاميلا تراقب المشهد. فهي منذ زمن طويل لم ترَ عن كثب حركات الآخرين غير المحتشمة! راحت تنظر إلى يد الرجل وهي تغطي نهد المرأة الشابة، تعجنه، تضغطه وتداعبه عبر الملابس. راحت تراقب وجه روزينا الساكن، السلبي، الذي ترتسم عليه علائم الاستسلام الحسي. اليد تداعب النهد، والزمن يمر بهدوء، وكاميلا تحس برُكبة مساعد المخرج فوق ساقها الأخرى.

وفي تلك اللحظة قالت: «لا أمانع أن نحتفل طوال الليل.

ـ وليأخذ الشيطانُ زوجَكِ عازف الترومبيت! أجاب المخرج.

ـ نعم، ليأخذه الشيطان»، ردد المساعد.

17

في تلك اللحظة عرفتها روزينا. إنه حقاً الوجه الذي أرَتْها إياه زميلتاها في الصورة! أبعدَتْ يدَ المصور بخشونة.

احتجَّ هذا وقال: «أنتِ مجنونة!»

حاول ضمَّها من جديد، وصدَّتْهُ من جديد.

«ما هذا الذي تسمح لنفسكَ به!» صرختْ في وجهه.

انفجر المخرج ومساعده ضاحكين. «هل تتكلمين بجدّ؟ سأل المساعدُ روزينا.

ـ طبعاً، أتكلم بجدّ»، أجابت بقسوة.

نظر المساعد إلى ساعته وقال للمصور: «إنها تمام السادسة. حدث هذا التحوُّل لأن صديقتنا تتصرف كامرأة فاضلة في الساعات الزوجية. عليك أن تصبر إذن حتى السابعة».

من جديد انفجرت الضحكات فاحمرَّتْ روزينا من الإذلال. استسلمت لغريبٍ فاجأها بوضع يده على نهدها. باغتها رجلٌ راح يُدَسْدِسُها ولم تُقاوم. وضبَطَتْها أسوأُ غريمةٍ لها والجميع يسخر منها.

قال المخرج للمصور: «ربما يتوجب عليك أن ترجو من الآنسة التَّفضُّلَ واعتِبار الساعة 6 ساعةً فردية.

ـ من الناحية النظرية، هل يمكن، باعتقادك، اعتبار 6 عدداً فردياً؟ سأل المساعد.

ـ نعم، قال المخرج. أقليدس قال ذلك حرفياً في مبادئه

الشهيرة: في بعض الظروف الخاصة والغامضة جداً، بعض الأعداد الزوجية تنحو منحى الأعداد الفردية. يبدو لي أننا الآن نواجه تلك الظروف الغامضة.

- بالتالي، هل تقبلين ياروزينا أن تعتبري الساعة 6 ساعةً فردية؟»

لزمت روزينا الصمت.

«هل تقبلين؟ قال المصور وهو يميل نحوها.

- الآنسة صامتة، قال المساعد. علينا نحن أن نقرر إذن، هل يجب تفسير هذا الصمت على أنه قبول أم رفض.

- يمكن أن نصوِّت، قال المخرج.

- صحيح، قال المساعد. مَنْ مع قبول روزينا بأن يكون ستة عدداً فردياً؟ كاميلا! أنتِ أول المصوِّتين!

- أظن أن روزينا موافقة حتماً، قالت كاميلا.

- وأنت، حضرة المخرج؟

- أنا مقتنع، قال المخرج بصوته الناعم، أن الآنسة روزينا ستقبل أن تعتبر الستة عدداً فردياً.

- المصور أكثر التصاقاً بالموضوع من أن يُدلي بصوته. أما أنا فأصوِّت مع، قال المساعد. قررنا إذن، بثلاثة أصوات، أنَّ صمتَ روزينا يعادل قبولاً. ينتج عن ذلك، حضرة المصور، أنَّ بوسعك المضيّ فيما باشرت به».

انحنى المصور فوق روزينا وضمَّها بحيث لامست يده نهدها من جديد. صدَّتهُ روزينا بعنف أكبر من المرة السابقة وصرخت فيه: «أبعِدْ قائمتك القذرة!»

توسَّطت كاميلا في النزاع:

«ما بالك ياروزينا، إذا كنتِ تعجبينه بهذه القوة فليس الأمر في يده. كنا جميعاً مبتهجين جداً...».

قبل بضع دقائق من الآن كانت روزينا سلبية تماماً ومستسلمة لتيار الأحداث لكي تفعل بها ماتشاء، كما لو أنها تتطلّع لقراءة مصيرها في المصادفات التي ستحدث. كانت ستستسلم للاختطاف، للإغواء، وستقتنع بأي شيء، لا لشيء إلاّ لكي تهرب من المأزق الذي وقعت في شرَكِه.

لكن المصير الذي تطلّعتْ إليه بتوسُّل ظهر مُعادياً فجأةً، لذا راحت روزينا، التي تعرَّضت للإهانة والسخرية، تقول لنفسها إنها لا تملك سوى سندٍ متين واحد، عِزاء واحد، فرصة واحدة للخلاص: الجنين الكامن في أحشائها. كلُّ روحِها (مرة أخرى! مرة أخرى!) نزلت إلى الأسفل، إلى الداخل، إلى أعماق جِسدها، وراحت تزداد قناعةً أكثر فأكثر بأن عليها ألاَّ تنفصل أبداً عن ذلك الجنين الذي يُبَرعَم في داخلها بسَكينة. إنها تملك فيه ورقتها الرابحة السرية التي ترفعها عالياً جداً فوق ضحكاتهم وأيديهم القذرة. كانت لديها ألف رغبة بأن تقول لهم ذلك، أن تصرخ به في وجوههم، تنتقم منهم ومن تَهَكُّمِهم، تنتقم من نفسها ومن حفاوتها المتسامحة.

عليها أن تتحلى خصوصاً بالهدوء! قالت لنفسها وبحثت في حقيبة يدها عن الأنبوب. كانت قد أخرجته للتو حين شعرت بيد تضغط بثبات على معصمها.

18

لم يره أحد يقترب. ظهر على حين غرة، ورأت روزينا، التي التفتت للتو برأسها، ابتسامتَهُ.

كان مايزال ممسكاً بيد روزينا، وهي تحسُّ بملامسة أصابعه القوية فوق معصمها، وأطاعت: سقط الأنبوب في قعر حقيبة اليد.

«اسمحوا لي أيتها السيدات والسادة، بالجلوس إلى طاولتكم. أُدعى برتليف».

لم يكن أيٌّ من الرجال متحمِّساً لمجيء الدخيل، لم يقدِّم أحدٌ نفسَه، ولم تكن روزينا معتادة على الاختلاط في المجتمع بما يكفي لكي تعرِّفه على أصحابها.

«يبدو أن وصولي المفاجئ قد بلبَلَكُم»، قال برتليف. أخذ كرسياً من طاولة مجاورة وجرَّها حتى الطرف الحر للطاولة، بحيث تَرَأَسَها وكانت روزينا إلى يمينه. ثم استأنف: «اعذروني، فمنذ زمن طويل تشكَّلتْ لديَّ عادةٌ غريبة، فبدلاً من أن آتيَ اعتدتُ أن أظْهَر.

ـ اسمح لنا في هذه الحالة، قال المساعد، أن نعاملك على أنك ظُهورٌ عابر، وألاَّ نعبأ بك.

ـ أسمحُ لكم بكل طيبة خاطر، قال برتليف وهو ينحني بشكل طفيف. لكنني أخشى، رغم كل حُسْنِ نيَّتي، ألاَّ تتمكنوا من ذلك».

ثم التفت نحو باب قاعة المقهى المُضاء، وصفَّق بيديه.

«مَن دعاكَ إلى هنا، ياحضرة المدير؟ سأل المصور.

ـ هل تعني بذلك أنني لست على الرحب والسعة؟ يمكنني أن أنصرف في الحال مع روزينا، لكنَّ العادة هي العادة. فأنا آتي إلى هنا كل يوم، إلى هذه الطاولة، في أواخر فترة بعد الظهر لأشرب زجاجة نبيذ». تفحَّص البطاقة التعريفية للزجاجة الموضوعة على الطاولة: «لكنه حتماً أفضل من النبيذ الذي تشربونه الآن.

ـ أتساءل ماذا تفعل لكي تعثر على نبيذ في هذا المطعم الحقير، قال مساعد المصور.

ـ لدي انطباع، حضرةَ المدير، بأنك تتباهى كثيراً، أضاف المصور، ساعياً إلى جَعْلِ الدخيل مَثاراً للسخرية. صحيح أن الإنسان، اعتباراً من عمرٍ معينٍ، لايستطيع أن يفعل شيئاً آخر.

ـ أنت مخطئ، قال برتليف، كما لو أنه لم يسمع إهانة المصور، ما زالوا يخبِّئون هنا زجاجات نبيذ أفضل بكثير مما يمكن أن يوجد في أكبر الفنادق».

كان قد مدّ يده نحو صاحب المطعم الذي بالكاد شوهِد خلال كل ذلك الوقت، لكنه ظهر الآن وبدأ يرحِّب بِ برتليف ويسأله: «هل نُعدّ طاولة للجميع؟

ـ بالتأكيد، أجاب برتليف، وقال وهو يلتفت نحو الآخرين: سيداتي سادتي، أدعوكم لتشربوا معي نبيذاً طالما ثمَّنتُ مذاقَهُ ووجدتُهُ ممتازاً. هل تقبلون؟»

لم يرد أحد على برتليف وقال صاحب المطعم: «حين يتعلق الأمر بالشراب والطعام، أستطيع أن أوصي السيدات والسادة بأن يثقوا كل الثقة بالسيد برتليف.

ـ ياصديقي، أحضِرْ زجاجتين وصينية أجبان كبيرة». قال برتليف لصاحب المطعم. ثم أضاف ملتفتاً نحو الآخرين: «لن يجدي تردُّدُكم نفعاً، فأصدقاء روزينا هم أصدقائي».

هرع من قاعة المقهى صبي بالكاد يبلغ الثانية عشرة من عمره وهو يحمل صينية عليها كؤوس، ومفرَش طاولة. وضع الصينية فوق الطاولة المجاورة وانحنى من فوق أكتاف الزبائن لرفع كؤوسهم نصف الممتلئة. صَفَّها مع الزجاجة التي كانوا قد بدؤوا بها فوق الطاولة التي وضع عليها الصينية. ثم أسهبَ في مسح الطاولة التي كانت وسخة بشكل مرئي، ومدَّ فوقها مفرَشاً ساطع البَياض. ثم التفت إلى الطاولة المجاورة، تناول الكؤوس التي رفعها للتو وأراد أن يضعها أمام الزبائن.

«ارفع هذه الكؤوس وزجاجة الخمر الرديء هذه، قال برتليف للصبي. سيحضر لنا والدك زجاجةً أفضل».

احتجَّ المصور: «حضرة المدير هل تتلطَّف وتدعنا نشرب مانريد؟

ـ كما تشاؤون، ياسيدي، قال برتليف. أنا لستُ من أنصار فَرْضِ السعادة على الآخرين. لكلٍّ الحق بنبيذه الرديء وحماقته،

وبالقذارة تحت أظافره. اسمع يا صغيري، أضاف مخاطباً الصبي: أعطِ كل شخص كأسه القديمة وكأساً فارغاً. هكذا سيستطيع ضيوفي أن يختاروا بحرية بين نبيذٍ هو نتاجُ الضباب، ونبيذٍ هو ابن الشمس».

أصبح هناك إذن كأسان لكل شخص، كأس فارغة وكأس تحوي بقايا نبيذ. اقترب صاحب المطعم من الطاولة حاملاً زجاجتين، ضمَّ الأولى بين ركبتيه وسحب السدادة بحركة استعراضية كبيرة، ثم سكب قليلاً من النبيذ في كأس برتليف. حمل هذا الكأسَ إلى شفتيه، تذوَّق والتفت نحو صاحب المطعم: «إنه ممتاز. هل يعود لسنة 23؟

ـ 22، صحح صاحب المطعم.

ـ املأ لنا!» قال برتليف، ودار صاحب المطعم حول الطاولة فملأ جميع الكؤوس الفارغة.

حمل برتليف كأسه بين أصابعه. «أصدقائي، تذوَّقوا هذا النبيذ. إنه يحمل نكهة الماضي. تذوَّقوه باستمتاع كما لو أنكم تشفطون، وأنتم تمصُّون عظماً طويلاً مليئاً بالنخاع، صيفاً منسياً منذ زمن بعيد. أودُّ، وأنا أشرب، أن أزاوِج الماضي بالحاضر وشمسَ سنة 1922 بشمسِ هذه اللحظة. هذه الشمس هي روزينا، الشابة البسيطة التي هي مَلِكة دون أن تعرف. إنها في اللوحة الخلفية لمدينة المياه هذه مثل الماسةِ على ثوبِ متسوِّل. إنها مثل هلالِ قمرٍ منسيٍّ في سماء النهار الشاحبة. مثل فراشة ترفرف فوق الثلج».

ضحك المصور ضحكةً قسرية: «ألا تبالغ، حضرة المدير؟

ـ لا، لاأبالغ، قال برتليف، وتوجَّه مخاطباً المصور. لديك هذا الانطباع لأنك لا تقيم إلا في أقبية الكائن، أنتَ يا خَلٌ تَشَبَّهَ بالإنسان! إنك تفيض بأحماضٍ تغلي فيك مثلما تغلي في قِدْرِ كيميائيّ! إنك لتقدِّم

حياتك من أجل أن تكتشف ـ حولَكَ ـ البشاعةَ الموجودةَ في داخلك أنت. تلك هي الوسيلة الوحيدة بالنسبة لك حتى تشعر لحظةً بالسلام مع العالم. لأن العالم، الذي هو جميل، يخيفُكَ، يوجِعُكَ، ويبعدك عن مركزه باستمرار. وباعتبار أنَّ القذارة التي يحملها الرجل تحت أظافره لاتُطاق حين تكون إلى جانبه امرأة جميلة، لذا يجب أولاً توسيخ المرأة ثم الاستمتاع بها. أليس كذلك يا سيدي؟ أنا سعيد لأنك تخبئ أظافرك تحت الطاولة، كنتُ حتماً محقّاً بالكلام عن أظافرك.

ـ أنا لا تعنيني كل أساليبكَ المتأنِّقة، ولستُ مثلكَ مهرِّجاً يرتدي ياقة بيضاء وربطة عنق، قاطعه المصور.

ـ أظافرك القذرة وكنزتك المثقَّبة ليسا شيئاً جديداً تحت الشمس، قال برتليف. كان هناك في الماضي فيلسوف من أنصار المذهب الكلبيّ يتبختر في شوارع أثينا بمعطفٍ مثقَّب، لكي ينال إعجاب الجميع بإظهار احتقاره للأعراف أمام الملأ. التقى به سقراط في أحد الأيام وقال له: «أرى زُهوَّكَ من خلال ثقب معطفك». قذارتك ياسيدي، زهوٌّ أيضاً، وزهوُّكَ قذِرٌ».

باتت روزينا عاجزة عن الإفاقة من ذهولها. فالرجل الذي عرفته معرفة غائمة كواحد من النزلاء الذين قدموا للاستشفاء جاء لنجدتها كما لو أنه سقط من السماء، وفَتَنَتْها تلقائيةُ سلوكه الجذابة وثقتُهُ الطاغية التي أحالتْ وقاحةَ المصور إلى رماد.

«أرى أنك فقدتَ الكلمات، قال برتليف للمصور، بعد صمتٍ قصير، وصدِّقْني إنني لم أشأ إهانتك أبداً. أحب الوفاق وليس الشقاق، واعذرني إذا انجَرَرْتُ مع الفصاحة. لا أريد سوى شيء واحد أن تتذوقوا هذا النبيذ وتشربوا معي بصحة روزينا التي أتيتُ لأجلها».

كان برتليف قد رفع كأسه، وقال مخاطباً صاحب المطعم: «ستشرب معنا!

ـ من هذا النبيذ، موافق دوماً»، قال المدير، وتناول كأساً فارغة عن الطاولة المجاورة وملأها بالنبيذ. «السيد برتليف يعرف جيداً كيف يميز الخمور الجيدة. لقد شعرَ منذ زمن طويل بوجودِ كهفي مثلما يشعر السنونو بوجود عشه».

أطلق برتليف ضحكةً سعيدةً لرجلٍ امتُدِحَ فيه حبُّهُ لذاتِه.

«هل تشرب معنا في صحة روزينا؟ قال.

ـ في صحة روزينا؟ سأل صاحب المطعم.

ـ نعم، في صحة روزينا، قال برتليف، مشيراً بناظريه إلى جارته. هل تعجبك بقدر ما تعجبني؟

ـ معك ياسيد برتليف لا يرى المرءُ إلا نساء جميلات. ليس ضرورياً أن ننظر إلى الآنسة لكي نعرف أنها جميلة طالما أنها تجلس بجانبك».

من جديد، أطلق برتليف ضحكته السعيدة. ضحك صاحب المطعم معه، لكن الشيء الغريب أنه حتى كاميلا، التي أمتَعَها قدومُ برتليف منذ البداية، ضحكتْ معهما. كانت ضحكة غير متوقعة إلا أنها مُغذِية بشكل مدهش وغير قابل للتفسير. انضمَّ المخرج بدوره إلى كاميلا بنوعٍ من التضامن الرهيف، تلاهُ مساعد المخرج وأخيراً روزينا التي غرقت في تلك الضحكة متعددة الأصوات مثلما تغرق في عناقٍ نافع. إنها أول ضحكة لها في اليوم، أول لحظة استرخاء وراحة تمر بها. كانت تضحك بشكل أقوى من الجميع ولا ترتوي من الضحك.

رفع برتليف كأسه إلى أعلى. «في صحة روزينا!» رفع صاحب المطعم بدوره كأسه، ثم كاميلا، تلاها المخرج ومساعده، وراح الجميع يرددون وراء برتليف: «في صحة روزينا!» حتى المصور رفع كأسه في النهاية وشرب دون أن يقول كلمة.

تذوَّق المخرج جرعةً وقال: «هذا النبيذ ممتاز حقاً، قال.

ـ قلت لكم ذلك!» قال صاحب المطعم.

كان الصبي قد وضع في تلك الأثناء صينية كبيرة من الأجبان وسط الطاولة، وقال برتليف: «تفضّلوا كُلوا، إنها أجبان رائعة!»

ذُهل المخرج: «أين وجدتَ هذه التشكيلة من الأجبان؟ يظن المرء نفسه في فرنسا».

فجأةً، زال التوتُّر تماماً، واسترخى الجوّ. أخذوا يتكلمون بزلاقة لسان، يتناولون الأجبان، يتساءلون عن المكان الذي أمكن لصاحب المطعم أن يجدها فيه (في هذا البلد الذي توجد فيه أنواع قليلة جداً من الأجبان)، ويصبون النبيذ في الكؤوس.

.وفي أفضل لحظة نهض برتليف وحيًّا: «أسعدتني صحبتكم جداً، وأشكركم. صديقي الدكتور سكريتا سيعزف في حفلة هذا المساء، ونريد أنا وروزينا أن نحضرها».

19

كانت روزينا وبرتليف قد اختفيا للتو في حُجُب الغسق الخفيفة، وضاع تماماً حماسُ البدء الذي جرف مجموعةَ الشاربين نحو جزيرةِ الحلم الداعرة، ولم يكن هناك شيء يستطيع إعادته. استسلم كلُّ شيءٍ للإحباط.

كان الأمر بالنسبة لكاميلا مثل استيقاظٍ من حلم أرادت إطالة المكوث فيه مهما كلَّف الأمر. فكرت أنها غير مضطرةٍ للذهاب إلى الحفلة الموسيقية وأنها ستُفاجأ مفاجأةً خارقة إذا اكتشفت أنها لم تأتِ إلى هنا لكي تلاحق زوجها، بل لكي تعيش مغامرة. وأنه سيكون رائعاً أن تبقى مع السينمائيين الثلاثة وتعود إلى بيتها خفيةً صباح اليوم التالي. ثمة شيء يهمس لها بأنَّ هذا هو مايجب أن تفعله؛ فهو سيكون بمثابة فعل، خلاص، شفاء، يقظة بعد زوال السِّحر.

لكن أوهامها كانت قد زالت أكثر من اللزوم. كفَّت كل أعمال

السحر عن العمل. وألْفتْ نفسَها وحدها مع نفسها، ماضيها، ورأسها الثقيل والمليء بأفكارها القديمة المُغِمَّة. ودَّت لو تُطيل، ولو لبضع ساعات، ذلك الحلم الأقصر من اللازم، لكنها كانت تعرف أن الحلم قد خبا وتبدَّد مثل غبشِ الصباح.

«يجب أن أذهب أنا أيضاً»، قالت.

راحوا يحاولون ردْعَها، وهم يعرفون أنهم ماعادوا يملكون من القوة ومن الثقة بأنفسهم بما يكفي لإبقائها.

«سحقاً، قال المصور. أي شخص كان هذا؟»

أرادوا أن يستفهموا من صاحب المطعم، لكنَّ المكان ومنذ انصراف برتليف خلا مجدداً من أحدٍ يهتم بهم. ومن قاعة المقهى كانت تصل إلى أسماعهم أصواتُ الزبائن الجذلين، وهم جالسون حول الطاولة، مهمَلين أمام بقايا النبيذ والجبن.

«أياً كان، لقد أفسَدَ لنا السهرة. خطفَ منَّا إحدى السيدتين، وهاهي الأخرى تذهب من تلقاء نفسها. سنرافق كاميلا.

ـ لا، قالت هذه، ابقوا هنا. أريد الانفراد بنفسي».

لم تعد معهم. بات حضورهم يزعجها الآن. ومثلما يسعى الموت سَعَت الغيرةُ إليها. وقعت تحت سلطتها وباتت لا تلاحظ أحداً آخر. فنهضت ومضت بالاتجاه الذي ابتعد فيه برتليف مع روزينا منذ لحظة. ومن بعيد سمعت المصور يقول: «سحقاً إذن...».

20

قبل بداية الحفلة، وبعد أن ذهب جاكوب وأولغا لمصافحة سكريتا في المكان المخصص للفنانين، دخلا القاعة. وفي الاستراحة أرادت أولغا الانصراف لكي تتمكن من قضاء الأمسية

وحدها مع جاكوب. فردَّ جاكوب بأن صديقه سيغضب، لكن أولغا راحت تؤكد بأنه حتى لن يلاحظ رحيلهما المبكِّر.

كانت القاعة ممتلئة تماماً ولم يبق سوى مكانهما شاغراً في صفِّهما.

«هذه المرأة تتبعنا مثل ظلنا»، قالت أولغا وهي تنحني نحو جاكوب أثناء الجلوس.

التفت جاكوب برأسه ورأى برتليف بجانب أولغا، وبجانب برتليف الممرضة التي تحمل السم في حقيبة يدها. توقف قلبه لحظةً عن الخفقان، لكنه، وباعتباره جَهِدَ طوال حياته لإخفاء مايجري في أعماقه قال بصوت هادئ تماماً: «ألاحظ أننا في صفٍّ الأماكن المجانية التي وزَّعَها سكريتا على أصدقائه ومعارفه. إنه يعرف إذن أين نحن، وسوف ينتبه لرحيلنا.

ـ ستقول له بأن الصوت سيء في الصفوف الأمامية وأننا، بعد الاستراحة، ذهبنا للجلوس في آخر القاعة»، قالت أولغا.

لكن كليما كان يتقدم على المنصة مع الترومبيت الذهبي وبدأ الجمهور بالتصفيق. عندما ظهر الدكتور سكريتا خلفه، زادت حدة التصفيق وعبرت القاعةَ موجةٌ من الهمسات. كان الدكتور سكريتا يقف بتواضع خلف عازف الترومبيت ويحرك ذراعه بخَرَقٍ لكي يشير إلى أن الشخصية الرئيسية للحفلة هي الضيف القادم من العاصمة. التقط الجمهور خَرَقَ هذه الحركة الفاتن وردَّ بتصفيق أقوى. صاح صوتٌ من داخل القاعة: «يعيش الدكتور سكريتا!»

أما عازف البيانو الأشد تكتُّماً بين الثلاثة والأقل استقطاباً للتصفيق فقد جلس إلى البيانو فوق مقعد منخفض. وجلس سكريتا خلف مجموعة ضخمة من الطبول، وبدأ عازف الترومبيت يروح ويجيء بخطوة رشيقة وموقَّعة بين عازف البيانو وسكريتا.

توقف التصفيق، طرق عازف البيانو لوحة مفاتيحه وبدأ يعزف

الافتتاحية عزفاً منفرداً. لكن جاكوب لاحظ أن صديقه يبدو عصبياً وينظر حوله بهيئة مستاءة. انتبه عازفُ الترومبيت بدوره إلى الضيق الذي يعاني منه الطبيب واقترب منه. همس له سكريتا بشيء. انحنى الرجلان فوق الأرضية، وتفحصاها، ثم التقط عازف الترومبيت عصا صغيرة سقطت أسفل البيانو، ومدَّ يده بها إلى سكريتا.

في تلك اللحظة دوى الجمهور الذي كان يراقب المشهد كله بانتباه، بتصفيق جديد، فأخذ عازف البيانو الذي اعتبَر هذا الهتافَ تكريماً لافتتاحيته، يحيِّي الجمهور دون أن يتوقف عن العزف.

أمسكت أولغا جاكوب من يده وهمست في أذنه: «هذا رائع! رائع إلى درجة أنني أعتقد أن النحس الذي يلاحقني قد انتهى اليوم اعتباراً من هذه اللحظة».

أخيراً تدخَّلَ الترومبيت والطبول. راح كليما ينفخ جيئةً وذهاباً بخطىً قصيرة وموقَّعة وسكريتا متَرَبِّعٌ وراء طبوله مثل بوذا جليلٍ ووقور.

تصورَ جاكوب أن الممرضة ستفكِّر أثناء الحفلة بدوائها، وأنها ستبتلع الحبة، وتنهار تحت وطأة تشنجاتٍ فتمكث ميتة فوق مقعدها، بينما يقرع الدكتور سكريتا طبوله فوق المنصة، والجمهور يصفق ويصيح.

وفجأةً فهم بوضوح لماذا جلست الشابة في الصف الذي جلس فيه نفسه: كان اللقاء الطارئ قبل قليل في المطعم ـ المشرب، هو بمثابة إغواء، امتحان. وإذا حدث، فإنه لم يحدث إلاَّ لكي يرى صورتَهُ في المرآة: صورة رجل يعطي سماً لجاره الإنسان. لكنَّ مَن يمتحنه (الله الذي لايؤمن به) لايطالب بأُضحية دامية، لايطالب بدم الأبرياء. في نهاية الامتحان لايجب أن يكون هنالك موت، بل كشفُ ذاتي لجاكوب أمام نفسه، فقط، لكي يُصادَر منه إلى الأبد، كبرياؤه الروحي الذي ليس في محله. إذا كانت الممرضة جالسة الآن في الصف الذي جلس فيه نفسه، فذلك لكي يتمكن من إنقاذ حياتها في

اللحظة الأخيرة. ولهذا الغرض أيضاً كان إلى جانبها الرجل الذي أصبح صديقَهُ عشيةَ الأمس وسيساعده.

نعم، سينتظر الفرصة الأولى، ربما أول وقفة بين لحْنَيْن، وسيطلب من برتليف والشابة الخروج معه. عندها سيشرح كل شيء، وسينتهي هذا الجنون الذي لايُصَدَّق.

أنهى الموسيقيون المقطوعة الأولى، دوَّى التصفيق، قالت الممرضة: «عذراً» وخرجت من الصف يرافقها برتليف. أراد جاكوب أن ينهض ليلحق بهما، لكن أولغا أمسكت به من ذراعه ومنعته: «لا، من فضلك، ليس الآن. بعد الاستراحة!»

حدث كل شيء بسرعةٍ لم يجد معها الوقت لإدراكه. كان الموسيقيون قد بدأوا المقطوعة التالية وفهم جاكوب أنَّ مَن يمتحنه لم يُجلِسْ روزينا بجانبه لكي يجعله يُكفِّر عن خطاياه، بل لكي يؤكد هزيمته ويؤكد إدانته، فيما وراء كل الشكوك الممكنة.

راح عازف الترومبيت ينفخ في آلته، والدكتور سكريتا ينتصب مثل بوذا طبولٍ ضخم، وكان جاكوب جالساً على كرسيه ولا يتحرك. لم يكن يرى في تلك اللحظة عازفَ الترومبيت ولا الدكتور سكريتا، لم يكن يرى سوى نفسه، يرى أنه جالس ولا يتحرك، ولا يستطيع أن يشيح عن تلك الصورة المخيفة.

21

عندما اهتزَّ صوتُ ترومبيت كليما في أذنه، خيِّل إليه أنه هو نفسه الذي يهتز، وأنه بمفرده يملأ حيز الصالة كله. شعر أنه قوي ولا يُقهَر. كانت روزينا تجلس في صف الأماكن المجانية المخصص لضيوف الشرف، بجانب برتليف (وهذا أيضاً فألٌ حسن) وكان جوُّ الأمسية ساحراً. الجمهور يستمع بنهم، وخصوصاً

بمزاج حسنٍ منحَ كليما أملاً خفياً بأن كل شيء سيسير على مايرام. عندما دوى التصفيق الأول، أشار بحركة أنيقة إلى الدكتور سكريتا الذي وجدَهُ هذا المساء محبباً وقريباً إلى القلب. فانتصب الدكتور خلف طبوله وحيًا.

لكنه عندما نظر إلى الصالة بعد المقطوعة الثانية، تبينَّ له أن مقعد روزينا فارغ. خافَ. ومنذ تلك اللحظة بدأ يعزف بعصبية وهو يجوب الصالة بعينيه، مقعداً مقعداً، مدققاً في كل مكان، لكنه لم يجدها. فكَّر أنها ذهبت عمداً كيلا تسمع حججه مرة أخرى، مصممةً ألا تَمْثُل أمام اللجنة. أين عليه أن يبحث عنها بعد الحفلة؟ وماذا سيحدث إذا لم يجدها؟

بدأ يشعر أنه يعزف بشكل سيء، بشكل آلي، وهو غائب عقلياً. لكن الجمهور كان عاجزاً عن استشعار المزاج الكامد لعازف الترومبيت، كان راضياً وأخذ الهتاف يزداد حدةً بعد كل معزوفة.

اطمأن إلى فكرة أنها ربما ذهبت إلى المرحاض. أنها توعَّكت مثلما يحدث للحوامل. بعد نصف ساعة قال لنفسه إنها ذهبت تجلب شيئاً من شقَّتها ولن تلبث أن تظهر فوق مقعدها. لكن الاستراحة انقضت واقتربت الحفلة من نهايتها ومازال المقعد خالياً. ربما لاتجرؤ أن تدخل الصالة في منتصف الحفلة؟ ربما تعود أثناء التصفيق الأخير؟

لكن التصفيق الأخير بدأ ولم تظهر روزينا، وفقدَ كليما صبرَهُ. نهض الجمهور وأخذ يصيح مطالباً بالمزيد. التفت كليما نحو الدكتور سكريتا وهزَّ رأسه مشيراً إلى أنه لم يعد يريد العزف. لكنه التقى بعينين مشعَّتين لا تطلبان سوى أن تعزفا على الطبول، أن تعزفا أيضاً ودوماً طوال الليل.

فسَّرَ الجمهورُ حركةَ رأسِ كليما على أنها من قَبيل الدَّلال الذي لامفرَّ منه للنجوم، ولم يمَلّ من التصفيق. في تلك اللحظة انسلَّت امرأةٌ جميلة إلى أسفل المنصة، وحين رآها كليما ظنَّ أنه سينهار، سيغشى

عليه ولا يستيقظ بعدها أبداً. راحت تبتسم له وتقول (لم يكن يسمع صوتها بل يقرأ الكلمات فوق شفتيها): «هيا، اعزف! اعزف!».

رفع كليما آلته لكي يُري بأنه سيعزف. فصمتَ الجمهور دفعة واحدة.

تَهَلَّلَ رفيقاه وأعادا المعزوفة الأخيرة. كان الأمر بالنسبة لِ كليما كما لو أنه يعزف في جوقة جنائزية خلف نعشه بالذات. بدأ يعزف وهو يعرف أن كل شيء قد ضاع، وأنه لم يعد أمامه سوى أن يغلق عينيه، أن يسدل ذراعيه ويستسلم أمام عجلات القدر ويدعها تسحقه.

22

فوق طاولة صغيرة في شقة برتليف، وُضعت جنباً إلى جنب زجاجاتٌ تزيِّنُها لُصاقاتٌ زاهية بأسماء غريبة. لم تكن روزينا تعرف شيئاً عن مشروبات الكحول الفاخرة فطلبت ويسكي كَونَها لم تستطع تسمية مشروب غيره.

في تلك الأثناء كان عقلُها يجهد لكي يخرق حاجز الذهول ويفهم الوضع. سألت برتليف عدة مرات عن سبب سعيِهِ، ذلك اليوم بالذات، لرؤيتها، في حين أنه بالكاد يعرفها. «أريد أن أعرف، كررث، أريد أن أعرف لماذا فكرتَ بي.

ـ أفكر بك منذ زمن طويل، أجاب برتليف، دون أن يكف عن النظر في عينيها.

ـ لماذا اليوم إذن وليس في يوم آخر؟

ـ لأن كل شيء يأتي في أوانه. وأواننا، هو الآن».

كانت تلك الكلمات ملغَّزة، لكن روزينا شعرت أنها صادقة. لقد

تعقَّدَ وضعُها وأصبح لا يُطاق إلى درجة أنَّه يجب أن يحدث شيء.

«نعم، قالت بهيئة حالمة، كان يوماً غريباً.

ـ أترين، أنت نفسُك تعرفين أنني جئتُ في الوقت المناسب»، قال برتليف بصوت مخملي.

اجتاح روزينا إحساس ملتبس بالارتياح إلا أنه لذيذ: إذا ظهر برتليف اليوم بالتحديد، فهذا يعني أن ما يحدث يتم تسييره من مكان آخر وأنَّ بوسعها أن ترتاح وتستسلم لهذه القوة العليا.

«نعم هذا صحيح، لقد جئتَ في الوقت المناسب، قالت.

ـ أعرف».

مع ذلك، فما يزال هناك شيء آخر يُفلِتُ منها: «ولكن لماذا؟ لماذا سعيتَ لتراني؟

ـ لأنني أحبك».

لُفِظَتْ كلمة «أحبك» بنعومة شديدة، لكن الغرفة امتلأت بها فجأةً.

خفضت روزينا صوتها: «تحبني؟

ـ نعم، أحبك».

قال لها فرانتيزيك وكليما هذه الكلمة، لكنها هذا المساء رأتها للمرة الأولى كما هي حقاً حين تأتي عاريةً دون أن نستدعيها، دون أن ننتظرها. دخلت هذه الكلمةُ الغرفةَ مثل معجزة. كانت غير قابلة للتفسير إطلاقاً، لكنها بدت لروزينا حقيقيةً لأن الأشياء الأكثر أوليةً توجد في الحياة بلا تفسير ولا مبرر، مُسْتَقِيَةً مسوّغ وجودها من داخلها.

«حقاً؟ سألتْهُ، ولم يُصدِر صوتُها الذي هو عادةً أقوى من اللزوم، سوى وشوشة.

ـ نعم. حقاً.

ـ لكنني فتاة تافهة تماماً.

ـ أبداً.

ـ بلى.

ـ أنت جميلة.

ـ لا.

ـ أنت رقيقة.

ـ لا، قالت هازَّةً رأسها.

ـ إنك تتألَّقين رقةً وطيبة».

راحت تهز رأسها: «لا، لا، لا.

ـ أعرف كم أنتِ كذلك. أعرف أكثر منك.

ـ أنتَ لاتعرف شيئاً أبداً.

ـ بلى، أعرف».

كانت الثقة المنبعثة من عيني برتليف أشبه بحمّام رائع، وتَمَنَّتْ روزينا أن تدوم هذه النظرةُ التي تغمرها وتداعبهَا أطول وقت ممكن.

«هل أنا حقاً هكذا؟

ـ نعم. أعرف ذلك».

كان ذلك جميلاً مثل الدوار: شعرت بنفسها رهيفة، ناعمةً، نقية في عيني برتليف، شعرت أنها نبيلة مثل ملكة. فجأةً أحست كَمَنْ أُتْرِعَ بالعسل والأعشاب العطرية. وجدت نفسَها لطيفةً. (يا إلهي! لم يحدث لها قط أن تجد نفسَها لطيفةً على هذا النحو اللذيذ).

تابعت الاحتجاج:

«لكنك بالكاد تعرفني.

ـ أعرفك منذ زمن طويل. ومنذ زمن طويل أراقبك وأنت لم يراودك حتى الشكُّ بذلك. أعرفك عن ظهر قلب»، راح يقول ويطوف

بأصابعه على وجهها. «أنفك، ابتسامتك المرسومة برهافة، شعرك...».

ثم بدأ يفكّ أزرار ثيابها، فلم تقاوم، بل اكتفتْ بالتبحُّر في عينيه، في نظرته التي تحيط بها مثل الماء، ماءٍ مخمليّ. كانت تجلس مقابله بنهدين عاريين ينتصبان أمام ناظريه ويرغبان بأن يُشاهدا ويُمَجَّدا. جسدها كله كان متَّجهاً نحو عينيه مثلما تتجه زهرةُ عباد شمس نحو الشمس.

23

كانا في غرفة جاكوب، أولغا تتكلم وجاكوب يردد في سرِّهِ بأن الوقت مازال مناسباً. يمكنه أن يعود إلى مجمَّع كارل ماركس، وإذا لم تكن هناك يمكنه أن يزعج برتليف في الشقة المجاورة ويسأله إذا كان يعرف شيئاً عن المرأة الشابة.

كانت أولغا تثرثر وهو يعيش عقلياً مشهداً شاقاً يشرح فيه شيئاً للممرضة، يتأتئ، يقدم مبررات، يعتذر ويحاول الحصول على أنبوب الحبوب. ثم استولت عليه فجأةً لامبالاةٌ حادة، كما لو أنه تعبَ من تلك الرؤى التي يواجهها منذ ساعات عديدة.

لم تكن تلك لامبالاةَ التعب فقط، بل لامبالاة متعمَّدة وقِتَاليّة. لقد فهم جاكوب للتو أنَّه سواءٌ لديه تماماً، في الحقيقة، بقاء ذلك المخلوق ذو الشعر الأصفر، على قيد الحياة، وعدم بقائه، فإنَّ محاولته لإنقاذها ستكون في الواقع نوعاً من النفاق وكوميديا مُعيبة. وأنه بهذا الشكل لن يفعل شيئاً سوى خداع مَن يمتحنه. لأن هذا الذي يمتحنه (الله غير الموجود) يريد أن يعرف جاكوب على حقيقته، وليس كما يتظاهر كذِباً بأنه حقيقته. وقرر جاكوب أن يكون أميناً لنفسه، أن يكون مثلما هو حقاً.

جلس كل منهما في مقعد وجهاً لوجه، وبينهما طاولة صغيرة.

رأى جاكوب أولغا تنحني نحوه من فوق تلك الطاولة الصغيرة وسمع صوتها: «أريد أن أقبِّلَك. كيف نعرف بعضنا منذ كل هذا الوقت الطويل ولم نُقبِّل بعضنا أبداً؟»

24

ارتسمت ابتسامةٌ قسرية على وجه كاميلا، وولد في أعماقها قلق عندما انسلّت وراء زوجها إلى الموضع المخصص للفنانين. كانت خائفة من أن تكتشف الوجه الحقيقي لعشيقة كليما. إنما لم تكن هناك عشيقة قط، بل كانت هناك بعض الفتيات الصغيرات المنهمكات في طلب توقيع من كليما، ورأت كاميلا جيداً (لها عين مثل عين النسر) أنَّ أياً منهن لاتعرفه معرفة شخصية.

كانت مع ذلك متأكدة من أنَّ العشيقة موجودة في مكان ما هناك. استشفَّتْ ذلك من وجه كليما الشاحب والغائب. إنه يبتسم لزوجته بالطريقة الزائفة نفسها التي تبتسم له بها.

قدَّم الدكتور سكريتا نفسه لكاميلا بانحناءة، وكذلك فعل الصيدلاني وبعض الأشخاص الآخرين وهم بلا شك أطباء مع زوجاتهم. اقترح أحدهم الذهاب إلى البار الوحيد في المكان، فاعتذر كليما متذرِّعاً بالتعب. فكرت كاميلا أن العشيقة تنتظر حتماً في البار، ولذلك رفض كليما الذهاب. وبما أنَّ التعاسة تجتذبها مثل المغناطيس طلبت منه أن يُسعِدَها ويتجاوز تعبه.

ولكن، حتى في البار لم يكن هناك أية امرأة يمكن أن ترتاب بأنَّ لها علاقة مع كليما. جلسوا حول طاولة كبيرة. بدا الدكتور سكريتا ثرثاراً وراح يمتدح عازف الترومبيت. وملأت الصيدلانيَّ سعادةٌ خجولة لم تعرف كيف تعبِّر عن نفسها. وأرادت كاميلا أن تكون جذابةً وزلقة اللسان بمرَحٍ، فقالت موجهةً الكلام لِ سكريتا: «إنك باهر، وأنت أيضاً، أيها الصيدلاني العزيز، وكان الجو حقيقياً، فرِحاً، خالي البال، وأفضل مما في العاصمة ألفِ مرة».

ودون أن تنظر إليه لم تكفُّ عن مراقبته. كانت تشعر أنه لا يخفي عصبيَّتَهُ إلاّ بأكبر مجهود وأنه ينطق بكلمةٍ من وقت لآخر فقط كيلا يُرى بأنه غائب عقلياً. كان من الواضح أنها أفسدت عليه شيئاً وليس شيئاً تافهاً. لو لم يتعلق الأمر إلا بمغامرة عادية (كان كليما يُقسِم لها دوماً بآلهته الكبرى أنه لايمكن أن يهيم بامرأة أخرى قط) لَما سقط في اكتئاب عميق بهذا الشكل. صحيح أنها لم ترَ العشيقة، لكنها اعتقدت بأنها ترى الحب؛ الحب في وجه زوجها (حب متألم ويائس) وهذا المشهد أكثر إيلاماً لها.

«مابكَ، سيد كليما؟ سأل الصيدلانيُّ فجأةً، وهو الشخص الودود والمُراقِب لاسيما وأنه صَموت.

ـ لاشيء، لاشيء أبداً! قال كليما، وقد تملَّكَهُ خوف. يؤلمني رأسي قليلاً.

ـ ألا تريد حبة دواء؟ سأل الصيدلاني.

ـ لا، لا، قال عازف الترومبيت هازّاً برأسه. لكني أرجوكم أن تعذروني إذا انصرفنا بسرعة قليلاً. إني متعب جداً بالفعل».

25

كيف تجرّأتْ أخيراً؟

منذ أن التقت بجاكوب في المطعم ـ المشرب، وجدته على غير العادة، صموتاً لكنه مع ذلك ودود، وجدته عاجزاً عن تركيز انتباهه لكنه مع ذلك طَيِّع. كان ذهنياً في مكان آخر، ومع ذلك يفعل كل ما تتمناه. كانت قلة التركيز تلك (تعزوها إلى سفره القريب جداً) مستَحَبّة لها جداً: إنها تتكلم إلى وجه غائب وكأنها تتكلم من مكانٍ قصيٍّ لا يسمعها منه أحد. لذا تستطيع أن تقول ما لم تقله له سابقاً أبداً.

الآن وقد قالت له بأنها تريد تقبيله شعرت أنها تزعجه، تقلقه.

لكن هذا لم يثبط عزيمتها قط، بل على العكس، أبهجها: شعرت أخيراً أنها أصبحت المرأة الجريئة والمتَحَدِّية التي طالما تَمَنَّتْ أن تكونها، المرأة التي تسيطر على الموقف، تحرِّكه، تراقب الشريك بفضول وتغرقه في الارتباك.

استمرت في النظر إلى عينيه بثبات وقالت وهي تبتسم: «ولكن ليس هنا. من المضحك أن ننحني من فوق الطاولة لكي يقبِّل أحدنا الآخر. تعال».

مدت له يدها، قادته نحو الديوان وتلذَّذتْ برهافةِ سلوكها، أناقتِهِ وسيطرتِهِ الهادئة. ثم قبَّلته وتصرفت بشغفٍ لم تعرفه في نفسها أبداً من قبل. مع ذلك، فإنه لم يكن الشغف العفوي لجسدٍ لم يستطع السيطرة على نفسه، بل شغف الدماغ، شغف واعٍ ومتعمَّد. أرادت أن تنتزع عن جاكوب قِناعَ دورِهِ الأبويّ، أرادت أن تصدمه فتشعر هي نفسها بالاستثارة لمرأى اضطرابه. أرادت أن تغتصبه، أن تعرف طعم لسانه وتشعر بيديه الأبويتين تتجاسران شيئاً فشيئاً وتغمرانها بالمداعبات.

فكت زر سترته ونزعتها عنه.

26

لم تفارقه عيناه طوال الحفلة الموسيقية، ثم اختلط بالمتحمسين الذين هرعوا إلى خلف المنصة لكي يأخذوا تواقيع الفنانين على سبيل الذكرى. لكن روزينا لم تكن هناك. لحق بمجموعة صغيرة من الناس تقود عازف الترومبيت إلى البار. دخل معهم وهو على يقين من أن روزينا تنتظر هناك. لكنه أخطأ. فخرج وبقي أمام المدخل طويلاً يقوم بدور الخفير.

فجأةً شعر بألم يخترقه. خرج عازف الترومبيت للتو وقد التصقت به قامةٌ نسائية. ظنَّ أنها روزينا، لكنها لم تكن هي.

تبعهما حتى ريشموند حيث دخل كليما مع المرأة المجهولة.

ذهب مسرعاً إلى مجمع كارل ماركس عبر الحديقة. كان الباب مايزال مفتوحاً. سأل البوابَ إذا كانت روزينا ماتزال في شقتها. لكنها لم تكن.

عاد يركض إلى ريشموند، خشية أن تكون روزينا قد التقت بكليما هناك في تلك الأثناء. وراح يذرع ممر الحديقة جيئة وذهاباً مثبّتاً عينيه على المدخل. لم يكن يفهم شيئاً مما يحدث. خطرت في ذهنه فرضيات عديدة، لكنها غير مهمة. المهم هو أنه هنا وأنه يراقب ويعرف أنه سيراقب حتى يراهما.

لماذا؟ ما الفائدة؟ أليس من الأفضل له أن يذهب إلى بيته وينام؟

راح يردد لنفسه بأن عليه أن يكتشف الحقيقة كلها في النهاية.

ولكن، هل كان يريد حقاً معرفة الحقيقة؟ هل يتمنى حقاً أن يتأكد من أن روزينا تنام مع كليما؟ ألم يكن ينتظر بالأحرى دليلاً على براءة روزينا؟ مع ذلك، هل كان سيثق بذلك الدليل وهو الشخص الشكّاك؟

لم يكن يعرف لماذا ينتظر. يعرف فقط أنه سينتظر طويلاً الليل كله إذا احتاج الأمر، بل عدة ليالٍ. لأن الوقت عندما تَنكُزُهُ الغيرةُ يمضي بسرعة لا تُصدَّق. الغيرة تحتل الذهن تماماً أكثر مما يحتله عملٌ فكريٌّ متَّقِد. لا يعود للذهن ثانية فراغ واحدة. الشخص الذي يقع فريسة الغيرة لا يعرف الضجر.

غطى فرانتيزيك بخطواته جزءاً من الممر يصل بالكاد إلى المئة متر، يمكن منه رؤية مدخل الريشموند. سيبقى هكذا طوال الليل إلى أن ينام الآخرون جميعاً، سيروح ويجيء بهذا الشكل حتى اليوم التالي.

ولكن، لماذا لا يجلس؟ هناك مقاعد أمام الريشموند!

إنه لايستطيع الجلوس. الغيرة تشبه سُعاراً عنيفاً في الأسنان. حين تتملك الإنسانَ الغيرة لايستطيع أن يفعل شيئاً ولا حتى أن

يجلس. لا يستطيع أن يفعل شيئاً سوى أن يروح ويجيء. من نقطة إلى أخرى.

27

سلكا الطريق نفسه الذي سلكه برتليف وروزينا، جاكوب وأولغا؛ السلالم المؤدية إلى الطابق الأول ثم سجادة القطيفة الحمراء حتى نهاية الممشى الذي ينتهي بالباب الكبير لشقة برتليف. إلى اليمين باب غرفة جاكوب، وإلى اليسار الغرفة التي أعارها الدكتور سكريتا لِ كليما.

عندما فتح الباب وأضاء النور لاحظ النظرةَ الاتِّهامية المقتضَبة التي ألقتها كاميلا عبر الغرفة. إنه يعرف أنها تبحث عن آثار امرأة. يعرف تلك النظرة. يعرف كل شيء عنها. يعرف أنَّ حفاوتها غير صادقة. يعرف أنها جاءت لتتجسس عليه، يعرف أنها ستتظاهر بأنها جاءت لكي تدخل السرور إلى قلبه. يعرف أنها تلاحظ انزعاجه وأن لديها اليقين بأنها أفسدَتْ عليه مغامرة عاطفية.

سألته: «عزيزي، ألم تنزعج حقاً من مجيئي؟».

وأجاب: «كما لو أنَّ مجيئك يمكن أن يزعجني!

ـ خفتُ أن يصيبكَ السأمُ هنا.

ـ نعم، بدونك كان سيصيبني السأم. أسعَدتْني رؤيتكِ تصفقين في أسفل المنصة.

ـ تبدو تعِباً. إلا إذا كنتَ مغتاظاً؟

ـ لا. لا لستُ مغتاظاً. متعَب فقط.

ـ أنت حزين بسبب عدم وجود نساء بينكم هنا، وهذا يسبب لك الاكتئاب. ولكن، ها أنت مع امرأة جميلة. ألستُ امرأة جميلة؟

ـ نعم، أنت امرأة جميلة»، قال كليما، وكانت تلك هي أولى

الكلمات الصادقة التي قالها لها ذلك اليوم. فكاميلا تتمتع بجمال سماوي وكان كليما يشعر بألم هائل حين يفكر بأن هذا الجمال يتهدده خطر مميت. لكن هذا الجمال كان يبتسم له وينزع ملابسه أمام عينيه. راح ينظر إلى جسدها الذي يتعرّى، وكان ذلك أشبه بوداع. النهدان، نهداها الجميلان، صحيحان وسليمان، الخصر النحيل، البطن الذي انزلق منه السروال للتو. راح يراقبها بحنين كأنها ذكرى، كَمَن يراقب من خلال زجاج، كَمَنْ ينظر من بعيد. كان عريُها بعيداً إلى درجة أنه لم يشعر بأية إثارة. مع ذلك راح يتأملها بنظرةٍ شرِهة، راح يشرب ذلك العريَ مثلما يشرب محكومٌ بالإعدام كأسَهُ الأخيرةَ قبل تنفيذ الحكم. راح يشرب ذلك العري كَمَن يشرب ماضياً ضائعاً وحياةً ضائعة.

اقتربت كاميلا منه: «ماذا هناك» ألا تنزع ثيابك؟»

لم يكن باستطاعته سوى أن ينزع ثيابه وكان حزيناً بشكل مخيف.

«لا تظنّ بأنَّ لك الحق بأن تكون متعباً الآن بعد أن جئت إليك. أريدك».

كان يعرف أن هذا غير صحيح. يعرف أن كاميلا لا تشعر بأية رغبة بممارسة الحب، وأنها تفرض على نفسها هذا السلوك المحرِّض لسببٍ وحيد هو أنها ترى حزنه وتعزوه لحبه لامرأة أخرى. كان يعرف (يا إلهي، كم كان يعرفها!) أنها بهذا التحدي الغرامي تريد أن تمتحنه لكي تعرف إلى أي حد كان ذهنه مشغولاً بامرأة أخرى. يعرف أنها تريد إيذاء نفسها بحزنه.

«أنا متعب حقاً»، قال.

ضمته بين ذراعيها ثم قادته إلى السرير: «سترى كيف سأُنسيك حزنَك!» وراحت تلهو بجسده العاري.

كان ممدداً كأنه فوق طاولة عمليات. ويعرف أن كل محاولات زوجته ستكون بلا جدوى. أخذ جسده ينكمش إلى الداخل، ولم يعد

يملك أدنى قدرة على الانبساط. راحت كاميلا تجوب جسده كله بشفتيها الرطبتين وكان يعرف أنها تريد أن تتألم وتجعله يتألم، وكان يكرهها. يكرهها بكل قوة حبه: إنها هي، هي وحدها، بغَيْرَتها، بشكوكها، بحذرها، هي وحدها، بزيارتها اليوم، مَنْ أفسَدَ كل شيء. بسببها بات زواجُهُما ملغوماً بشحنةٍ متفجِّرة وضِعتْ في بطن امرأة أخرى، شحنة سوف تنفجر خلال سبعة أشهر وتكنس كل شيء. إنها هي، هي وحدها التي هدمت كل شيء، من شدة ما ارتجفتْ مثل شخصٍ معتوه خوفاً على حبهما.

وضعت فمها فوق بطنه وشعر بعضوه يتقلّص تحت المداعبة، ينكمش إلى الداخل، يهرب من أمامها، يزداد صِغَراً، ويزداد حصْراً. كان يعرف أن كاميلا ستقيس حجم حبه لامرأة أخرى بحجم رفض جسمه. يعرف أنها ستتألم بشكل مخيف، وأنها كلما تألمت أكثر سوف تجعله يتعذَّب أكثر وستصرُّ أكثر على لمسِ جسده الذي ذهبت عنه القوة بشفتيها الرطبتين.

28

لم يرغب بشيء في العالم أقلّ من رغبته بالنوم مع تلك الفتاة. أراد أن يُفرِحها ويغمرها بكل طيبته، لكنَّ تلك الطيبة لم يكن لها أيّ شأن بالرغبة الحسِّيَّة، بل وأكثر من ذلك، كانت تُقصي تلك الرغبة تماماً لأنها تَطرح نفسَها نقيةً مترفِّعةً عن أي غرض، بعيدة عن كل المُتَع.

ولكن، ما الذي يستطيع أن يفعله الآن؟ هل يجب عليه أن يصدَّ أولغا حتى لا يلوِّث طِيبَتَهُ؟ غير وارد. رفْضُهُ سيجرح أولغا ويترك فيها أثراً يدوم طويلاً. كان يدرك أنَّ عليه أن يشرب كأسَ الطيبةِ حتى الثمالة.

فجأةً ظهرت أمامه عارية، وقال لنفسه بأن وجهها نبيل

ورقيق. لكنه عزاء تافه أن يرى الوجه قطعةً واحدة مع الجسد الشبيه بساقٍ طويلة ونحيلة غُرِست في أعلاها زهرةٌ فرعاء، مفرطة في ضخامتها.

ولكن، جميلة كانت أم لا، أصبح جاكوب يعرف أنه لم تعد هناك وسيلة للإفلات. وشعَرَ أساساً أن جسده (هذا الجسد المحبّ للعبودية) على أتمِّ الاستعداد لامتشاق رمحِ طبعِهِ المجامِلِ، مرةً أخرى. مع ذلك فقد بدا كأنَّ الإثارةَ التي حصلت له، حصلتْ لشخصٍ آخر، كأنها حصلت بعيداً، خارج روحه، كما لو أنه لايَدَ له بها، وأنه يحتقر هذه الإثارةَ في سرِّه. كانت روحه بعيدة عن جسده، وقد استبدَّت بها فكرةُ السُمِّ في حقيبة الشابة المجهولة. كانت على الأكثر تراقب بأسفٍ، الجسدَ الذي راح يسعى، بلا تبَصُّرٍ ولا هوادة، وراء مصالحه التافهة.

عبرت رأسَهُ ذكرى: كان في العاشرة حين عرف كيف يأتي الأطفالُ إلى العالم، ومنذئذٍ باتت تلك الفكرةُ تستبدُّ به بشكل أكبر باستمرار، لاسيما أنه اكتشف مع السنين، وبالتفصيل أكثر، العنصر المادي للأعضاء الأنثوية. منذ ذلك الوقت كثيراً ما تَخَيَّل ولادَتَهُ بالذات. تخيَّل جسده الضئيل ينزلق من النفق الضيق الرطب، تخيل أنفه وفمه مليئين بالمادة المخاطية الغريبة التي مسحَتْه بكامله ووسَمَتْهُ. نعم، وسَمَتهُ المادةُ المخاطية لكي تمارس على جاكوب طوال حياته، سلطتَها الغامضة، لكي يكون لها الحق باستدعائه، في كل لحظة، إليها والتحكُّم بآليَّات جسده الفريدة. أثار هذا كلّه اشمئزازه دوماً، وثار ضد هذه العبودية، على الأقلّ عن طريق منعِ روحِهِ عن النساء، صَوْنِ حريته ووحدته، وحَضْرِ سُلطةِ المادةِ المخاطية في ساعاتٍ محددة من حياته. نعم، إذا كان يشعر بهذا القدر من العاطفة إزاء أولغا فهذا يعود بلا شك إلى أنها، تقع كليّاً بالنسبة له، وراء حدود الجنس، ولأنه متأكد بأنها، بجسدها، لن تُذَكِّره أبداً بالطريقة المخجِلة لمجيئه إلى العالم.

أبعدَ هذه الأفكار بشراسة لأن الحالةَ، فوق الديوان، أخذت

تتطور بسرعة، ولأنه سيتوجب عليه بين اللحظة والأخرى ولوجها، ولايريد أن يفعل ذلك بفكرةٍ قائمة على الاشمئزاز. قال لنفسه إنَّ هذه المرأة التي تنفتح له، هي الوحيدة التي تربطه بها عاطفةٌ نقية ومنزَّهة عن الأغراض، وأنه لن يحبها الآن إلاّ لأجل سعادتها، لكي تعرف الفرح، لكي تنغرس في نفسها الثقة والبهجة.

اندهش هو بالذات من نفسه: راح يتحرك فوقها كما لو أنه يتأرجح فوق أمواج الطيبة. كان سعيداً ويشعر بأنه على ما يرام. تماثَلَتْ روحُهُ بتواضعٍ مع الفعل الذي يؤديه جسدُه، كما لو أن فعل الحب ليس سوى التعبير الجسدي عن حنانٍ خيِّر، عن عاطفةٍ نقية للإنسان إزاء قريبه الإنسان. لم يكن هناك شيء معيق أو نشاز. كانا ملتصقين متشابكين وأنفاسهما مختلطة.

بدت دقائق طويلة وجميلة، ثم همست أولغا في أذنه بكلمةٍ فاحشة. همستْ له بها أول مرة، ثم ثانية فثالثة، كَوْن هذه الكلمة أثارتْها هي نفسها.

ارتدَّتْ أمواجُ الطيبة دفعةً واحدة، وألفى جاكوب نفسَه مع الشابة في قلب صحراء.

لا، عادةً لا يكون لديه شيء ضدَّ الكلمات الفاحشة أثناء ممارسة الحب. إنها توقظ لديه الحسِّيَّة والفظاظة، تجعل النساءَ غريباتٍ عن روحه، شَهيَّاتٍ إلى جسده على نحوٍ ممتع.

لكن الكلمة الفاحشة، حين خرجت من فم أولغا، أزالتْ بقسوة كلَّ الوهم العذب. أيقظته من حلم. تبددت غمامةُ الطيبة، وفجأةً رأى أولغا بين ذراعيه بالصورة التي رآها عليها قبل لحظة: رأس شبيه بزهرة ضخمة ترتجف تحتها ساقُ الجسد النحيلة. هذه المخلوقة المثيرة لها أساليبُ عاهرةٍ في الإغواء، دون أن تكفَّ عن كونها مثيرة للعطف، الأمر الذي أعطى للكلمات الفاحشة رنةً مضحكة وحزينة.

لكنَّ جاكوب كان يعرف أنَّ عليه ألاَّ يُظهِر شيئاً، عليه أن يسيطر

على نفسه، وأن يشرب ويشرب كأس الطيبة المر، لأن هذا العناق العبثي هو فِعلُهُ الطيب الوحيد، افتداؤه الوحيد (لم يكفّ لحظةً عن تَذَكُّر السم في حقيبة تلك الشابة الأخرى)، خلاصه الوحيد.

29

كانت شقة برتليف الباذخة مثل لؤلؤة كبيرة في مَحارة مزدوجة لأحدى الرخويات، مُحاطةً من الجانبين بالغرفتَيْن الأقل بذخاً واللتين ينزل فيهما جاكوب وكليما. في الغرفتين المجاورتين خيَّم الصمتُ والهدوء منذ وقت طويل، حين أطلقت روزينا، بين ذراعي برتليف، آخر آهات النشوة.

بقيت ممددة بجانبه بسلام وهو يداعب وجهها. بعد لحظة انفجرت منتحبة. بكت طويلاً ودفنت وجهها في صدره.

أخذ برتليف يلاطفها مثل بنت صغيرة وشعرت هي أنها صغيرة فعلاً. صغيرة مثلما لم تكن قط (لم تختبئ بهذا الشكل في صدرِ أحدٍ أبداً)، لكنْ كبيرة أيضاً مثلما لم تكن قط (لم تشعر قط بهذا القدرِ من المتعة الذي شعرت به اليوم). وجرفها بكاؤها، بحركات متقطِّعة، إلى أحاسيسِ رخاء لم تعرفها أيضاً قبل اليوم.

أين كليما في هذه اللحظة وأين فرانتيزيك؟ إنهما في مكان ما من سحابةٍ بعيدة، قامتان تبتعدان عند الأفق، خفيفتان كأنهما زغب. وأين رغبة روزينا المصرة على الاستيلاء على أحدهما والتخلُّص من الآخر؟ ماذا حلَّ بنوبات غضبها التشنُّجية، بصمتها الذليل الذي حبست نفسَها فيه منذ الصباح؟

إنها ممددة تنتحب، وهو يداعب وجهها. يقول لها بأن تنام، وبأن غرفة نومه في غرفة ملاصقة. فتحت روزينا عينيها ونظرت إليه. برتليف عارٍ، يذهب إلى الحمام (تسمع صوت جريان ماء)، ثم

يعود، يفتح الخزانة، ويُخرج منها غطاءً يفرشه برهافةٍ فوق جسد روزينا.

رأت روزينا أوردة دوالي فوق ربلتي ساقيه. عندما انحنى فوقها لاحظت أن شعره المجعَّد أشيب وقليل الكثافة ويسمح برؤية جلدة الرأس. نعم، برتليف له من العمر ستون، وربما خمسة وستون عاماً، ولكن هذا غير مهم بالنسبة لروزينا. بالعكس، كان عمر برتليف يطمئنُها، يلقي نوراً ساطعاً على صِباها الرمادي والذي خلا حتى الآن من التعبير، فتشعر أنها مليئة بالحياة وأنها أخيراً في بداية الطريق تماماً. هاهي تكتشف في حضوره، أنها ستكون شابة زمناً طويلاً أيضاً، وأنها ليست بحاجة للاستعجال. عاد برتليف منذ برهة للجلوس إلى جانبها وراح يلاطفها. إنها تشعر كأنها وجدت ملجأً في عناق أعوامه المُطَمْئن، فوق ما وجدته في ملامسة أصابعه التي تجلب السلوى.

ثم غاب وعيها، وبدأت تمر في رأسها الرؤى المشوَّشةُ لأوَّلِ اقتراب النوم. استيقظت فبدت لها الحجرة كلها مغمورة بضوء أزرق غريب. ماهذا الألق الفريد الذي لم تره قط، إذن؟ هل هو القمر الذي نزل إلى هنا وأحيط بشالٍ أزرق؟ إلا إذا كانت روزينا تحلم بعينين مفتوحتين؟

ابتسم لها برتليف دون أن يتوقف عن مداعبة وجهها.

والآن أغمضت عينيها نهائياً وقد جرفها الحلم.

اليوم الخامس

1

كان الليل مايزال مخيِّماً عندما استيقظ كليما من نوم خفيف جداً. أراد أن يرى روزينا قبل ذهابها إلى عملها. ولكن كيف يشرح لكاميلا أن هناك جولة عليه القيام بها قبل طلوع النهار؟

نظر إلى ساعته: إنها الخامسة صباحاً. إذا أراد أن يلتقي حتماً بروزينا عليه أن ينهض في الحال، لكنه لم يجد عذراً. راح قلبه يدق بقوة شديدة، ولكن ما العمل؟ نهض وبدأ يرتدي ملابسه بهدوء خوفاً من إيقاظ كاميلا. كان يزرر سترته حين سمع صوتها. كان صوتاً خفيفاً حاداً يصل إليه من منطقة تتوسط بين النوم واليقظة. «أين تذهب؟»

اقترب من السرير وقبَّلَها برقَّةٍ على شفتيها وقال: «نامي، سأعود حالاً.

ـ سأرافقك»، قالت كاميلا، لكنها سرعان ما عادت إلى النوم.

خرج كليما بسرعة.

2

هل هذا ممكن؟ هل مايزال يذرع المكان بخطاه؟

نعم. لكنه توقف فجأةً. لمح كليما عند مدخل الريشموند. فتوارى وراح يتبعه خلسةً حتى مجمَّع كارل ماركس. مرَّ أمام حجرة البوَّاب (البواب نائم) وتوقف عند زاوية الممشى حيث توجد غرفة

روزينا. رأى عازفَ الترومبيت يقرع باب الممرضة. لم يفتح له أحد. قرع كليما عدة مرات أخرى، ثم استدار ومضى.

خرج فرانتيزيك وراءه من المبنى راكضاً. رآه يسلك الشارع الطويل باتجاه مؤسسة الحمامات حيث يبدأ عمل روزينا خلال نصف ساعة. عاد يركض إلى مجمَّع كارل ماركس، قرع باب روزينا وتكلم عبر ثقب القفل بصوت خفيض إنما بوضوح: «هذا أنا! فرانتيزيك! ليس هناك ما تخشينه مني أنا! يمكنك أن تفتحي لي أنا!»

لم يجبه أحد.

حين عاد كان البواب قد استيقظ للتو.

«هل روزينا في غرفتها؟ سأله فرانتيزيك.

- لم تعد منذ الأمس»، قال البواب.

خرج فرانتيزيك إلى الشارع. ورأى كليما من بعيد عائداً إلى مؤسسة الحمامات.

3

كانت روزينا تستيقظ بانتظام في الخامسة والنصف. في ذلك اليوم، وبعد أن نامت بهذا الاستمتاع، لم تنم وقتاً أطول. نهضت، لبست ثيابها ودخلت على أطراف أصابعها إلى الغرفة الصغيرة الملاصقة.

كان برتليف نائماً على جنبه، يتنفس بعمق، وكان شعرُهُ المصفَّف بعناية أثناء النهار أشعث ويكشف عن جلدة الرأس العارية. بدا وجهه في النوم أكثر شحوباً وأكثر تقدماً في السن. وعلى طاولة سريره وُضعت قارورات دواء تُذكِّر روزينا بالمستشفى. لكن شيئاً من كل هذا لم يزعجها. راحت تنظر إليه وغرغرت عيناها بالدمع. لم تعِش قط أمسيةً أجمل من أمسية البارحة. شعرت برغبة غريبة بالركوع أمامه. لم تفعل، لكنها انحنت وقبَّلت جبينه برقة.

في الخارج، وبينما كانت تقترب من مؤسسة الحمامات، رأت فرانتيزيك يقف في وجهها.

حتى الأمس كان هذا اللقاء سيسبِّب لها الاضطراب. فرغم عشقها لعازِف الترومبيت بقي فرانتيزيك مهماً لها. فهو يشكِّل مع كليما ثنائياً لايمكن تفريق أحد طرفيه عن الآخر. الأول يجسِّد اليوميَّ والآخرُ الحلمَ؛ أحدهما يريدها، والآخر لايريدها؛ أرادت الإفلات من أحدهما، ورغبت بالآخر. كل من الرجلين كان يحدد معنى وجود الآخر. وحين قررت أنها حامل من كليما لم تمحُ فرانتيزيك من حياتها؛ بالعكس: فرانتيزيك هو الذي دفعها إلى هذا القرار. كانت بين هذين الرجلين كأنها بين قطبَيْ حياتها؛ كانا يشكلان شمالَ وجنوبَ كوكبها ولم تكن تعرف كوكباً آخر.

أما ذلك الصباح فقد فهمت فجأةً أن ذلك الكوكب ليس الكوكب الوحيد الصالح للسكن. فهمت أنَّ بوسعها العيش دون كليما ودون فرانتيزيك؛ أنه ليس هناك أي مبرر للعجَلة؛ أنَّ هناك وقتاً كافياً؛ أنَّ بوسعها تسليم قيادِها لرجلٍ حكيمٍ وناضج، بعيداً عن ذلك المكان المسحور الذي يشيخ فيه المرء بسرعة كبيرة.

«أين قضيتِ الليل؟ قال فرانتيزيك دون مقدمات.

ـ هذا ليس من شأنك.

ـ ذهبتُ إلى غرفتك. لم تكوني هناك.

ـ ليس من شأنك إطلاقاً أين أقضي الليل. قالت روزينا، واجتازت مدخل مؤسسة الحمامات دون أن تتوقف. ولا تعُد ثانيةً لرؤيتي. أمنعك من ذلك».

بقي فرانتيزيك مغروساً أمام المؤسسة وبما أن قدميه كانتا تؤلمانه لأنه أمضى الليل سائراً، جلس على مقعد يستطيع منه مراقبة المدخل.

صعدت روزينا الدرجات أربعاً أربعاً ودخلت إلى قاعة انتظار فسيحة في الطابق الأول صُفَّتْ على طول جدرانها مقاعد وكراسٍ

مخصصة للنزيلات. كان كليما جالساً أمام باب المكتب الذي تعمل فيه.

«روزينا، قال وهو ينهض ناظراً إليها بعينين يائستين. أرجوكِ. أتوسل إليك، كوني عاقلة! سأذهب معك!»

كان قلقه صريحاً، عارياً عن أية ديماغوجية عاطفية بذل جهوداً كثيرة خلال الأيام الماضية، لإظهارها.

قالت له روزينا: «تريد التخلص مني».

خافَ: «لا أريد التخلص منك، بالعكس. أفعل كل ذلك لكي نستطيع أن نكون أكثر سعادة معاً.

- لا تكذب، قالت روزينا.

- روزينا، أرجوك! ستكون مصيبة إذا لم تذهبي!

- ومن قال لك أنني لن أذهب؟ مازال أمامنا ثلاث ساعات. الساعة الآن هي السادسة فقط. تستطيع بكل اطمئنان أن تعود إلى امرأتك في السرير!»

أغلقت الباب وراءها، لبست قميصها الأبيض وقالت لزميلتها الأربعينية: «من فضلك، سأتغيَّب في الساعة التاسعة. هل يمكنك الحلول محلي مدة ساعة؟

- تركتِهِ يقنعكِ إذن، قالت زميلتها عاتبةً.

- لا. إني عاشقة»، قالت روزينا.

4

اقترب جاكوب من النافذة وفتحها. كان يفكر بالحبة الزرقاء الشاحبة ولا يستطيع التصديق بأنه أعطاها بالأمس إلى المرأة المجهولة. نظر إلى زرقة السماء واستنشق الهواء المنعش لذلك الصباح الخريفي. العالم الذي يراه من النافذة عادي، هادئ،

وطبيعي. فجأةً بدا له ماجرى بالأمس مع الممرضة عبثياً ولا يصدَّق.

تناول سماعة الهاتف وطلب رقم مؤسسة الحمامات. طلب الكلام مع الممرضة روزينا في قسم النساء. انتظر طويلاً، ثم جاءه صوت نسائي. كرر أنه يريد التحدث إلى الممرضة روزينا. أجاب الصوت بأن الممرضة روزينا في المسبح ولا تستطيع المجيء. شَكَرَ وأعاد السماعة.

شعر بارتياح هائل: الممرضة على قيد الحياة. وقد كُتب على الأنبوب أنه يجب تناول الحبوب ثلاث مرات في اليوم، ولا بُدَّ أنها أخذت واحدةً مساء الأمس وواحدة عند الصباح. لقد ابتلعت حبة جاكوب منذ وقت طويل إذن. فجأةً بدا له كل شيء واضحاً قطعاً: الحبة الزرقاء الشاحبة التي حملها في أحد جيوبه على أنها ضمان لحريته كانت احتيالاً. لقد أعطاه صديقُهُ حبةَ الوهم.

يا إلهي، كيف لم تخطر له هذه الفكرة أبداً حتى ذلك الوقت؟ مرة أخرى استعاد ذكرى اليوم البعيد الذي طلب فيه سماً من أصدقائه. كان آنذاك خارجاً من السجن، وفهمَ الآن، مع الرجوع سنين طويلة إلى الوراء، أنَّ كل هؤلاء الناس لم يروا في طلبه أكثر من حركة مسرحية الغرض منها لَفْتُ الانتباه إلى الآلام التي قاساها. لكن سكريتا وعدَهُ بلا تردد أن يعطيه ما يطلب، وبعد بضعة أيام أحضر له حبة زرقاء شاحبة ولامعة. لماذا يتردد، ولماذا يحاول ردعه؟ لقد تصرَّف بشكل أكثر فطنة من أولئك الذين صرَفوه. أعطاه الوهمَ غير المؤذي الذي يمنحه الهدوء واليقين، وفوق ذلك جعله صديقاً دائماً له.

نعم، كيف لم تخطر له هذه الفكرة أبداً؟ لقد وجد من الغريب في ذلك الوقت أن يعطيه سكريتا سماً في شكل حبة تافهة مضغوطة صناعياً. ومع علمه بإمكانية أن يحصل سكريتا، بصفته مختصاً في الكيمياء الحيوية، على بعض السموم، فإنه لم يفهم كيف حصل على أجهزة صناعية لضغط الحبوب. لكنه لم يطرح أسئلة على نفسه. رغم شكِّهِ بكل شيء فقد آمَنَ بحبته مثلما يؤمن شخص بالإنجيل.

الآن، في هذه اللحظات من الارتياح الهائل، كان بالطبع ممتنّاً لصديقه على احتياله، سعيداً أن تكون الممرضة على قيد الحياة، وألا تكون كل هذه المغامرة المزعجة سوى كابوس، حلم سيء. ولكن، لاشيء يدوم طويلاً في هذه الحياة، ووراء أمواج الارتياح الخائرة يُسمَع الصوتُ الناحل للندم:

كم كان ذلك متنافراً! الحبة التي احتفظ بها في أحد جيوبه أعطت لكل خطوةٍ من خطواته احتفالية مسرحية وأتاحت له أن يجعل من حياته أسطورةً عظيمة! كان مقتنعاً بأنه يحمل معه الموتَ في ورقة حرير صغيرة، في حين أن ذلك لم يكن سوى ضحكة سكريتا الوديعة.

أدركَ جاكوب أن صديقه كان في المحصِّلة مُحِقّاً، لكنه لم يستطع منع نفسه من التفكير بأنَّ سكريتا الذي أحبه ذلك الحب أصبح دفعةً واحدة طبيباً عادياً، مثل آلاف الأطباء. لأن ماميَّزَهُ جذرياً عن الناس الذين عرَفهُم جاكوب هو كونه أعطاه السم دون تردد، مثل أمر طبيعي تماماً. كان في سلوكه شيء عجيب. لم يكن يتصرف كما يتصرف الناسُ مع الناس. لم يتساءل إطلاقاً عن احتمال إساءة استعمال جاكوب للسم في نوبةٍ هستيرية أو نوبة اكتئاب. عامَلَهُ كإنسانٍ سيدٍ على نفسه كلياً وليس لديه ضعف الإنسان. كان أحدهما يسلك مع الآخر مسلك الإله المرغَم على العيش بين البشر ـ وهذا مابدا جميلاً ولا ينسى. وفجأةً انتهى الأمر.

راح جاكوب ينظر إلى زرقة السماء ويقول لنفسه: لقد منحني اليومَ الارتياحَ والسلام، وفي الوقت نفسه، جَرَّدَني منه، انتزع مني الـ سكريتا الذي عرفْتُه.

5

أنذهَلَ كليما من قبول روزينا، وأصيب ببلادةٍ وديعة، لكنَّه لزِمَ قاعة الانتظار ولم يكن ممكناً أن يبارحها حتى ولو أُغرِي بأكبر

جائزةٍ. انْحَفَرَ اختفاءُ روزينا الغامض، منذ عشية الأمس، في ذاكرته على نحوٍ مهدَّد. كان عازماً على الانتظار هنا بصبر كيلا يثنيها أحد عن عزمها، أو يأخذها أو يخطفها.

بدأت بعض النزيلات بالوصول، فتحن الباب الذي اختفت وراءه روزينا، بقي بعضهن هناك، وعادت الأخريات للجلوس فوق الكراسي المصفوفة على طول الجدران، ورحن جميعاً يتفحصن كليما بفضول، لأنهن لم يعتدن رؤية رجال في قاعة الانتظار التابعة لقسم النساء.

ظهرت بالباب امرأة بدينة ترتدي قميصاً أبيض ونظرت إليه طويلاً؛ ثم اقتربت منه وسألته إذا كان ينتظر روزينا. احمرَّ وأجاب بالإيجاب.

«لا داعي للانتظار. لديك وقت كاف من الآن حتى التاسعة»، قالت بألفةٍ استفزازية، وشعر كليما أن جميع النساء الحاضرات في القاعة سمعنها وعرفن بأي شيء يتعلق الأمر.

كانت الساعة تُقارِب التاسعة إلا ربعاً حين ظهرت روزينا من جديد مرتدية طقم خروج. مشى في أثرها وخرجا صامتين من مؤسسة الحمامات. كلاهما غارق في أفكاره ولم يلاحظا فرانتيزيك الذي راح يتبعهما، متوارياً بشجيرات الحديقة العامة.

6

لم يبق أمام جاكوب سوى الاستئذان من أولغا وسكريتا بالانصراف، لكنه أراد قبل ذلك أن يتنزه لحظةً بمفرده (للمرة الأخيرة) في الحديقة العامة، ويتأمل، بحنينٍ، الأشجار الشبيهة بألسنة اللهب.

في لحظة خروجه إلى الممشى، فتحت امرأةٌ بابَ الغرفة المقابلة، وأسَرتْ قامتُها العاليةُ بصرَه. وحين استدارتْ أذهلَهُ جمالُها.

خاطبها: «هل أنت صديقة للدكتور سكريتا؟»

ابتسمت المرأة بلطف: «كيف عرفت؟

ـ خرجْتِ من الغرفة التي يخصصها الدكتور سكريتا لأصدقائه، قال جاكوب، وقدَّمَ نفسَه.

ـ تشرَّفْتُ. أنا السيدة كليما. الدكتور أنزلَ زوجي هنا. وأنا أبحث عنه. لابد أنه مع الدكتور. هل تعرف أين يمكن أن أجده؟»

كان جاكوب يتأمل المرأة الشابة بمتعةٍ لاترتوي وخطر في ذهنه (مرةً أخرى!) أن هذا اليوم هو آخر يوم يقضيه هنا، وأنَّ هذا يُكسِب أقلَّ حدَثٍ دلالةً خاصة فيغدو رسالةً رمزية.

ولكن، ما الذي تعنيه له هذه الرسالة؟

«أستطيع أن آخذك إلى الدكتور سكريتا، قال.

ـ أكون شديدة الامتنان لك»، أجابت.

نعم، ما الذي تعنيه له هذه الرسالة؟

أولاً، إنها ليست سوى رسالة، لا أكثر. فخلال ساعتين سيسافر جاكوب ولن يبقى له شيءٌ من هذا المخلوق الجميل. بدت له هذه المرأة مثل جُحودٍ. إنما التقاها فقط لكي يعرف بأنها لايمكن أن تكون له. التقاها كصورةٍ لكلِّ ما سيَخسَرُهُ بسبب رحيله.

«شيء عجيب، قال. اليوم، ستكون المرة الأخيرة في حياتي التي أتكلم فيها مع الدكتور سكريتا».

لكن الرسالة التي حملتها له هذه المرأة تقول شيئاً آخر أيضاً. جاءت هذه الرسالة لكي تُعلن له، في اللحظة الأخيرة تماماً، عن الجَمال. نعم، الجمال. وفهم جاكوب بفزع تقريباً بأنه لايعرف شيئاً عن الجمال، بأنه مرَّ دون أن يراه، وهو لم يعِشْ من أجله قط. فَتَنَهُ جمالُ هذه المرأة. شعر فجأةً بأن ثمة خطأ ما، كان موجوداً دوماً منذ البداية، في جميع حساباته. ثمة عنصر نسِيَ أن يأخذه بعين الاعتبار. بدا له أنه لو عَرِفَ هذه المرأة لاختلَفَ قرارُه.

«كيف ستكلمه للمرة الأخيرة؟

ـ أنا مسافر إلى الخارج. وسأبقى طويلاً».

ليس الأمر في أنه لم يعرف نساء جميلات، لكن جاذبيتهن كانت دوماً شيئاً ثانوياً بالنسبة له. والشيء الذي كان يدفعه نحو النساء هو الرغبة بالانتقام، أو الحزن وعدم الرضا، أو التعاطف والشفقة. كان عالَمُ النساء يتوحَّد بالنسبة له مع المأساة المُرَّة التي يشارك بها في هذا البلد الذي هو مضطهِدٌ ومضطَهَد فيه، والذي عاش فيه معارك كثيرة ولم يعِش أي حبٍّ بريء. لكن هذه المرأة ظهرت أمامه منفصلةً عن كل ذلك، منفصلةً عن حياته، جاءت من الخارج، ظهرتْ له، ليس كامرأة جميلة، بل الجمال نفسه، وأعلنت له أنه يمكن العيش هنا بشكل آخر، ولأجل شيء آخر. أعلنت له أن الجمال هو أكثرُ من العدالة، أن الجمال أكثرُ من الحقيقة، أنه شيء أكثر حقيقيةً، أكثر يقينيةً، وأيضاً أيسر مَنالاً. أن الجمال فوق كل الأشياء، وأنه فَقَدَهُ في هذه اللحظة نهائياً. جاءتْ هذه المرأة الجميلة لتَمْثُلَ أمامه كيلا يعتقد بأنه عَرفَ كل شيء وأنه عاش حياته هنا مستنفداً كل الإمكانات.

«أحسدكَ»، قالت.

سارا معاً عبر الحديقة العامة، كانت السماء زرقاء، والشجيرات صفراء وحمراء، وردَّدَ جاكوب في سره بأن أوراقها هي صورة النار التي تحترق فيها جميعُ المغامرات، جميعُ الذكريات وجميعُ المناسبات التي عاشها في ماضيه.

«ليس هناك مايدعو لأن تحسديني. أحس الآن أنني يجب ألا أذهب.

ـ لماذا؟ بدأت الحياةُ هنا تعجبك في اللحظة الأخيرة؟

ـ أنت التي تعجبينني. تعجبينني بشكل مخيف. أنت جميلة للغاية».

قال هذا دون أن يعرف كيف، ثم فكر أنه يحق له أن يقول لها كل شيء لأنه سيسافر خلال بضع ساعات، ولأنه لن تترتب نتائجٌ عليه أو عليها من كلماته. كانت هذه الحرية التي اكتشفها فجأةً تُسْكِرُهُ.

«عشتُ أعمى. أعمى. اليوم فهمتُ للمرة الأولى أنَّ الجمال موجود. وأنني مررتُ بجانبه».

اختلطَ بالنسبة له بالموسيقى واللوحات، بتلك المملكة التي لم يطأها أبداً. اختلطَ بالأشجار متعددة الألوان من حوله، التي، فجأةً، لم يعد يرى فيها رسائل أو دلالات (صورة حريقٍ أو خَرْقٍ موتى) لم يعد يرى فيها سوى نشوة الجمال الذي استيقظ على نحو غامض مع وقْعِ خطى تلك المرأة، مع وقْعِ صوتها.

«أريد أن أفعل أي شيء لكي أربطكِ بي. أريد أن أتخلّى عن كل شيء وأعيش حياتي كلها بطريقة مختلفة، لكِ وحدكِ، وبسببكِ وحدك. لكني لا أستطيع، لأني في هذه اللحظة لستُ هنا حقاً. كان عليَّ أن أسافر بالأمس، ولستُ اليوم سوى ظِلِّي الذي أطالَ تَرَيُّثَهُ هنا».

نعم! لقد أدرك للتو لماذا قُدِّرَ له اللقاء بها. حدث هذا اللقاء خارج حياته، في مكانٍ ما على الجانب المخبَّأ من قدَرِه، على ظاهِرِ سيرة حياته. لكنه راح يكلمها بحرية، إلى أن شعرَ فجأةً أنه سيعجز، على أية حال، عن أن يقول لها كل مايريد.

لمسَ ذراعها: «هنا عيادة الدكتور سكريتا. في الطابق الأول».

أطالت السيدة كليما النظر إليه، وغاص جاكوب بعينيه في نظرتها الرطبة والرقيقة مثل الآفاق القصيَّة. لمس ذراعها مرة أخرى، استدار وابتعد.

بعد قليل، التفت ورأى أنها ماتزال في المكان نفسه، وهي تُلاحقُهُ بنظرها. التفت عدة مرات. كانت ماتزال تنظر إليه.

7

في قاعة الانتظار جلست حوالى عشرين امرأة قلقة. لم تجد روزينا وكليما مقعداً. ثمة ملصقات كبيرة عُلِّقتْ مقابلهما فوق

الجدار، يُفتَرَضُ بالصور والشعارات التي تحملها أن تردع النساء عن الإجهاض.

ماما، لماذا لاتريدينني؟ هذا ما يمكن أن نقرأه بحروف كبيرة على ملصقٍ يصوِّر طفلاً مبتسماً فوق غطاء سرير. تحت الطفل طُبِعتْ بحروف ثخينة قصيدةٌ يناشد فيها الجنينُ أمه ألاَّ تجهض نفسها، ويَعِدُها بمئات البهجات تعويضاً عن ذلك: *بين أيدي مَنْ تريدين أن تموتي، ياماما، إذا لم تتركيني أعيش؟*

في ملصقات أخرى، ثمة صور كبيرة لأمهات مبتسمات يقُدْنَ عربات أطفال. وصور أولاد يبولون. (فكَّرَ كليما أنَّ ولداً صغيراً يبول يُعتَبَر حجةً دامغة لصالح ولادة طفل. تذكَّرَ أنه رأى يوماً في شريط أخبار الساعة صبياً يتبوَّل، وأنَّ القاعة كلها غمغمت بتنَهُداتٍ نسائية مغتبطة).

طرق كليما الباب بعد أن انتظر دقيقة؛ خرجت ممرضة ولفظ كليما اسم الدكتور سكريتا الذي جاء بعد لحظة، مدَّ يده لِ كليما بورقة طلبٍ رسمية، وطلب منه أن يملأها، ثم أن ينتظر بصبر.

أسند كليما الورقة إلى الجدار وبدأ يملأ الخانات بالمعلومات المطلوبة: الإسم، تاريخ الولادة، مكان الولادة. وروزينا تُملي عليه الأجوبة. وعندما وصل إلى خانة اسم الأب، تردَّدَ. إن رؤيةَ هذه الصفة الشائنة مكتوبةً بشكل صريح، وإلصاق اسمه بها، شيءٌ شنيع بالنسبة له.

نظرت روزينا إلى يد كليما ولاحظت أنه يرتجف. أبهجها ذلك، وقالت: «هيَّا اكتبْ! قالت.

ـ أي اسم يجب أن أكتب؟» همس كليما. وجدته خَرِعاً وجباناً، واحتقرته. كانَ خائفاً من كل شيء، خائفاً من المسؤولية، وخائفاً من توقيعه على ورقة طلب رسمية.

«يبدو لي أن الأب معروف! قالت.

ـ ظننتُ أنه ليس لهذا أهمية»، قال كليما.

لم تعد متمسكة به، لكنها في أعماقها كانت مقتنعة بأنَّ هذا

الشخص الخَرِع مذنب إزاءها، وأبهجها أن تعاقبه: «إذا أردتَ أن تكذب أشكٌ بأننا نستطيع التفاهم». عندما سجَّل اسمه في الخانة أضافت مع تنهيدة: «على كل حال، ما زلتُ لا أعرف ماذا سأفعل...

ـ كيف؟»

نظرت إلى وجهه المذعور: «إلى أن يحين موعد الإجهاض ربما أغيِّر رأيي».

8

كانت جالسة في كنبة، ساقاها ممدودتان على الطاولة، وكانت تتصفح الرواية البوليسية التي اشترتها للأيام الكئيبة في مدينة المياه. لكنها راحت تقرأ دون تركيز، لأنَّ المواقف التي حدثت في العشية، والكلام الذي قيل أشياء بقيت تتردد في ذهنها باستمرار. أعجَبَها كل ما حدث في تلك الأمسية، وأهم ما في الأمر أنها كانت مسرورة من نفسها. أصبحت أخيراً مثلما اشتهَتْ دوماً: لم تعد ضحيةَ النوايا الذُكورية، بل غدت هي نفسُها صانعةَ مغامرتِها. رفضت نهائياً دور اليتيمة البريئة القاصر التي يسيِّرها جاكوب. على العكس، هي التي أعادت تشكيله على هواها.

بدأت ترى نفسها أنيقةً مستقلةً وجريئة. وراحت تنظر إلى ساقيها اللتين وضعتهما على الطاولة، يلتصق عليهما بنطال جينز ضيق جداً، وعندما طُرق الباب صرخت بفرح: «تعال، أنا بانتظارك!»

دخل جاكوب، والغمُّ ظاهر على ملامحه.

«مرحباً!» قالت وأبقت ساقيها لحظةً أخرى فوق الطاولة. رأت الحيرة في وجهِ جاكوب فابتهجت. ثم اقتربت منه وقبلته قبلة خفيفة على خدِّه: «هلاَّ بقيت قليلاً؟

ـ لا، قال جاكوب بصوت حزين. جئتُ هذه المرة لأودِّعك حقاً.

سأسافر خلال لحظة. فكرتُ أن باستطاعتي مرافقتك مرة أخيرة حتى الحمامات.

- وهو كذلك، قالت أولغا بمرح. هيا نتنزه».

9

كان جاكوب ممتلئاً تماماً بصورة المرأة الجميلة السيدة كليما، وقد احتاج للتغلُب على نوعٍ من البُغض لكي يأتي ويودِّع أولغا التي لم تترك له في روحه، منذ عشية الأمس، سوى الانزعاج والتلوُّث. لكنه لن يدعها ترى ذلك مهما كلّف الأمر. لقد ألزَمَ نفسَهُ أن يتصرف بلباقةٍ استثنائية بحيث لا تشكّ إلى أية درجةٍ كان لَهوُ الأمس قليلَ المتعة والبهجة بالنسبة له، ولكي تحتفظ بأفضل ذكرى له. رسمَ على وجهه الوقارَ، راح يقول جملاً لامعنى لها بنبرة كئيبة، يلمس يدها بشكل مبهم، ومن وقت لآخر يمسِّد شعرها، وحين تنظر في عينيه، يجهد لكي يبدو تعيساً.

اقترحت عليه في الطريق أن يذهبا أيضاً لشرب كأس نبيذ لكن جاكوب أراد اختصار لقائهما الأخير الذي كان شاقّاً بالنسبة له إلى أقصر حد ممكن. «الوداع مؤلم جداً. لا أريد إطالته»، قال.

أمام مدخل مؤسسة الحمامات أمسك بيديها الاثنتين ونظر في عينيها طويلاً.

قالت أولغا: «جاكوب، أنت لطيف للغاية لأنك أتيت. أمسية البارحة كانت لذيذة. أنا مسرورة لكونك تخليت أخيراً عن دور الأب، ولكونك أصبحتَ جاكوب. كانت الأمور رائعةً بالأمس. ألم تكن رائعة؟»

فهمَ جاكوب أنه لم يفهم شيئاً. أيُعقَل أنَّ هذه الفتاة المرهفة لم ترَ في أمسيتهما الغرامية عشية الأمس أكثر من تسلية؟ أيُعقَل أنَّ ما

دفعها نحوه لم يكن سوى شهوانيَّة خالية من أية عاطفة؟ أيُعقَل أنَّ متعةَ ليلةٍ حبٍ واحدة أكبرُ شأناً من حزنِ فراقٍ نهائي؟

قبّلها، وتمنت له سفراً سعيداً واختفت وراء باب المدخل الكبير.

10

كان يروح ويجيء منذ ما يقرب من ساعتين أمام مبنى العيادات متعددة الاختصاصات وبدأ صبره ينفد. ضبط نفسه مردداً في سره بأنه يجب ألا يثير فضيحة، لكنه شعر أنه قريباً ربما لاتعود لديه قوة للسيطرة على نفسه.

دخل المبنى. ليست محطة المياه الحارة كبيرة، والجميع هناك يعرفه. سأل البواب إذا كان قد رأى روزينا تدخل. أجاب البواب بالإيجاب وقال إنه رآها تأخذ المصعد. بما أن المصعد لا يتوقف إلا في الطابق الثالث، وأنه يجب صعود السلالم للذهاب إلى الطوابق الأدنى، بات بوسع فرانتيزيك أن يَحصر شكوكَه في مَمَرَّيْ الطابق الأعلى من المبنى. في الأول توجد مكاتب، وفي الثاني عيادة الأمراض النسائية. سار أول الأمر في الممر الأول (كان مقفراً) ثم دخل الممر الثاني وهو يعاني من شعور بالضيق لمعرفته بأن دخول هذا المكان ممنوع على الرجال. لمح ممرضةً يعرفها بالشكل. سألها عن روزينا. فأشارت إلى باب في طرف الممر. كان الباب مفتوحاً، وكانت بعض النساء والرجال ينتظرون وقوفاً عند العتبة. دخل فرانتيزيك إلى قاعة الانتظار، ورأى نساء أخريات جالسات، ولكن لم تكن روزينا ولا عازف الترومبيت موجودين هناك.

«أرأيتم امرأة شابة شقراء؟»

دلت امرأةٌ إلى باب المكتب وقالت: «لقد دخلا».

رفع فرانتيزيك عينيه نحو الملصقات: *ماما، لماذا لا تريدينني؟*

وعلى ملصقات أخرى رأى صورة أولاد صغار يتبولون وأطفالاً حديثي الولادة. بدأ يفهم ما يجري.

11

توجد في الغرفة طاولة طويلة. وقد جلس كليما بجانب روزينا، وتصدَّر الدكتور سكريتا المكان مقابلهما، تدعمه من الجانبين سيدتان مكتنزتان.

رفع سكريتا عينيه نحو القادمَيْن وهزَّ رأسه بقرف قائلاً: «مجردُ النظر إليكما يسبِّب لي الألم. هل لديكما فكرة عن المشقة التي نتكبَّدها هنا لإعادة الخصوبة لنساء قليلات حظ لايستطعن الإنجاب؟ وها هم شبَّان مثلكما، في صحة جيدة، وبنيان متين، يسعون بملء إرادتهم للتخلص من أثمنِ هديةٍ يمكن أن تقدِّمها الحياةُ لنا. أحذِّركما صراحةً أنَّ هذه اللجنة ليست هنا لكي تشجِّع على الإجهاض، بل لكي تُقَنِّنه».

أصدرت المرأتان همهمةً مؤيِّدة وتابع الدكتور سكريتا درسَهُ الأخلاقي الموجه للزبونين. كان قلب كليما يخفق بشدة. لقد استشفَّ بأنَّ كلمات الدكتور ليست موجهة له، بل لمساعدتيه اللتين تكرهان الشاباتِ رافِضات الإنجاب، بكلِّ عنفوان بطنيهما المحبَّيْن للأمومة لكنه خشي أن تسمح روزينا لهذا الخطاب بأن يزعزعها. ألم تقل له قبل لحظة بأنها لا تعرف بعد ما الذي ستفعله؟

«لماذا تريدان العيش؟ استأنف الدكتور سكريتا. الحياة بدون أطفال أشبه بشجرة دون أوراق. لو كنتُ أملك السلطة هنا لمنعتُ الإجهاض. ألا تُقلِقُكما فكرةُ نقص السكان كل عام؟ يحدث هذا عندنا حيث تتمتع الأم والطفل بحماية أفضل من أي مكان آخر في العالم! هنا، حيث ليس لدى أحدٍ ما يدعوه أن يخشى على مستقبله؟»

أصدرت المرأتان من جديد همهمةً مؤيِّدة، وتابع الدكتور سكريتا: «الرفيق متزوج ويخشى من تحمُّل نتائج علاقة جنسية لامسؤولة. ولكن، كان عليك أن تفكر بهذا من قبل!»

صمتَ الدكتور سكريتا قليلاً، ثم خاطب كليما مجدداً: «ليس لديك أطفال. ألا تستطيع حقاً أن تطلِّق زوجتك من أجل مستقبل هذا الجنين؟

ـ مستحيل، قال كليما.

ـ أعرف، قال الدكتور سكريتا متنهِّداً. وصَلَني رأيُ الطبيب النفسي الذي يقول بأن السيدة تشكو من ميول انتحارية. ربما تُهدِّد ولادةُ الطفل حياتَها، تهدم بيتاً، وستكون الممرضة روزينا أماً عازبة. ماذا يمكن أن نفعل؟» قال بتنهيدة جديدة، ودفع بالورقة الرسمية أمام المرأتين اللتين تنهَّدَتا بدورهما ووَقَّعَتا في الخانة المطلوبة.

«تأتين إلى هنا يوم الاثنين القادم في الثامنة صباحاً من أجل العملية»، قال الدكتور سكريتا لروزينا وأشار لها أنَّ بوسعها الانسحاب.

«أما أنتَ، فابقَ هنا!» قالت إحدى السيدتين البدينتين لكليما. خرجت روزينا فقالت المرأة: «عملية إيقاف الحمل ليست تلك العملية الهيِّنة التي تظنُّها. رافقها نزف شديد. إنك، بسلوكك اللامسؤول، تُسبِّب للرفيقة فقدان دمها، لذا فمن العدل أن تعطيها من دمك». دفعت بورقة رسمية في وجه كليما وقالت له: «وقِّع هنا».

وقَّع كليما المليء بالارتباك، بكل طواعية.

«هذا طلب انتساب للجمعية التطوُّعية للتبرع بالدم. انتقل إلى الجناح الجانبي، ستأخذ منك الممرضة دماً على الفور».

12

اجتازت روزينا قاعة الانتظار وهي تنظر إلى الأسفل ولم ترَ فرانتيزيك إلاّ حين وجَّهَ إليها الكلام في الممر.

«من أين تأتين؟»

خافت من عبارته الغاضبة وحثّت الخطى.

«أسألك من أين تأتين.

ـ هذا ليس من شأنك.

ـ أعرف من أين تأتين.

ـ لا تسألني إذن».

نزلا السلم، وراحت روزينا تهبط الدرجات بسرعة لكي تفلت من فرانتيزيك ومن المحادثة.

«إنها لجنة الإجهاض»، قال فرانتيزيك.

صمتت روزينا. وخرجا من المبنى.

«إنها لجنة الإجهاض. أعرف ذلك. وتريدين أن تجهضي.

ـ أفعلُ ما يحلو لي.

ـ لن تفعلي ما يحلو لك. هذا يعنيني أيضاً».

حثت روزينا الخطى، حتى كادت تعدو عدواً، وفرانتيزيك يعدو وراءها. حين وصلا قرب باب الحمامات قالت: «أمنعك من اللحاق بي. عندي الآن عمل. لايحقّ لك أن تزعجني في عملي».

كان فرانتيزيك مستثاراً جداً: «أمنعكِ من إعطائي الأوامر!

ـ ليس لكَ الحقّ!

ـ أنتِ التي ليس لكِ الحق!»

ودخلت روزينا المبنى يتبعها فرانتيزيك.

13

اغتبط جاكوب لأنَّ كل شيء انتهى ولأنه لم يعد أمامه سوى شيء واحد يفعله: أن يودِّع سكريتا. سار ببطء من الحمامات عبر الحديقة العامة حتى مجمع كارل ماركس.

من بعيد، في ممر الحديقة العامة، الكبير، كانت تُقبِل نحوه

معلِّمةٌ ووراءها حوالى عشرين طفلاً من الحضانة. كانت المعلِّمة تمسك بيدها حبلاً طويلاً أحمر اللون يمسك به جميع الأطفال الذين يلحقون بها واحداً إثر الآخر. الأطفال يمشون رويداً رويداً والمعلمة تشير لهم إلى الشجيرات والأشجار وتسمِّيها بأسمائها. توقف جاكوب لأنه لم يسبق أن عرف شيئاً عن النباتات ولأنه ينسى دوماً أنَّ شجرة قَيْقَب تدعى شجرة قيقب، وشجرة نيريَّة تدعى شجرة نيرية.

أشارت المعلمة إلى شجرة كثيفة ومصفَرَّة الأوراق: «هذه شجرة زيزفون».

راح جاكوب ينظر إلى الأطفال. كانوا جميعاً يرتدون معاطف زرقاء وقبعات حمراء كأنهم أشقاء. نظر إلى وجوههم فوجدهم متشابهين، ليس بسبب الملابس، بل بالأحرى بسبب هيئة وجوههم. إذ أن سبعة منهم لهم أنوف محدَّبة بشكل واضح، وأفواه كبيرة. كانوا يشبهون الدكتور سكريتا.

تذكَّرَ الطفل صاحب الأنف الكبير في نزْل الغابة. هل يُعتَبَرُ حلُمُ الدكتور في موضوع تحسين النسل مجرَّد فانتازيا؟ هل يمكن حقاً أن يولد في هذا البلد أطفالٌ يكون سكريتا أباهُم الأعلى؟

وجد جاكوب هذه الفكرة مضحكةً. كل هؤلاء الأطفال متشابهون لأن كل أطفال العالم متشابهون.

مع ذلك، لم يستطع منع نفسه من التفكير: وماذا لو حقَّقَ سكريتا مشروعه الفريد فعلاً؟ لماذا لا يمكن لمشاريع عجيبة أن تتحقق؟

«وهذه، ماهي يا أولادي؟

- هذه شجرة بتولا!» أجاب سكريتا صغير؛ نعم، كانت له صورة سكريتا تماماً؛ لم يكن له أنف كبير وحسب، بل كان يضع نظارات صغيرة ولفْظُهُ أخَنّ يجسِّد طريقة سكريتا في الكلام على نحوٍ هزليٍّ مؤثِّر جداً.

«ممتاز يا أولدريش!» قالت المعلمة.

فكرَ جاكوب: خلال عشر سنين أو عشرين سنة سيكون في هذا

البلد آلافُ السكريتات. ومن جديد انتابه شعورٌ بأنه عاش في هذا البلد دون أن يعرف مايجري فيه. لقد عاش تقريباً في قلب الحدث. عاش أصغرَ حدثٍ من الأحداث المحلية. عمل بالسياسة وكاد يفقد حياته فيها، وحتى عندما هُمِّش بقيت السياسةُ شُغلَهُ الشاغل. اعتقدَ دوماً أنه يسمع القلب النابض في صدر البلد. ولكن، مَنْ يعرف ما الذي كان يسمعه بالفعل؟ هل كان ذلك قلباً، أم مجرد منبِّهٍ عتيق؟ منبِّه عتيق من النفايات، يقيس وقتاً مزيفاً؟ ألم تكن جميعُ معاركه مجرد وهجٍ يلهيه عن الشيء المهم؟

قادت المعلمة الأطفال في الممر الكبير للحديقة العامة، وكان جاكوب يشعر أنه مايزال ممتلئاً بصورة المرأة الجميلة. إنَّ تَذَكُّرُ هذا الجمال يعيدُ إلى ذهنه بلا انقطاع سؤالاً: وماذا لو أنه عاش في عالمٍ مختلف كلياً عما كان يتخيله؟ وماذا لو أنه رأى كل الأشياءَ بالمقلوب؟ وماذا لو كانت للجمال دلالة أكبر مما للحقيقة، وماذا لو كانت تلك البنتُ التي حملَتْ لِـ برتليف زهرةَ دهليَّة ملاكاً بالفعل؟

سمع المعلمة تسأل: «وهذه، ما هذه؟»

أجاب الـ سكريتا الصغير صاحبُ النظارة: «هذه شجرة قيقب».

14

كانت روزينا تصعد الأدراج أربعاً أربعاً وتحاول جهدها ألاّ تلتفت. صفقت باب صالة الخدمة وتوجَّهت بسرعة إلى حجرة الملابس. ارتدت قميص التمريض الأبيض فوق الجسم مباشرةً، وأطلقت تنهيدة ارتياح. إن ما حدث مع فرانتيزيك سبَّب لها الاضطراب، لكنه في الوقت نفسه هدَّأها على نحوٍ غريب. فقد شعرت الآن أنَّ فرانتيزيك وكليما غريبان بالنسبة لها وبعيدان.

خرجت من الحجرة ودخلت القاعة التي تمددت فيها نساء فوق أسرَّةٍ بعد حمَّامهن.

كانت الأربعينيةُ جالسةً خلف الطاولة الصغيرة قرب الباب. «ماذا؟ هل حصلتِ على التصريح؟ سألتها ببرود.

ـ نعم. أشكرك»، قالت روزينا وناولت مفتاحاً وملاءة كبيرة لمريضةٍ جديدة.

حالما خرجت الأربعينية انشقَّ الباب ولاح رأسُ فرانتيزيك.

«غير صحيح أنَّ هذا ليس إلا من شأنكِ. بل من شأننا نحن الاثنين. أنا أيضاً يجب أن أقول كلمتي!

ـ أرجوك، انصرف من هنا! أجابت. هذا قسم النساء لا شأن هنا للرجال! انسحب في الحال وإلاَّ جعلتُهُم يأخذونك!»

اصطبغ وجه فرانتيزيك بحمرةٍ شديدة، وأغضبته كلماتُ روزينا المهدِّدة، إلى درجة أنه تقدَّم داخل الغرفة وصفق البابَ وراءه. «سواءٌ عندي تماماً أن تجعليهم يأخذوني! سواءٌ عندي تماماً! صرخ.

ـ أقول لك أن تنصرف حالاً! قالت روزينا.

ـ لقد كشفتُكما، أنتما الاثنين! إنه ذلك الشخص! عازف الترومبيت ذاك! هذا كله أكاذيب! لقد رتَّبَ كل شيء لأجلكِ مع الدكتور لأنه عزف معه البارحة في أمسية موسيقية! أما أنا فأرى الأمور بوضوح وسأمنع أن يُقتَل ابني! أنا الأب ويجب أن أقول كلمتي! أمنعكِ من قتل ابني!»

راح فرانتيزيك يصرخ ورفعت النساء الممددات فوق الأسرة، والملفوفات بالملاءات، رؤوسهنّ بفضول.

هذه المرة اضطربت روزينا بدورها تماماً لأن فرانتيزيك يصرخ ولم تعرف ماذا تفعل لتهدئة الشجار.

«ليس ابنكَ، قالت. أنتَ مَن اخترَع هذا. الطفل ليس منك.

ـ ماذا؟ زعق فرانتيزيك وتقدَّم داخل القاعة، دارَ حول الطاولة

واقترب من روزينا: كيف! ليس ابني! أنا مَن يستطيع أن يعرف! وأنا أعرف ذلك!»

في تلك اللحظة اقتربت من روزينا امرأةٌ عارية ومبللة، خارجة من المسبح، لكي تلفَّها في ملاءة وتقودها إلى أحد الأسرَّة. جفلتْ حين رأت فرانتيزيك على بعد بضعة أمتار منها يتفرَّس في وجهها بعينين لا تَرَيان.

كانت تلك لحظةَ راحةٍ بالنسبة لروزينا؛ اقتربت من المرأة، لفَّتْها بملاءة وقادتها نحو أحد الأسرَّة.

«ماذا يفعل هذا الشخص هنا؟ سألت السيدة وهي تلتفت نحو فرانتيزيك.

ـ إنه مجنون! هذا الشخص فقد رشده ولا أعرف كيف أخرِجُهُ من هنا. لم أعد أعرف كيف أتصرف مع هذا الشخص!» قالت روزينا وهي تلفُّ السيدة في غطاء دافئ.

صرخت سيدة مستلقية مخاطبةً فرانتيزيك: «هيه أيها السيد! ليس لك عمل هنا! انصرفْ من هنا!

ـ صدقيني لي عمل هنا!» ردَّ فرانتيزيك بعناد، دون أن يتزحزح من مكانه. حين عادت روزينا إلى جانبه زالت حمرتُهُ، بل شحُب لونه؛ لم يعد يصرخ، بل بدأ يتكلم بصوتٍ منخفض ونبرة حاسمة: «سأقول لكِ شيئاً. إذا تخلَّصتِ من الطفل، أنا أيضاً لن أعود موجوداً. إذا قتلتِ هذا الطفل أقول لكِ بأنه سيجثم ميِّتان فوق ضميرِكِ».

أطلقت روزينا تنهيدةً عميقة ونظرت إلى طاولتها. كانت حقيبة يدها فوقها، وبداخلها أنبوب الحبوب الزرقاء الشاحبة. أسقطتْ منه حبة في باطن يدها وابتلعتها.

وقال فرانتيزيك بصوتٍ لم يعد صارخاً بل متوسِّلاً: «أرجوكِ، روزينا. أرجوك. لا أستطيع العيش بدونك. سأنتحر».

في تلك اللحظة شعرت روزينا بألم عنيف في أحشائها ورأى فرانتيزيك وجهها ينقلب وقد جعله الألم يتشنَّج، وعينيها تنفتحان

على وسعهما، ولكن دون نظرة، وجسدها يتلوَّى، وينثني على نفسه، ويديها تضغطان فوق بطنها. ثم رآها تنهار أرضاً.

15

كانت أولغا تتخبَّط في المسبح وفجأةً سمعتْ... ماذا سمعت بالضبط؟ لا تعرف ماذا سمعت. امتلأت القاعةُ بالاضطراب. النساء بجانبها يخرجن من المسبح وينظرن باتجاه الغرفة المجاورة التي بدا أنها تمتصُّ كلَّ شيءٍ قريب. أولغا أيضاً انجَرَفَتْ في هذا التيار الامتصاصي الذي لا يُقاوَم، ودون أن تفكِّر بشيء لحقت بالأخريات يملؤها فضولٌ قلِق.

رأت في الغرفة المجاورة كتلةً من النساء قرب الباب. رأتهنَّ من ظهورهن: كنَّ عاريات ومبللات، أردافهنَّ بارزة، منحنياتٍ نحو الأرض. ووقف مقابلهنّ شابٌّ بلا حراك.

انضمَّت إلى المجموعة نساء أخريات متدافِعات. شقَّت أولغا بدورها لنفسها طريقاً في الزحام ورأت أنَّ الممرضة روزينا طريحة الأرض ولا تتحرك. جثا الشاب على ركبتيه وبدأ يوَلْوِل: «أنا الذي قتلتُها! أنا الذي قتلتها! أنا قاتل!»

كانت النساء يقطُرْن ماءً. انحنت إحداهن فوق جسد روزينا الممدد لجسِّ نبضها. لكنها كانت حركة بلا طائل، لأن الموت كان هناك ولم يشكَّ أحدٌ بحضوره. وراحت أجساد النساء العارية والمبللة تتدافع بنفاد صبر لرؤية الموت عن كثب، لرؤيته فوق وجهٍ مألوف.

كان فرانتيزيك مايزال جاثياً، يضمُّ روزينا بين ذراعيه ويقبّل وجهها.

تجمَّعت النساء حوله وكان فرانتيزيك يرفع ناظريه نحوهن ويردد: «أنا الذي قتلتها! أنا! أوقفوني!

ـ يجب أن نفعل شيئاً!» قالت إحدى النساء، وخرجت امرأةٌ أخرى إلى الممر راكضةً وأخذت تنادي. بعد لحظة هرعت زميلتا روزينا يتبعهما طبيب بقميص أبيض.

عندها فقط انتبهت أولغا أنها عارية، وأنها تتدافع بين نساء أخريات عاريات أمام شاب وطبيب لا تعرفهما وبدا لها هذا الموقفُ فجأةً مضحكاً. لكنها كانت تعرف أن ذلك لن يمنعها من البقاء هنا في الزحام ومن النظر إلى الموت الذي يفتنُها.

أمسك الطبيب بمعصم روزينا الراقدة، باحثاً، عبثاً، عن نبض، ولم يكفّ فرانتيزيك عن ترديد جملته: «أنا الذي قتلتها! استدعوا الشرطة، أوقفوني!»

16

وجد جاكوب صديقَهُ في عيادته بمجمّع كارل ماركس ساعة عودته من مبنى العيادات. هنّأهُ على أدائه في أمسية البارحة على الطبول، واعتذر لأنه لم ينتظره بعد الحفلة.

«لقد أغاظني ذلك جداً، قال الدكتور. هذا آخر يوم تقضيه هنا ولا يعرف غير الله أين تسكّعتَ مساءً. كان لدينا أشياء كثيرة نناقشها. والأسوأ هو أنك كنتَ بالتأكيد بصحبة تلك النحيلة الصغيرة. ألاحظ أن الامتنان شعور شنيع.

ـ أي امتنان؟ على أي شيء أمتَنُّ لها؟

ـ كتبتَ لي بأنَّ أباها فعلَ الكثير من أجلك».

لم يكن لدى الدكتور سكريتا مراجعات في ذلك اليوم، وكانت طاولة الفحص النسائي فارغة في صدر الغرفة. وجلس الصديقان على مقعدين متقابلين.

«ولكن لا، قال جاكوب. أردتُ فقط أن تهتمَّ بها وبدا لي من الأسهل أن أقول لك بأنني أدين لأبيها بالعرفان بالجميل. لكن الأمر،

في الحقيقة، ليس كذلك. والآن باعتباري أُنهي كلَّ شيء أستطيع إخبارك بالأمر. عندما أوقِفتُ، فقد أوقِفْتُ بموافقة أبيها التامة. أبوها هو الذي أرسلني إلى الموت. بعد ستة أشهر، وجَدَ نفسَهُ محكوماً بالموت، في حين شاء حظي أن أنجو.

ـ بعبارةٍ أخرى، هذه ابنة رجلٍ قذِر»، قال الدكتور.

هزَّ جاكوب كتفيه وقال: «اعتَقَدَ بأنني عدوٌّ للثورة. الجميع كانوا يرددون ذلك على أسماعه فجعلهم يقنعونه.

ـ ولماذا قلتَ لي بأنه صديقك؟

ـ كنا صديقين. غير أنَّ تَصويتَهُ لصالِح إيقافي كان أكثر أهميةً له. فقد برهن بذلك على أنه يضع المُثُلَ فوق الصداقة. وحين وشى بي كعدوٍ للثورة تولَّد لديه الإحساس بأنه يُسْكِت مصلحته الشخصية لصالح شيء أسمى، واعتبرَ هذا الأمر أعظمَ فعلٍ في حياته.

ـ وهل هذا سبب لكي تحب تلك الفتاة القبيحة؟

ـ ليس لها أية علاقة بهذا. إنها بريئة.

ـ هناك آلاف البريئات مثلها. وإذا اخترتَها من بينهنَّ جميعاً فذلك لأنها ابنة أبيها، دون شك».

هزَّ جاكوب كتفيه وتابع الدكتور سكريتا: «أنت لا تقلُّ عنه فساداً. أظن أنك أنت أيضاً تعتَبر صداقتَكَ لتلك الفتاة أعظمَ فعلٍ في حياتك. لقد خنقتَ في داخلكَ الحقدَ الطبيعي، كتمتَ اشمئزازكَ الطبيعي لكي تبرهن لنفسك بأنك شهمٌ. هذا جميل ولكنه في الوقت نفسه مضاد للطبيعة وبلا طائل على الإطلاق.

ـ هذا غير صحيح، احتجَّ جاكوب. لم أشأ خنقَ شيء في داخلي، ولم أحاول أن أبدو شهماً. أشفقتُ عليها ببساطة منذ رأيتُها في المرة الأولى. كانت ماتزال طفلة حين طُرِدت من بيتها. كانت تسكن مع أمها في مكان ما من قريةٍ جبلية، وكان الناس يخشون الكلام معهما. وفشلت زمناً طويلاً في الحصول على إذنٍ بالدراسة، مع أنها فتاة موهوبة. من السفالة أن يُضطهد الأطفال بسبب آبائهم. كنتَ تريدني أن أكرهها أنا أيضاً بسبب أبيها؟ لقد أشفقتُ عليها. أشفقتُ

عليها لأن أباها أُعدِم، وأشفقتُ عليها لأن أباها أَرسَلَ صديقاً له إلى الموت».

في تلك اللحظة رنَّ الهاتف. رفع سكريتا السماعة وأصغى لحظةً. اغتَمَّ وقال: «لديَّ عمل هنا حالياً. هل يجب أن أحضر حقاً؟» ثم سادت لحظة صمت وقال سكريتا: «حسناً. أنا قادم». أقفل وشتَمَ.

«إذا كانوا يطلبونك، فلا تهتم بي، يجب أن أذهب في جميع الأحوال، قال جاكوب وهو ينهض من مقعده.

ـ لا، لن تذهب! لم نتناقش في أي شيء. ويجب أن نتناقش اليوم حول موضوعٍ ما، أليس كذلك؟ لقد قطعوا لي حبلَ أفكاري. وكنتُ أفكر بشيء مهم. منذ الصباح أفكر به. ألا تتذكر حول ماذا؟

ـ لا، قال جاكوب.

ـ يا إلهي، وأنا عليَّ أن أسرع إلى مؤسسة الحمامات...

ـ من الأفضل أن نفترق هكذا، في قلب حديث»، قال جاكوب وشدَّ على يد صديقه.

17

كان جسد روزينا الميت يرقد في غرفة صغيرة مخصصة عادةً للأطباء العاملين ليلاً. وثمة أشخاص عديدون يتحركون فيها، وقد حضر مفتش الجنائية، وكان قد استجوبَ فرانتيزيك للتو وسجَّلَ إفادته. عبَّرَ فرانتيزيك مرةً أخرى عن رغبته بأن يوقِفوه.

«هل أنت مَن أعطاها تلك الحبة، أجِبْ بنعم أو لا؟ قال المفتش.

ـ لا!

ـ لا تَقُل بأنك قتلتَها إذن.

ـ كانت دوماً تقول لي بأنها ستنتحر، قال فرانتيزيك.

ـ ولماذا تقول لك بأنها ستنتحر؟

ـ قالت لي إنها ستنتحر إذا بقيتُ أفسِد عليها حياتها. قالت لي إنها لا تريد إنجاب طفل. بأنها تفضّل الانتحار على أن يكون لها طفل!»

دخل الدكتور سكريتا الغرفة. حيًّا المفتش بمودة واقترب من المتوفية؛ رفع جفنَها لكي يرى لون الملتحمة.

«دكتور، أنتَ كنتَ الرئيس الإداري لهذه الممرضة، قال المفتش.

ـ نعم.

ـ هل تعتقد أنها استخدمت سماً يتوافر عادةً في مكتبك؟»

استدار سكريتا من جديد نحو جثة روزينا وجعلهم يشرحون له تفاصيل موتها. ثم قال: «لا يبدو لي الأمر كأنه دواء أو مادة تزوَّدتْ بها من عياداتنا الاستشارية. كان بدون شك مُرَكّب قَلَويّ. سيحدد التشريحُ ما هو.

ـ ولكن، كيف حصلتْ عليه؟

ـ يصعب القول.

ـ حالياً، كل هذا غامض حقاً، قال المفتش. وكذلك الدافع. أسرَّ لي هذا الشاب بأنها كانت تنتظر منه طفلاً وأنها أرادت أن تجهض نفسها.

ـ إنه ذلك الشخص. هو الذي أجبرها على هذا، صرخ فرانتيزيك.

ـ مَنْ؟ سأل المفتش.

ـ عازف الترومبيت. أراد أن يأخذها مني ويجبرها على إسقاط طفلي! لقد تبعتُهُما! كان معها في اللجنة.

ـ أستطيع أن أؤكد ذلك، قال الدكتور سكريتا. صحيح أننا درسنا هذا الصباح طلب إجهاضٍ لهذه الممرضة.

ـ هل كان عازف الترومبيت معها؟ سأل المفتش.

ـ نعم، قال سكريتا. أعلنتْهُ روزينا أباً لطفلها.

ـ هذا كذب! الطفل مني! صرخ فرانتيزيك.

ـ لا أحد يشك بذلك، قال الدكتور سكريتا، ولكن كان يجب أن تعلن روزينا عن أب يكون شخصاً متزوجاً لكي تأذن اللجنةُ بوقف الحمل.

ـ كنت تعرف إذن أن هذا كذب! صرخ فرانتيزيك مخاطباً الدكتور سكريتا.

ـ وفقاً للقانون من واجبنا أن نصدِّق تصريحات المرأة. وطالما قالت لنا روزينا بأنها حامل من السيد كليما، وأكَّدَ السيد تصريحاتِها، فلا يحقُّ لأيٍّ منا ادِّعاء العكس.

ـ لكنك لم تصدق أن كليما هو الأب؟ سأل المفتش.

ـ لا.

ـ وعلى ماذا يستند رأيك؟

ـ السيد كليما جاء إلى مدينة المياه هذه مرتين ككل، ولوقتٍ قصير جداً. ثمة احتمال قليل بأن علاقة جنسية قامت بينه وبين ممرضتنا. ومحطة الحمة هذه أصغر من أن يحدث فيها هذا دون أن يصلني عنه تقرير. كل الاحتمالات تقول إن أبوَّة كليما كانت حيلةً أقنعته روزينا باللجوء إليها لكيٍ تأذن اللجنة بعملية الإجهاض. في الحقيقة ما كان هذا السيد لِيَقبَلَ بإجراء إجهاض».

لكن فرانتيزيك لم يعد يسمع ما يقوله سكريتا. لبث جامداً ولايرى شيئاً. لم يعد يسمع سوى كلمات روزينا: «أنت ستقودني إلى الانتحار، ستقودني حتماً إلى الانتحار»، وكان يعرف أنه سبب موتها ومع ذلك فلم يكن يفهم لماذا، ويبدو له كل شيء غير قابل للتفسير. كان هناك كأنه شخص بدائي واجَهَتْهُ معجزةٌ، كأنه أمام اللا حقيقيّ، وقد أصابه الصمم والعمى فجأةً لأن عقله بات عاجزاً عن تصوُّر ما انهال عليه من أشياء غير مفهومة.

(يامسكيني فرانتيزيك، سوف تهيم طوال حياتك ولن تفهم شيئاً

سوى أنَّ حبكَ قتَلَ المرأةَ التي تحبها. سوف تحمل هذا اليقين علامةَ رعبٍ سرِّيَّة، سوف تهيم مثل مجذوم يسبِّب لمن يحبهم كوارث غير مفهومة، سوف تهيم طوال حياتك كأنك ساعي بريد الشؤم).

كان شاحباً ويقف بلا حراك مثل تمثال من الملح، حتى أنه لم ير أنَّ رجلاً آخر مضطرباً قد دخل الغرفة للتو. اقترب القادم الجديد من الميتة، نظر إليها طويلاً ومسح على شعرها.

همس له الدكتور سكريتا: «انتحار. بالسم».

هزَّ القادم الجديد رأسه بعنف: «انتحار؟ أستطيع أن أُقسِم لكم برأسي أنَّ هذه المرأة لم تضع حداً لحياتها. وإن هي ابتلعت سماً فلا يمكن أن يكون ذلك سوى عملية قتل».

كان المفتش ينظر إلى القادم الجديد متفاجئاً. إنه برتليف وقد اشتعل في عينيه لهيب غاضب.

18

أدار جاكوب مفتاح التشغيل وانطلقت السيارة. اجتاز الفيلاَّت الأخيرة للمحطة فوجد نفسَهُ وسط منظرٍ واسع. اتجه نحو الحدود ولم يشأ الإسراع. إن فكرةُ مروره للمرة الأخيرة من هنا جعلتْ هذا المنظر عزيزاً على قلبه ومُخالِفاً للمألوف. تكوَّنَ لديه في كل لحظة انطباعٌ بأنه لا يعرفه، بأنه مختلف عما يتخيله وأنه مما يدعو للأسف ألاَّ يستطيع البقاء فيه زمناً أطول.

لكن سرعان ما قال لنفسه بأنَّ أي تأجيل لرحيله، سواء كانَ يوماً أو عدة سنين، لن يغيِّر في جميع الأحوال شيئاً من الأشياء التي تؤلمه الآن. لن يعرف هذا المنظرَ على نحوٍ أكثر حميمية من معرفته له اليوم. عليه أن يقبل بفكرة أنه سيغادره دون أن يعرفه، دون أن يستنفد مَواطِنَ سحره، سيغادره مَديناً ودائناً.

ثم عاد يفكر بالشابة التي أعطاها السمَّ الوهميّ بإدخاله في

أنبوبة دواء، وقال لنفسه إنَّه من بين الحِرَف التي احتَرَفَها كانت جِرفَةُ القاتِل هي الأقصر. كنتُ قاتلاً لحوالى ثماني عشرة ساعة، قال لنفسه، وابتسم.

لكنه ما لبث أن اعترض: هذا غير صحيح، لم يكن قاتلاً لوقت قصير إلى هذا الحد. كان قاتلاً وسيبقى كذلك حتى مماته. لأنه غير مهمّ إذا كانت الحبة الزرقاء الشاحبةُ سماً أم لم تكن، المهم هو أنه ظنَّها سماً ومع ذلك أعطاها للمجهولة ولم يفعل شيئاً لإنقاذها.

راح يفكر بكل هذا بعدمِ اكتراثِ رجلٍ أدركَ أنَّ عمله يقع على مستوى التجريب الخالص: كانت جريمته غريبةً. جريمة بلا دافع. لاترمي لتحقيق أي نفعٍ لمُرتكِبِها. ما معناها إذن؟ كان واضحاً أنَّ المعنى الوحيد لجريمتِه هو أن يعلم بأنه قاتل.

جريمة القتل كتجريب، فِعْلُ معرفةِ الذات، هذا يذكِّرُهُ بشيء: نعم، راسكولنيكوف. راسكولنيكوف الذي قَتَلَ لكي يعرف إذا كان يحقُّ للإنسان أن يقتل كائناً أدنى وإذا كان سيجد القوة لاحتمال هذه الجريمة. ومن خلال تلك الجريمة راح يطرح التساؤلات حول نفسه.

نعم، كان هناك مايُدنيه من راسكولنيكوف: إنه عبثية الجريمة، طابعها النظري. لكن هناك اختلافات: لقد تساءل راسكولنيكوف إذا كان يحقُّ للإنسان الموهوب التضحية بحياة إنسان أدنى منه لمصلحته الخاصة. عندما أعطى جاكوب الأنبوب الذي يحتوي على السم لم يخطر له شيء مشابه. لم يتساءل جاكوب إذا كان يحق للإنسان أن يضحي بحياة إنسان آخر. بالعكس، كان جاكوب مقتنعاً منذ زمن طويل بأن الإنسان لايملك هذا الحق. عاش جاكوب في عالمٍ يضحي فيه أناسٌ بحياةِ أناسٍ آخرين باسم أفكارٍ مجردة. كان جاكوب يعرف وجوه هؤلاء الناس جيداً، فهي أحياناً بريئة بوقاحة، وأحياناً جبانة على نحوٍ تعِس، وجوهٌ تتذرَّع بأعذارٍ لتُنفِّذ، بعناية، على أقرانها، حُكْماً تعرف مدى قسوته. كان جاكوب يعرف هذه الوجوه جيداً ويكرهها. فضلاً عن ذلك كان جاكوب يعرف أن كل إنسان يتمنى موتَ إنسانٍ آخر وأنَّ شيئين فقط يبعدانه عن ارتكاب القتل: الخوف من العقاب، وصعوبة تنفيذ الموت مادياً. يعرف

جاكوب أنه إذا توافرت لكل إنسان إمكانيةُ أن يقتل سراً وعن بُعد، فإن الإنسانية ستختفي خلال بضع دقائق. كان لابُدَّ له إذن أن يقتنع بالبُطلان المطلق لتجريبية راسكولنيكوف.

ولكن، لماذا أعطى السم للممرضة إذن؟ ألم يكن ذلك مجرد مصادفة؟ لقد خطَّطَ راسكولنيكوف لجريمته طويلاً، بينما تصرَّف جاكوب في غمرة دافع آنيّ. لكن جاكوب كان يعرف أنه، هو أيضاً، أمضى سنين طويلة، لاشعورياً، في الإعداد لجريمته، وأنَّ الثانيةَ التي أعطى فيها السمَّ لروزينا كانت الشقَّ الذي انغرزتْ فيه حياتُهُ الماضيةُ كلُّها، قَرَفُهُ كلُّهُ من الإنسان، مثلما تنغرز عَتَلَةٌ.

عندما قتَلَ راسكولنيكوف المُرابيةَ العجوز بالبلْطة، كان يعرف جيداً أنه يجتاز عتبةً رهيبة، وأنه يعتدي على القانون الإلهي، يعرف أن المرأة العجوز هي إحدى مخلوقات الله رغم أنها عديمة القيمة. كان جاكوب يجهل ذلك الخوف الذي عانى منه راسكولنيكوف. فالكائنات الإنسانية ليست، بالنسبة له، مخلوقاتٍ إلهية. كان جاكوب يحب الرهافة وسموَّ النفس، لكنه كان مقتنعاً بأن هاتين الميزتين ليستا من صفات الناس. فقد عرف جاكوب الناس جيداً، لهذا السبب لم يحبهم. اتَّسم جاكوب بسموِّ النفس، لهذا السبب أعطاهم السم.

إنني إذن قاتلٌ بدافع سموّ النفس، قال لنفسه، وبدت له تلك الفكرةُ مضحكةً وحزينة.

بعد أن قتلَ راسكولنيكوف المُرابية العجوز، لم يستطع السيطرة على العاصفة الرهيبة من تبكيت الضمير. أما جاكوب الذي كانت لديه قناعة عميقة بأنه لايحق للإنسان التضحية بحياة الآخرين، فلم يعانِ من تبكيت الضمير.

حاول أن يتخيل أن الممرضة ماتت حقاً لكي يرى إذا كان يعاني من شعور بالإثم. لا، لم يكن يعاني من شيء من هذا القبيل. مضى بذهنٍ هادئ ومطمئن عبر بقعةٍ وادعةٍ ومبتسمة راحت تودِّعه.

عاش راسكولنيكوف جريمتَهُ كمأساة، وانتهى به الأمر إلى الانهيار تحت وطأة فعلته. بينما كان جاكوب مندهشاً من أنَّ فعلته

خفيفة بهذا الشكل، من أنَّ ليس لها أي وزن، من أنها لا تُثقِل عليه. وتساءل إذا لم تكن تلك الخِفَّة أشدُّ إثارةً للرعب من مشاعر البطل الروسي الهستيرية.

أخذ يسير ببطء وقطعَ تأملاته لكي يشاهد المنظر الطبيعي. قال لنفسه بأن كل حادثة حبة الدواء ليست سوى لعبة، لعبة بلا نتائج، مثل حياته كلها في هذا البلد الذي لم يترك فيه أي أثر، أي جذر، أية علامة، والذي يغادره الآن مثلما تمضي نسمةٌ، مثلما تمضي فقاعةُ هواء.

19

كان كليما، الذي فقدَ ربع ليتر من وزنه دماً، ينتظر الدكتور سكريتا في قاعة الانتظار بنفاد صبر كبير. لم يشأ مغادرة المحطة دون أن يستأذنه ويرجوه الاهتمام بروزينا قليلاً. «حتى يحين موعد الإجهاض ربما أغيِّر رأيي». مايزال يسمع كلمات الممرضة، وهذه الكلمات تخيفه. كان يخشى أن تخرج روزينا من تحت تأثيره بعد ذهابه، وتعود عن قرارها في اللحظة الأخيرة.

أخيراً ظهر الدكتور سكريتا. هرع كليما إليه، استأذن منه وشكره على عزفه الجميل على الطبول.

«كانت حفلة عظيمة، قال الدكتور سكريتا، لقد عزفتَ بشكل رائع. ليتنا نعيد الكَرَّة! يجب أن نفكِّر بوسائل لتنظيم حفلات مشابهة في مدن مياهٍ أخرى.

ـ نعم، بكل سرور، لقد أسعدني جداً أن أعزف معكم! قال عازف الترومبيت بعجَلة وأضاف: أريد أن أطلب منك خدمةً أخرى. ليتكَ تهتمّ قليلاً بروزينا. أخشى أن تعود إلى عِنادِها. النساء صعبات التوقُّع إلى حد كبير.

-لن تعود إلى عنادها، لاتخشَ الآن شيئاً، قال الدكتور سكريتا. روزينا لم تعد على قيد الحياة».

بقي كليما لحظةً دون أن يفهم وشرح له الدكتور سكريتا ما حدث. ثم قال: «إنه انتحار، ويبدو مع ذلك ملغَّزاً. ربما يجد بعضُ الأشخاص إنهاءها لحياتها بعد ساعةٍ من مثولها معك أمام اللجنة غريباً. لا، لا، لاتخشَ شيئاً، أضاف وأمسك بيد عازف الترومبيت، لأنه رآه يشحب. لحسن حظك أن صديق روزينا الميكانيكي الشاب مقتنعٌ بأنَّ الطفل منه. لقد أعلنتُ أنه لم يحدث بينك وبين الممرضة شيء قط، وأنها ببساطة أقنعتكَ بالادعاء بأنك والد الطفل، لأن اللجنة لا تأذن بالإجهاض عندما يكون الوالدان عازبين. لذا لاتعترف بكل شيء إذا استُجْوِبْتَ. أنت مرهق الأعصاب، هذا واضح ومؤسف. يجب أن تعود إلى سابق عهدك، لأنه مايزال أمامنا عدد لا بأس به من الحفلات الموسيقية».

فقدَ كليما القدرة على النطق. وانحنى مرات عديدة أمام الدكتور سكريتا، وشدَّ مرات عديدة على يده. كانت كاميلا بانتظاره في غرفة الفندق. فأخذها كليما بين ذراعيه دون أن ينطق بكلمة وقبَّلها على خدِّها. قبَّلَ كل موضعٍ من وجهها، ثم ركع وقبَّل ثوبها من الأعلى إلى الأسفل حتى الركبتينِ.

«مابِكَ؟

- لا شيء. أنا سعيد للغاية لوجودك معي. سعيد للغاية لوجودكِ في الدنيا».

وضعا أشياءهما في حقائب السفر واتجها إلى السيارة. قال كليما إنه تعب ورجاها أن تتولى القيادة.

سارا بصمت. كان كليما المنهك بالمعنى الحرفي للكلمة، يشعر مع ذلك بارتياح كبير، إلا أنه كان قلقاً بعض الشيء لفكرة أنه معرَّض لخطر الاستجواب. لابُدَّ أن يتناهى إليه خبر حول شيء من هذا القبيل. لكنه راح يردد لنفسه ما قاله له الدكتور سكريتا. إذا استُجوِب، سيلعب الدور البريء (والتافه، في هذا البلد) للرجل

اللطيف الذي يدَّعي بأنه الوالد من قَبيل تقديم خِدمة. لن يستطيع أحد أن يحقد عليه، حتى كاميلا إذا علمت مصادفةً بالأمر.

أخذ ينظر إليها. كان جمالُها يملأ حيِّز السيارة الضيق مثل عطرٍ مُدَوِّخ. ويقول لنفسه إنه لن يتنفَّس سوى هذا العطر طوال حياته. ثم خيِّل إليه بأنه يسمع موسيقا آلته البعيدة والناعمة، ووعد نفسه بأن يعزف هذه الموسيقا طوال حياته ليس إلاَّ لأجل سعادة هذه المرأة الفريدة، المرأة الأغلى.

20

كل مرةٍ تولَّتْ فيها القيادة، كانت تشعر بأنها أقوى وأكثر استقلالاً. أما هذه المرة، فليس المقود وحده من يمنحها الثقة، لكنها أيضاً كلمات الرجل المجهول الذي التقت به في ممر الريشموند. لم تستطع نسيانها. لم تستطع كذلك نسيان وجهه الذي يفوق وجهَ زوجها الأملسَ رجوليةً إلى حد كبير. فكرت كاميلا بأنها لم تعرف قط رجلاً جديراً حقاً بهذا الإسم.

كانت تنظر بشكل غير مباشر إلى وجه عازف الترومبيت المتعَب الذي راحت ترتسم عليه في كل لحظة ابتسامات ساذجةٌ غير مفهومة، بينما تداعب يدُهُ كتفَها بحبّ.

لم تَرُق لها تلك الرقةُ المفرطة، ولم تؤثِّر بها. كل ما فعلته هو أنها أكَّدتْ لها مرةً أخرى، عبر ما انطوتْ عليه من تعذّر تفسير، بأن لدى عازف الترومبيت أسراره، حياته الخاصة التي يخفيها عنها، والتي لامكان لها فيها. أما الآن فإن هذا الوضع لم يسبب لها الألم، وبدلاً من ذلك شعرت إزاءه بعدم اكتراث.

ماذا قال ذلك الرجل؟ بأنه مسافر إلى الأبد. عصرَ قلبَها حنينٌ طويل وعذب. ليس فقط حنين إلى ذاك الرجل، بل حنين إلى الفرصة الضائعة. وليس فقط إلى تلك الفرصة بالذات، بل إلى الفرصة

كفرصة. أخذَها حنينٌ لجميع الفرص التي تركَتْها تمضي، تهرب، إلى الفُرَص التي تملَّصت منها، وحتى لتلك الفرص التي لم تحظَ بها قط.

قال لها ذلك الرجل بأنه عاش حياته كلها مثل أعمى، وأنه حتى لم يراوده الشكُّ بأنَّ الجمال موجود. فهمَتْهُ لأن الأمر مشابه بالنسبة لها. فهي أيضاً عاشت في العماء. لم تَرَ سوى كائن وحيد سلَّطتْ عليه منارةُ الغيرةِ أنوارَها العنيفة. وماذا يحدث إذا انطفأت هذه المنارة فجأة؟ ستظهر، في ضوء النهار كائناتٌ أخرى بالآلاف، وسيصبح الرجل الذي ظنَّتْ أنه الوحيد في العالم واحداً بين كثيرين.

كانت تمسك بالمقود، تشعر بأنها واثقة من نفسها وجميلة، وتقول لنفسها: هل كان الحبُّ هو الذي يقيِّدُها إلى كليما حقاً، أم مجردُ الخوف من فقدانه؟ وإذا اتخذ ذلك الخوفُ في البداية شكلَ الحب القلِق، ألم يتسرب الحبُّ (المتعَب والمُنهَك) مع الزمن خارج ذلك الشكل؟ في النهاية، هل بقي شيء غير ذلك الخوف، الخوف دون الحب؟ وماذا سيبقى إذا فقدَتْ هذا الخوف؟

كان عازف الترومبيت يبتسم بجانبها على نحوٍ متعذِّر التفسير.

التفتت نحوه وقالت لنفسها بأنها إذا كفت عن غيرتها فلن يبقى شيء. أخذت تقود بسرعة كبيرة، وتفكر بأنه في مكانٍ ما، إلى الأمام، على درب الحياة، رُسمت علامة تدلُّ على القطيعة مع عازف الترومبيت. وللمرة الأولى لم توحِ لها هذه الفكرةُ لا بالقلق ولا بالخوف.

21

دخلت أولغا إلى شقة برتليف واعتذرت قائلةً: «عذراً لظهوري المفاجئ في شقتك دون سابق إنذار. لكني في حالةٍ لا تسمح لي بالبقاء وحدي. ألا أزعجكم حقاً؟»

كان في الغرفة برتليف والدكتور سكريتا والمفتش الذي أجاب أولغا: «أنت لا تزعجينا. لم يعد في حديثنا شيء رسمي.

ـ السيد المفتش صديق قديم لي، شرح الدكتور لأولغا.

ـ من فضلك، لماذا فعلتْ ذلك؟ سألت أولغا.

ـ حدثت مشادة بينها وبين صديقها، وفي منتصف الشجار بحثت عن شيء في حقيبتها وابتلعت سماً. إننا لا نعرف شيئاً أكثر من ذلك وأخشى ألاّ نعرف أبداً، أجاب المفتش.

ـ حضرةَ المفتش، قال برتليف بقوة، أرجوك أن تهتم بما قلته في إفادتي. لقد أمضيتُ مع روزينا، هنا بالذات في هذه الغرفة، آخر ليلةٍ من حياتها. ربما لم أركّز بما فيه الكفاية على الأمر الجوهريّ. كانت ليلةً مذهلة، وكانت روزينا سعيدةً بشكلٍ لا حد له. لم تكن هذه الفتاةُ المتكتِّمة بحاجةٍ إلا للتخلص من الغِلّ الذي أطبَقَهُ عليها محيطُها اللامبالي والعَبوس، لكي تتحول إلى كائنٍ متألِّق مليء بالحب والرهافة وسموّ النفس، المخلوقة التي لايمكنكم الاشتباه بها. أؤكّد لكم أنني، في ليلة الأمس معها، فتحتُ لها أبواب حياةٍ جديدة، وأنها بالأمس فقط بدأت ترغب بالحياة. لكنَّ أحداً اعترضَ الطريق... قال برتليف وقد أصبح فجأةً متأملاً، وأضاف همساً: أستشعِرُ هنا تدخُّلاً من قوة جهنمية.

ـ لاتملك الشرطة الجنائية سلطةً على القوى الجهنمية»، قال المفتش.

لم يلحظ برتليف هذه السخرية فاستأنف: «ليس لفرضية الانتحار أي معنى حقاً، أتوسل إليك أن تفهم ذلك! مُحال أن تقتل نفسها في اللحظة التي أرادت فيها أن تعيش! أكرر لك لا أقبل أن تُتَّهَمَ بالانتحار.

ـ سيدي العزيز، قال المفتش، لا أحد يتَّهِمها بالانتحار، لسببٍ بسيط هو أن الانتحار ليس جريمة. الانتحار ليس قضية من اختصاص العدالة. إنه ليس قضيتنا.

ـ نعم، قال برتليف، الانتحار ليس خطيئةً بالنسبة لكم لأن

الحياة بالنسبة لكم ليس لها قيمة. أما أنا يا سيدي المفتش فلا أعرف خطيئةً أكبر. الانتحار أسوأ من القتل. يمكن ارتكاب القتل بدافع الانتقام أو الطمع، ولكن حتى الطمع هو تعبير عن حب ملتوٍ للحياة. أما الانتحار فهو أن يلقي الإنسان بحياته عند أقدام الإله كأنها شيء تافه. الانتحار بصقةٌ في وجه الخالق. أقول لكم بأني سأفعل كل شيء لكي أثبت أن هذه المرأة الشابة بريئة. بما أنك تزعم أنها أنهت حياتها اشرح لي لماذا؟ ما الدافع الذي اكتشفتَهُ؟

ـ دوافع الانتحار يلفُّها الغموض دوماً، قال المفتش. وفوق ذلك فالبحث عنها لايقع ضمن صلاحياتي. ولاتحقد عليَّ لكوني ألزَم حدود وظيفتي. لديَّ ما يكفيني وبالكاد أجد الوقت لأفعل ما عليّ. لم يُحفَظ الملفُ بالطبع، لكني أستطيع أن أقول لك مقدَّماً بأنني لا أفكِّر بفرضية القتل.

ـ أسجِّل إعجابي، قال برتليف بصوتٍ فظ للغاية، بالسرعة التي تشطبون بها على حياة كائن إنساني».

لاحظت أولغا أن الدم يصعد إلى وجه المفتش، لكنه تمالك نفسه وبعد صمت قصير قال بصوتٍ يكاد يكون أكثر لطفاً مما يجب: «حسنٌ جداً، أقبلُ فرضيتك إذن، أي أن جريمة قتل قد حدثت. لنتساءل بأية طريقةٍ ارتُكِبت. عثرنا على أنبوب فيه حبوب مهدئة في حقيبة يد الضحية. نستطيع الافتراض بأن الممرضة أرادت تناول حبة لتهدئة نفسها، لكنّ أحداً وضع مسبقاً في أنبوب دوائها حبةً أخرى ذات مظهر مشابه وتحتوي على سم.

ـ هل تعتقد أن روزينا أخذت السم من أنبوب حبوبها المهدئة؟ سأل الدكتور سكريتا.

ـ كان يمكن لروزينا، طبعاً، أن تأخذ سماً وضعته في مكان خاص من حقيبتها، خارج الأنبوب، هذا ما كان سيحدث في حال الانتحار. أما إذا لبثنا عند فرضية الجريمة، فيجب أن نقرّ بأن أحداً قد وضع في أنبوب الدواء سماً يشبه حبوب روزينا إلى درجة الالتباس. إنه الاحتمال الوحيد.

- اعذرني لمعارضتك، قال الدكتور سكريتا، لكنَّ صنع حبة مضغوطة وذات مظهر عادي من مادةٍ قلوية ليس بهذه السهولة. هذا يتطلَّب إمكانيةَ الوصول إلى مخبرٍ صيدلاني، وهو الأمر غير الممكن لأحدٍ في هذه المدينة.

- تقصد أنه يستحيل الحصول على مثل هذه الحبة؟

- هذا غير مستحيل، لكنه صعب إلى أقصى حد.

- يكفيني أن أعرف أن هذا ممكن، قال المفتش، وتابع: يجب أن نتساءل الآن مَن يمكن أن تكون له مصلحة بقتل هذه المرأة. لم تكن غنيةً لذا نستطيع استبعاد الدافع المالي. نستطيع استبعاد الدوافع السياسية أو التجسسية أيضاً. لم يبق إذن سوى دوافع ذات طابع شخصي. مَن هم المشتبَه بهم؟ أولاً، عشيق روزينا الذي كان له معها نقاش عنيف قبل موتها بالضبط. هل تعتقدون أنه هو الذي أعطاها السمّ؟»

لم يُجِب أحد على سؤال المفتش فاستأنف: «لا أظن ذلك. فهذا الشاب بدا متمسكاً بروزينا. أراد الزواج منها وكانت حاملاً منه. وحتى لو كان الطفل من شخص آخر فالمهم هو أن هذا الشاب كان مقتنعاً بأنها حامل منه. حين علم أنها تريد إسقاط الطفل شعر باليأس. لكنَّ علينا أن نفهم شيئاً هاماً للغاية، أنَّ روزينا كانت عائدةً من اللجنة المسؤولة عن إيقاف الحمل ولم تكن عائدةً من عملية الإجهاض! بالنسبة لهذا الشخص اليائس لم يَضِع شيءٌ بعد. فالجنين كان حياً وكان الشاب مستعداً للقيام بأي شيء من أجل الحفاظ عليه. من غير المعقول أن نفكِّر بأنه أعطاها سماً في تلك الأثناء عندما لم يكن يرغب بشيء أكثر من رغبته بالعيش معها والحصول على طفل منها. وقد شرح لنا الدكتور سكريتا أساساً بأن الحصول على سم في شكل حبة عادية ليس في متناول أول قادِم. أين أمكَنَ لهذا الصبي الساذج الذي ليست له علاقات اجتماعية، الحصول عليه؟ تفضلوا واشرحوا لي؟»

أما برتليف الذي كان المفتش مستمراً في مخاطبته، فقد هزَّ كتفيه.

«لننتقل إلى المشبوهين الآخرين. عازف الترومبيت القادم من المدينة. لقد تعرَّف على الفقيدة هنا، ولن نعرف أبداً إلى أي حد مضت علاقتهما. على أية حال كان مابينهما حميمياً إلى الحد الذي جعلها لا تتردد في أن تطلب منه أن يقدِّم نفسَه على أنه والد الجنين، وتجعله يرافقها أمام اللجنة المسؤولة عن إيقاف الحمل. لماذا تذهب إليه بدلاً من أن تذهب إلى شخص من هنا؟ لا يصعب التكهُن بذلك. أي رجل متزوج ويسكن مدينة المياه الصغيرة هذه كان سيخشى من حدوث متاعب مع زوجته إذا ذاع الأمر. فقط شخص ليس من هنا يستطيع تقديم خدمة من هذا النوع لروزينا. فضلاً عن ذلك، فإنَّ انتشار خبر بأنها تنتظر طفلاً من فنان مشهور لا يمكنه إلا أن يمدح الممرضة ولن يضير عازف الترومبيت. يمكننا أن نفترض إذن أنَّ السيد كليما قبِلَ أن يُسدي لها خدمة بعدمِ اكتراثٍ تام. هل كان ذاك سبباً لقتلِ الممرضة التعيسة؟ مثلما شرَح لنا الدكتور إنه احتمال ضئيل جداً أن يكون كليما هو الوالد الحقيقي للطفل. ولكن لنقبل حتى بهذا الاحتمال. لنفترض أن كليما هو الوالد وأن هذا مكدِّر له إلى أقصى حد. هل تستطيعون أن تشرحوا لي لماذا يقتلِ الممرضة في حين أنها وافقت على إيقاف الحمل، وأُذِنَ رسمياً بعملية الإجهاض؟ أم يجب أن نعتبر أنَّ كليما هو القاتل، ياسيد برتليف؟

ـ أنت لا تفهمني، قال برتليف بهدوء. أنا لا أريد إرسالَ أحدٍ إلى الكرسي الكهربائي. أريد فقط تبرئة روزينا. لأن الانتحار هو أكبر خطيئة. حتى الحياة المعذَّبة ذات قيمة خفيَّة. وحتى حياةٍ على عتبة الموت شيء جليل. مَن لم ينظر إلى الموت وجهاً لوجه يجهله، أما أنا، يا سيدي المفتش، فأعرفه ولهذا أقول لك بأنني سأفعل كل شيء لكي أثبت أن هذه الشابة بريئة.

ـ أنا أيضاً أريد أن أحاول، قال المفتش. مازال هناك مشتبه به ثالث. السيد برتليف، رجل الأعمال الأمريكي. لقد اعترف بنفسه أن

المرحومة قضت معه آخر ليلةٍ من حياتها. يمكن الاعتراض بأنه إذا كان هو القاتل فلا شك أنه لن يعترف لنا بذلك تلقائياً. لكن هذا الاعتراض لا يَصمد أمام النظرة المدقِّقة. فأثناء حفلة الأمس الموسيقية رأت الصالةُ كلُّها أن السيد برتليف جلس بجانب روزينا وأنه ذهب معها قبل نهاية الحفلة. ويعرف السيد برتليف جيداً أنه في مثل هذه الظروف يجدر به أن يُسارِع بالاعتراف بدلاً من أن يكشفه الآخرون. يؤكد لنا السيد برتليف أن روزينا كانت راضية عن تلك الليلة. هذا لا يفاجئنا! ففضلاً عن أن السيد برتليف رجل فاتن، إنه بالدرجة الأولى رجل أعمال أمريكي، يملك دولارات وجواز سفر يمكن السفر به في كل أنحاء العالم. وروزينا تعيش سجينة هذا الجُحر وتبحث بلا طائل عن وسيلة للخروج منه. لديها صديق لا يطلب إلا الزواج منها، لكنه ليس أكثر من ميكانيكي شاب مِن هُنا. إذا تزوجَتْهُ ستنغلق حياتُها إلى الأبد، ولن تخرج من هنا أبداً. ليس لديها هنا أحد غيره، ولذلك لا تقطع علاقتها معه. لكنها في الوقت نفسه تتجنب الارتباط النهائي به، لأنها لا تريد التخلي عن آمالها. وفجأةً يظهر رجل غرائبي رفيع الذوق يخلب لبَّها. تعتقد أنه سيتزوجها وأنها ستغادر هذا المكان الضائع من العالم نهائياً. تعرف كيف تتصرف، كعشيقةٍ متكتمة، في البداية، لكنها تصبح لاحقاً مزعجةً أكثر فأكثر. تُفهِمُهُ أنها لن تتخلى عنه وتبدأ بابتزازه. لكن برتليف متزوج، وإذا لم أُخطئ، فإنَّ زوجته، المرأة المحبوبة، والأم لصبي صغير عمره سنة يُفترَض أن تصل من أمريكا غداً. يريد برتليف تجنب الفضيحة بأي ثمن. ويعرف أن روزينا تحمل دوماً أنبوب دواء مهدئ، ويعرف شكل هذه الحبوب. لديه علاقات واسعة في الخارج ولديه أيضاً مال كثير. أمر بسيط جداً بالنسبة له أن يطلب من أحد أن يصنع له حبةً سامَّة على شكل دواء روزينا نفسه. أثناء تلك الليلة الرائعة، وبينما كانت عشيقته نائمة، دسَّ حبة السم في الأنبوب. أعتقد، ياسيد برتليف، ختمَ المفتش كلامه رافعاً صوته بلهجة رسمية، أنكَ الشخص الوحيد الذي لديه دافع لقتل الممرضة، وأيضاً الشخص الوحيد الذي يملك الوسيلة للقيام به. أدعوك للاعتراف».

خيم الصمت على الغرفة. نظر المفتش طويلاً في عيني برتليف، ورَدَّ له هذا نظرةً تتسم بالقدر نفسه من الصبر والصمت. لم يكن وجهه يعبِّر عن ذهولٍ أو غيظ. قال أخيراً:

«لا تفاجِئُني استنتاجاتُك. فطالما أنك عاجز عن اكتشاف القاتل يَلزَمُكَ أن تجد أحداً تحمِّله الخطأ. إنه أحد ألغاز الحياة الغريبة أن يكون على الأبرياء دفع ثمن أخطاء المذنبين. أرجوك، أوقفني».

22

اجتاح الريفَ ظلٌّ رخو. أوقفَ جاكوب السيارة في قرية تقع على بعد بضع كيلومترات فقط من مركز الحدود. أراد إطالة اللحظات الأخيرة التي يمضيها في بلده، مدةً إضافية. فنزل من السيارة وسار بضع خطوات في شارع مجهول.

لم يكن الشارع جميلاً. على طول البيوت الواطئة ثمة لفائفُ أسلاكٍ حديدية صدئة، وعجلة جرار مهجورة، وقطع معدنية قديمة. إنها قرية مهمَلة وقبيحة. قال جاكوب لنفسه بأن هذه المزبلة التي تنتشر فيها أسلاك حديدية صدئة تشبه كلمة بذيئة يوجِّهُها له بلدُ ولادته على سبيل الوداع. سار حتى نهاية الشارع حيث توجد ساحة وبركة. كانت البركة أيضاً مهمَلة، مغطاة بالطحالب. تتمايل عند حافتها أوزَّاتٌ يحاول فتىً أن يقودها أمامه بعصا.

دار جاكوب نصف دورة لكي يتجه إلى السيارة. فلمح طفلاً واقفاً خلف زجاج أحد البيوت. كان الطفل الذي بالكاد يبلغ الخامسة من عمره ينظر عبر الزجاج باتجاه البركة. ربما يراقب الإوزات، أو الفتى الذي يسوط الإوزات بطرف عصاه. كان وراء الزجاج ولم يستطع جاكوب إبعاد نظره عنه. كان وجهاً طفولياً، والشيء الذي فتَنَ جاكوب هو النظارة. يضع الطفل نظارة كبيرة تُستَشَفُّ سماكةُ زجاجها. الرأس صغير والنظارة كبيرة يحملها الطفل كأنه يحمل

عبئاً ثقيلاً. يحملها كأنها مصيره. كان ينظر عبر حلقَتَي نظارته كأنه ينظر عبر سياج. نعم، لقد حمل حلقتَيْهِ كأنهما سياجٌ كُتِبَ عليه أن يجرجره طوال حياته. راح جاكوب ينظر إلى عيني الطفل عبر سياج النظارة وشعر فجأةً أنه ممتلئ بحزن كبير.

وفجأةً كأنَّ ضفاف نهرٍ قد انهارت للتو، فانتشرت المياه في الريف. منذ زمن طويل جداً منذ سنين طويلة لم يُصَب جاكوب بالحزن. لم يعرف سوى الحموضة والمرارة ولكن ليس الحزن. وهاهو يهاجمه لايعود قادراً على الحركة.

رأى أمامه الطفل الذي يضع سياجاً على عينيه، وأخذته شفقة على هذا الطفل وبلده كله، وفكّر أن حبَّهُ لهذا البلد كان رديئاً ومُخفِقاً، وأنه حزين بسبب هذا الحب الرديء والمخفِق.

فجأةً خطرت له فكرةُ أنَّ الكبرياء هو الذي منعه من حب هذا البلد، كبرياء النُّبل، كبرياء سموِّ النفس، كبرياء الرهافة. كبرياء أخرق جعله لايحب أشباهه ويكرههم لأنه يرى فيهم قَتَلةً. وتذكّر من جديد أنه وضع سماً في أنبوب دواء إنسانةٍ مجهولة وأنه هو نفسه قاتل. إنه قاتل وكبرياؤه تلاشى. لقد أصبح واحداً منهم. إنه شقيق أولئك القتلة المؤسفين.

كان الطفل صاحب النظارة الضخمة واقفاً مقابل النافذة، مثل المُتَحجِّر، ونظرته تحدِّق في البركة. وتنبَّهَ جاكوب إلى أن هذا الطفل لا ذنب له، أنه جاء إلى الدنيا بعينين رديئتين، إلى الأبد. وفكَّرَ أنَّ ما جعله يحقد على الآخرين هو سِمةٌ وُلِدوا بها وحملوها مثل سياجٍ ثقيل. وفكَّرَ أنه هو نفسه ليس له أي حقٍّ خاصّ بسموِّ النفس، وأنَّ سموَّ النفس الأعلى هو أن تحب البشر رغم أنهم قَتَلة.

رأى الحبة الزرقاء الشاحبة من جديد، وقال لنفسه بأنه دسَّها في أنبوب دواء الممرضة الكريهة كَذريعةٍ، كطلَبِ انتسابٍ إلى صفوفهم، كصلاةٍ تُناشدُهُم بقبوله بينهم، رغم أنه طالما رفضَ أن يُعتَبَر واحداً منهم.

اتجه نحو السيارة بخطوة سريعة، جلس وراء المقود ومضى ثانيةً نحو الحدود. عشية الأمس بالذات كان يفكر أن رحيله سيكون لحظة ارتياح. أنه سيرحل من هنا فرِحاً. سيغادر مكاناً وُلدَ فيه خطأً، مكاناً ليس في الحقيقة وطنَه. لكنه أدركَ في تلك اللحظة بأنه يغادر وطنه الوحيد وأنه ليس هنالك من وطن آخر.

23

«لا تبتهج كثيراً، قال المفتش. لن يفتح لك السجنُ أبوابه المَجيدة لكي تجتازها مثل مسيحٍ يصعد الجلجلة. لم تراودني قط فكرةُ قتْلِكَ لهذه المرأة الشابة. وإذا اتَّهمتُكَ فهذا حتى لا تتمسك بالزعم بأنها قُتِلَتْ.

ـ يسعدني أنك لا تأخذ اتهامك لي على محمل الجد، قال برتليف بنبرةٍ مُصالِحة. ومعك حق، ليس عقلانياً من قِبَلي أني أريد أن أحصل منك على إنصافٍ لروزينا.

ـ ألاحظ بسرور أنكما تصالحتما، قال الدكتور سكريتا. هناك على الأقل شيء يعزِّينا. أياً كان موت روزينا، فقد كانت ليلتُها الأخيرة جميلة.

ـ انظروا القمر، قال برتليف، إنه كما كان في البارحة تماماً، يحوِّل هذه الغرفة إلى حديقة. بالكاد قبل أربع وعشرين ساعة كانت روزينا جِنِّيَّةَ هذه الحديقة.

ـ ليس في العدالة شيء يمكن أن يثير اهتمامنا كثيراً، قال الدكتور سكريتا. العدالة ليست شيئاً إنسانياً. هناك عدالة القوانين العمياء والقاسية، وهناك ربما عدالة أخرى، عدالة أعلى، لكنَّ هذه غير مفهومة لي. لديَّ دوماً إحساس بأني أعيش في هذا العالم *خارج العدالة*.

ـ كيف؟ قالت أولغا مندهشة.

ـ لا دخْلَ لي بالعدالة، قال الدكتور سكريتا. إنها شيء يقع خارجاً عني ويتخطاني. إنها على أية حال شيء غير إنساني. لن أتعاون أبداً مع هذه القوة المنفِّرة.

ـ تقصد بذلك، سألتْ أولغا، أنك لا تقِرُّ بأية قيمةٍ شاملة؟

ـ القيم التي أقرُّ بها ليس لها أي علاقة بالعدالة.

ـ مثل ماذا؟ سألت أولغا.

ـ مثل الصداقة»، أجاب الدكتور سكريتا بلطف.

صمتَ الجميع ونهض المفتش لكي يستأذن بالانصراف. في تلك اللحظة خطرت لأولغا فكرة مفاجئة:

«ما لون الحبوب التي كانت تأخذها روزينا؟

ـ زرقاء شاحبة، قال المفتش، وأضاف وقد تَجدَّد اهتمامُه: ولكن، لماذا سألتِ هذا السؤال؟»

خافت أولغا أن يقرأ المفتش أفكارها وسارعت في التراجع: «رأيتها تحمل أنبوب حبوب. كنتُ أتساءل إذا كان هو الأنبوب الذي رأيته.».

لم يقرأ المفتش أفكارها، كان متعباً وتمنى للجميع ليلةً طيبة..».

حين خرج، قال برتليف للدكتور: «يُفترَض أن تصل زوجتانا بين اللحظة والأخرى. هل تريد أن نذهب للقائهما؟

ـ بالتأكيد. تتناول اليوم جرعة مزدوجة من الدواء»، قال الدكتور باهتمام، وانسحب برتليف إلى الغرفة الصغيرة الملاصقة.

«أنتَ أعطيتَ جاكوب سماً في الماضي، قالت أولغا. حبة زرقاء زرقاء شاحبة ومازالت معه. أعرف ذلك.

ـ لا تخترعي الحماقات. لم أعطه شيئاً من ذلك قط»، قال الدكتور بقوة.

عاد برتليف من الغرفة الصغيرة الملاصقة وقد تزين بربطة عنق جديدة، واستأذنت أولغا من الرجلين.

24

اتجه برتليف والدكتور سكريتا إلى المحطة عبر ممر شجر الحور.

«انظر إلى هذا القمر، قال برتليف. صدِّقني، دكتور، كان مساءُ وليلةُ البارحة مذهِلَيْن.

- أصدقك، ولكن يجب أن تحترِس. الحركات التي تُرافق، بالضرورة ليلةً بهذا الجمال تُعَرِّضكَ لخطر كبير حقاً».

لم يجب برتليف، وكان وجهه سعيداً يشعُّ بالفخر.

«يبدو لي أنك بمزاج ممتاز، قال الدكتور سكريتا.

- لستَ مخطئاً. إذا كانت آخرُ ليلةٍ من حياتها جميلةً بفضلي، فأنا سعيد.

- هناك شيء غريب، قال الدكتور سكريتا فجأةً، أريد أن أطلبه منك، لكني لم أجرؤ أن أفعل أبداً. إنما أشعر أننا نعيش اليوم ظرفاً استثنائياً إلى درجة أنني يمكن أن أجرؤ...

- تكلم، دكتور!

- أتمنى أن تتبنَّاني وتجعلني ابناً لك».

توقف برتليف مذهولاً، وشرح له الدكتور سكريتا أسباب طلبه.

«ليس هناك ما لا أفعله من أجلك، دكتور! قال برتليف. أخشى فقط أن تجِد زوجتي الأمرَ عجيباً. إنها بهذا تكون أصغر من ابنها بخمسة عشر عاماً. ولكن هل هذا ممكن من ناحية قانونية؟

ـ ليس مسجَّلاً في أي مكان بأن يكون الابنُ بالتبَنّي أصغر من أبويه بالضرورة. فهو ليس ابناً من صلب الإنسان، بل، تحديداً، ابناً بالتبنِّي.

ـ هل أنت متأكد من ذلك؟

ـ استَشَرْتُ رجال قانون منذ زمن طويل، قال الدكتور سكريتا بخجلٍ هادئ.

ـ إنها لَفكرةٌ طريفة، قال برتليف، وإني مندهش قليلاً، لكنني اليوم في حالةٍ من الافتتان تجعلني لا أريد سوى شيء واحد أن أُسعِد العالمَ بأسره. فإذا كان ذلك يجلب لك السعادة... يا بنيّ...».

وتعانقَ الرجلان وسط الشارع.

25

كانت أولغا ممددة فوق سريرها (مذياع الغرفة المجاورة صامت) وبدا لها واضحاً أنَّ جاكوب قَتَلَ روزينا، وألّا أحد يعرف بالأمر سواها هي والدكتور سكريتا. لماذا فعل هذا، لن تعرف الجواب أبداً. سرت رعشةُ ذعرٍ فوق جلدها، لكنها لاحظت لاحقاً (كانت تعرف كيف تراقب نفسها جيداً، كما نعلم)، متفاجئةً، بأن تلك الرعشة لذيذة، وذلك الذعر مليء بالزهوّ.

عشية الأمس مارسَت الحب مع جاكوب، في وقتٍ لا بُدَّ أنه كان فيه فريسةً لأفظعِ الأفكار، وقد امتصَّتْهُ في داخلها بكامله وحتى بأفكاره.

كيف أمكَنَ ألاّ يُشعِرني ذلك بالنفور؟ فكرتْ. كيف أمكَنَ ألاّ أذهب (ولن أذهب قط) لأخبِر عنه؟ هل أعيش أنا أيضاً خارج العدالة؟

لكنها كلما أمعَنَتْ في مُساءلة نفسها زاد شعورها بذلك الزهو الغريب والسعيد في داخلها، فكانت مثل شابةٍ تُغتَصب وتتملَّكُها فجأةً متعةٌ مدوِّخة يُقوِّيها كونُها متعة مرفوضة بشدة...

26

وصل القطار إلى المحطة ونزلت منه امرأتان.

إحداهما في حوالى الخامسة والثلاثين من عمرها، وتلقَّتْ قبلةً من الدكتور سكريتا، والأخرى أصغر منها سناً، متأنِّقة الملبس، تحمل بين ذراعيها طفلاً رضيعاً، وكان برتليف هو الذي قَبَّلَها.

«أرِنا، سيدتي العزيزة، ولدك الصغير، قال الدكتور، لم أره بعد!

ـ لو لم أكن أعرفك جيداً لَراودتني الشكوك، قالت السيدة سكريتا ضاحكةً. انظر، لديه شامةٌ على شفته العليا، مثلك تماماً!»

حتى برتليف دقَّقَ في وجه سكريتا وقال صارخاً تقريباً: «هذا صحيح! لم ألاحظها عليك أبداً وأنا أتعالج هنا!»

قال برتليف: «إنها مصادفة مدهشة إلى درجة أني أسمح لنفسي بتصنيفها بين المعجزات. إن الدكتور سكريتا الذي يعيد الصحة للنساء ينتمي إلى صنف الملائكة، ومثل الملائكة يترك علامَتَهُ على الأطفال الذين يساعدهم على المجيء إلى الدنيا. ليست هذه شامة بل علامة الملاك».

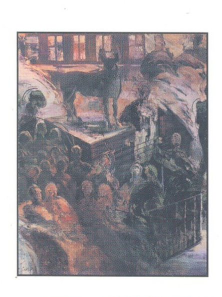
جميع الحاضرين فُتِنوا بتفسيرات برتليف، وضحكوا بمرح.

«أصلاً، استأنف برتليف مخاطباً زوجته الظريفة، أعلنُ لكِ بكل أبَّهة أن الدكتور سكريتا أصبح منذ بضع دقائق شقيق صغيرنا جون. وبهذا يغدو عادياً تماماً، باعتبارهما شقيقين، أن يكون لهما العلامة نفسها.

ـ أخيراً! لقد قررتَ أخيراً... قالت السيدة سكريتا لزوجها وهي تُطلِق تنهيدة سعادة.

ـ لا أفهم شيئاً، لا أفهم شيئاً من ذلك! قالت السيدة برتليف، مطالِبةً بتفسيرات.

ـ سأشرح لك كل شيء. لدينا الكثير مما نقوله اليوم، الكثير مما نحتفل به. أمامنا عطلة نهاية أسبوع رائعة»، قال برتليف وهو يمسك بذراع زوجته. ثم خرج الأشخاص الأربعة من المحطة تحت مصابيح الرصيف.





معظم الناس يتحركون ضمن دائرة مثالية بين بيتهم وعملهم. يعيشون في أرضٍ مسالِمة فيما وراء الخير والشر. تُفزِعهم بصدق رؤيةُ رجلٍ يَقتل. لكن يكفي، في الوقت نفسه، إخراجهم من تلك الأرض الهادئة ويصبحون قَتَلة دون أن يعرفوا كيف. هناك اختبارات وإغراءات لاتخضع لها الإنسانيةُ إلاّ بفواصل متباعدة من التاريخ. ولا أحد يصمد أمامها. لكن الكلام عنها عبث تماماً.

أخذ يحك ظهر الكلب ويفكر بالمشهد الذي رآه بأم عينه منذ قليل. بالنسبة له لقد اختلط أولئك العجائز المسلَّحون بالعصيّ، بحرَّاس السجن، بقضاة التحقيق والمخبرين الذين يترقبون ليعرفوا إذا كان الجار سيتكلم بالسياسة أثناء قيامه بالتسوُّق. ما الذي يدفع هؤلاء الناس للقيام بنشاطهم المشؤوم؟ حب الأذى؟ بالتأكيد، ولكن أيضاً الرغبة بالنظام. لأن الرغبة بالنظام تريد تحويل العالم الإنساني إلى مملكة غير عضوية، كل شيء فيها يسير وفق إرادة لاشخصية، يعمل في ضوئها كل شيء، ويخضع لها كل شيء. الرغبة بالنظام هي في الوقت ذاته رغبة بالموت، لأنّ الحياة خرقٌ دائم للنظام. أو، بالعكس، الرغبة بالنظام هي الحجة الفاضلة التي يبرِّرُ كرْهُ الإنسان للإنسان إساءاته عن طريقها.

لطالما استفظَعَ جاكوب فكرةَ أنَّ الذين يتفرجون سيكونون مستعدين لتثبيت الضحية أثناء إعدامها. لأن الجلاد أصبح مع الوقت شخصيةً قريبة وأليفة، أما المضطَهَد ففيه شيء تفوح منه رائحةُ الأرستقراطية العفِنة. أصبحت روحُ الجمهور التي كانت في السابق تتماثل مع بؤس المضطَهَدين تتماثل اليوم مع بؤس المضطَهدين. لأن مطاردة الإنسان باتت في قرننا تعني مطاردة أصحاب الامتيازات: أولئك الذين يقرؤون كتاباً أو يملكون كلباً.